الحسن البصري

سيرته . شخصيته . تعاليمه وآراؤه

تأليف
إحسان عباس
مدرس بكلية الخرطوم الجامعية

الطبعة الأولى

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

مطبعة الاعتماد بمصر



مقدمة

كثيرون هم الذين عرفوا بالتقوى والورع والعلم أيام الدولة الأموية ولكن قل أن تجد فيهم من أحرز مكانة الحسن البصرى أو ترك فى النفوس أثراً عميقاً بعيد الحدود كالذى تركه الحسن . وقد يكون لعلمه وزهده وقدرته البيانية دخل كبير فى ذلك ولكن هذه الملكات جميعاً ليست إلا مظاهر من شخصيته المحبوبة المحترمة المهيبة التى كادت تبرأ فى جوهرها من النفاق فى القول والعمل وتسلم من التناقض الصريح بين ماتريده وماتجده . وقد كان الواقع العملى فى الحياة يومئذ يفرض على الناس — كما يفرض عليهم فى كل زمان — أن يعملوا بغير مايقولون ، وأن يخفوا غير مايظهرون ، وأن يسكتوا حين يكون الكلام واجباً . وفى ذلك الجو الذى تمثله تذبذبات القراء حين كانت تجرهم مغريات المال والجاه ، أو تنزلهم من صوامعهم المثالية ضرورات الحياة ، وقف الحسن يجاهد نفسه ويروضها على عبادة المثل الأعلى رياضة نبى نذير قد أصلح نفسه وعرضها على الناس ليثبت لهم أن بلوغ الغاية أمر غير مستحيل .

وليس من السهل على الدارس أن يستخلص صورة صحيحة لشخصية الحسن بعد أن غيرت من مظهرها السنون ومزجت بها كثيراً من الألوان ولذلك كانت محاولتى فى هذه الدراسة قائمة على نفى ما لايثبت للفحص من تلك الزيادات متخذاً لذلك ثلاث طرق مأمونة فى جملتها :

الطريق الأولى : تحرير الدراسة من التيارات المتضاربة ، فقد وجدتنى حين استرسلت فى البحث أقف بين تيارات مختلفة تلتقى جميعاً حول الحسن

وفيها التيار العراقى البصرى، والعباسى السياسى، والعلوى الشيعى، وفيها التيار السنى والاعتزالى والصوفى، وكانت هذه التيارات سبباً فى ذلك الاضطراب الذى وجدته فى الروايات حتى ليمثل الحسن — من خلالها — تناقضاً عجيباً فى أحكامه وآرائه ومواقفه/ وما كان الحسن ليسمح بكل هذا التناقض لو عرفناه على طبيعتـه الأصلية وحقيقته الساطعة ، وإذن فلا بد أن يكون التناقض راجعاً إلى اختلاف الأهواء التى تلتقى على حب الحسن وتمجيده ، فقد افترق تلامذته من بعده واتخذ كل حزب منهم لنفسه سبيلا جديدة وعلـماً جديداً بعد أن كان يوحد بينهم أستاذ واحد ومبدأ واحد، وأصبح منهم الصوفى والفقيه والمحدث والقدرى والجبرى والمتشيع لعلى والمتعصب لعثمان.، ولم تعد هذه المبادىء — كما كانت فى أيام الحسن — مختلطة متداخلة لأن أسباب الفرقة أخذت تقوم على الرأى والحجة ، وتستند إلى المؤلفات والمناظرات، وأخذ كل واحد من أهل هذه المذاهب يرد علمه إلى النبع الأول — إلى الحسن البصرى — فتمسك به أهل السنة القائلون بالجبر ، ونسب القـدرية أنفسهم إليه ودار العلويون بمحاولات متباينة من حوله ، ورأى فيه الفقهاء إمامهم الأكبر ، ولم يطـل الزمن حتى وجد فيه بعض الصوفية « الغوث » أو « القطب » الذى ينشدونه . ولـكن أكان هو فقيهاً أم متصوفاً ؟ أكان مجبراً أم قدرياً ؟ وهل مال إلى عثمان أو أحب علياً ؟ كل هذه الأسئلة من وحى الفترة التى مرت على النـاس بعد عهد الحسن ولعلها لم تـكن تعنيه كثيراً فقد كان لا يضع حداً بين الزاهد والفقيه، ولا يعرف المعالم التى يقف عندها المجبر ويتعداها القدرى، وكان يرى الصحابة أفضل الناس ويعد علياً وعثمان فى كبار الصحابة . غير أنك لو رجعت إلى

مصدر من المصادر المتقدمة فى الزمن لم تعدم أن تجد فيه محاولة تميل بالحسن إلى فريق دون آخر . حتى ابن سعد فى طبقاته ربما كان ينتصر لمبدأ معين فيما يرويه من روايات عن الحسن يشتد فيها على أصحاب الأكسية الصوفية ويفضل عدم التقيد بنوع خاص من الثياب .

وكانت الانطباعات التى خلفها الحسن فى نفوس تلامذته هى مادة الحديث عنه بها يحلون ذكراه وبها يتقربون أيضاً إلى الدولة إذ صادف أن ولاة الأمر فى أوائل الدولة العباسية كانوا يستريحون إلى ذكره وتعجبهم الأخبار المروية عنه : فكان أبو العباس السفاح يسأل عن سر عظمته[١] وأبو جعفر المنصور يهش لذكره ويحب أن يسمع عنه[٢] ، وأكبر الظن أن الدولة العباسية فى مبدأ تكونها كانت بحاجة إلى مبادئه فى الكف وكره الثورة إذ قام الطالبيون يجددون ما انقطع من محاولاتهم فى سبيل الخلافة ووقف تلامذة الحسن من ثورة ابراهيم بن عبد الله العلوى موقف أستاذهم من ثورتى ابن الأشعث وابن المهلب فأخذ تلميذه ابن عون يثبط الناس عن الخروج مع إبراهيم، وأعلن عمرو بن عبيد — تلميذه الآخر — عن كرهه لإراقة الدماء والخروج على السلطان، ووضح بجلاء أن مبادىء الحسن تفيد الدولة فى الأوقات الحرجة ومن ثم نما الميل فى الدوائر السياسية العليا إلى تقديس ذكراه والإعجاب بشخصيته، وليس من المستبعد أن يصاحب هذا الإعجاب الذى توحى به الحقيقة والمصلحة معاً نتيجتان هامتان أولاهما تصوير علىٍّ — على لسان الحسن — بصورة النادم على ما كان من أمر الجمل وصفين

---

(١) ابن العماد : شذرات الذهب ١ / ١٣٧ .

(٢) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ٢١٤/١٣ .

وفى هذا الندم ما يوهن من أحقية العلويين بالخلافة. وقامت الميول العلوية بالضد من ذلك تحاول أن ترد الحسن إلى حدود ضيقة فى النظرة والفكرة وتجعله تلميذاً صغيراً من تلامذة آل البيت ، إلا أن بعض العلوية كانوا معتزلة فآثروا أن يسندوا مبادئهم فى العدل إلى شخصية محترمة كالحسن ولذلك دافعوا عنه ودفعوا كل اتهام ألصق به وأعلنوا فى غير مناسبة عن حبه لعلى وتقديسه له حتى زعموا أنه كان يعرض نفسه من أجله للخطر. أما النتيجة الثانية لذلك اللون العباسى فهى تلك النظرة اللا أموية التى صبت نقمتها على الأمويين عامة ، واستغلت عراقيـــة الحسن فصبت لعناته على الشاميين خاصة .

وقضت بعض الظروف السياسية الأخرى أن ترفع من شأن الحسن وأن تتولى أمر تخليده ـ من ذلك أن أحد القضاة فى أيام المعتصم كان من نسله كما أن القاضى أحمد بن أبى دؤاد كان يذهب فى الفقه مذهب البصريين ويستمد كثيراً من مذهب الحسن نفسه[1] وإذا ذكرنا أن هـذه المكانة فى الدولة عاصرت الزواية البصرية التى تبلورت على يد المبرد والجاحظ أدركنا كيف امتد أثر الحسن مع الأيام وظل صيته على الألسنة وفى الكتب صيتاً خالداً. وكان مما ساعد على تثبيت صورة مقدسة له فى النفوس تلك العصبية البصرية التى استمد منها المبرد والجاحظ تصورهما لشخصية الحسن ، كما استمد منها الشعراء البصريون صورة له مثالية، فإذا أرادوا أن يضربوا المثل بأزهد الناس وأفقههم أشاروا إليه وبهذا أصبح الحسن رمزاً شعرياً كحاتم فى الكرم وكعب بن مامة فى الإيثار ؛ من ذلك قول أبى نواس[2] .

---

(١) المسعودى : التنبيه والإشراف (الجزء الثامن من المكتبة الجغرافية) ص ٣٥٦ .

(٢) ابن قتيبة : طبقات الشعراء ص ٥٧ ، ٥٥٣ الطبعة الأوروبية .

لو ترانى ذكرت أبى الحسن البصرى فى حال نسكه أو قتاده .

وقول ابن مناذر :

هل عندكم رخصة عن الحسن البصرى فى اللهو وابن سيرينا

ولاشك أن الشعراء بالاشتراك مع المبرد والجاحظ ، قد خلدوا للحسن فى النفوس أسمى ما يمكن أن يسجلوه له فى أمور الزهد والفقه والفصاحة ، وجاء أبو حيان التوحيدى يقتفى آثار الجاحظ لا فى الأسلوب وحده بل فى مجالات حبه وبغضه فإذا به يفسح للحسن وجوداً بين أكبر الشخصيات الاسلامية ويصفه بالحكمة ، وليس من المستبعد أن يكون أبو حيان قد نزل للحسن عن بعض جهوده الأدبية .

ولم تنشأ تلك العصبية البلدية بعد الحسن، ولكنها نمت أثناء حياته إذ كانت البصرة تفتخر به — حياً وميتاً — إذا نافست الكوفة وتقدمه على أنه إحدى فضائل ثلاث لا بد أن يقــرّ بها كل من نزلها (والفضيلتان الأخريان هما عثمانيتها ورطبها)[1] وكانت البصرة أيضاً تذكره كلما ذكرت المدينة سعيد بن المسيب وتحاول كل واحدة منهما أن تجعل من صاحبها سيد التابعين على الإطلاق ، ولذلك لا نستطيع أن نطمئن تمام الاطمئنان إلى الرواية التى تقول إن الحسن البصرى كان يكتب إلى سعيد بن المسيب كلما أشكل عليه أمر[2] إذ لا يبعد أن تكون هذه الرواية أثراً من آثار المنافسة بين البصرة والمدينة.

واعتقدت البصرة أنه أنفع لها من المد والجزر وفى المد والجزر حياتها وأصبح عند البصريين فى مستثنى الغاية ، فإذا أثنوا على أحد بالزهد أو بالفقه

(١) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان ص ١٦٦ ط. ليدن .

(٢) الحصرى: زهر الآداب ٢/٢٨٤

أو بالفصاحة قالوا هو أزهد الناس إلا الحسن وأفقه الناس إلا الحسن وأفصحهم إلا الحسن[١] . وهذه العصبية البلدية تقف وراء تلك الزوايات التى تجعل من الشعبى إمام الكوفيين شخصية ضئيلة بجانب الحسن وتصور عطاء وطاووساً وغيرهما بمنزلة التلميذ الصغير من أستاذ كبير .

وإلى جانب تيارى الجبر والقدر اللذين عرضت لها فى الفصل الأخير من هذا الكتاب ، كان التصوف من أقوى التيارات التى كادت تطمس حقيقة الحسن وتخفى عن العين المجردة شخصيته وتعاليمه،ففى ذلك المد الصوفى الذى غمر القرن الرابع ومابعده عاد الحسن إلى الظهور ولكن فى كساء من الصوف حافياً وسخ الثوب يمد يده إلى طعام هذا وطعام ذاك باسم الصداقة والأخوة ويتحدث فى الحب والعشق والمشاهدة[٢] وتتم على يديه الكرامات[٣] وأخيراً غرقت سيرته فى سيل من الأساطير بل أصبحت الأساطير هى الأصل المقصود لذاته ولا بأس أن يجىء فيها اسم الحسن البصرى ليزيد من سحرها ووقعها فى النفوس وليذهب التاريخ إلى الشيطان ولتهزأ الأسطورة بكل عقبة زمنية لأنها تعيش على عاتق الكرامات . ومنذ القرن الرابع أصبح الناس لايسمعون عن الحسن فحسب بل يقرأون له مؤلفات خالدة . ولما سئل الحلاج من أين استمد نظريته فى الحج[٤] قال إنه أخذها من كتاب الإخلاص للحسن البصرى . ومن المضحك أن القاضى الذى كان يحاكمه

---

(١) المناوى : الكواكب الدرية ورقة ٩٥ نسخة خطية بدار الكتب رقم ١٥٠٤٥ تاريخ .
(٢) الشعرانى : الطبقات الكبرى ١/٢٩ ط . بولاق .
(٣) السراج : اللمع فى التصوف ص ٣٢٢ .
(٤) ذهب الحلاج إلى أن الانسان قد يستغنى عن زيارة الكعبة بأن يختار مكاناً نظيفاً طاهراً فى بيته فاذا كان موسم الحج أقام فيه الشعائر التى يؤديها الحجاج .

صاح فى وجهه قائلا : كذبت ياحلال الدم قد سمعناه بمكة وليس فيه هذا[1]
وفى القصة التالية صورة من الأسطورية التى تحكمت فى خيال المتصوفة حين تحدثوا عن الحسن . وهى قصة لها أشباه . رووا عنه أنه قال : بينما أنا أطوف بالبيت إذا بعجوز متعبدة فقلت من أنت؟ فقالت من بنات ملوك غسان . قلت فمن أين طعامك؟ قالت : إذا كان آخر النهار فى كل يوم تجيئنى امرأة متزينة فتضع بين يدى كوزاً من ماء ورغيفين . قلت لها : أتعرفين المرأة ؟ قالت : اللهم لا ، قلت : هذه هى الدنيا . خدمت ربك عز وجل فبعث إليك بالدنيا لخدمتك على رغم أنفها [2] .

وحين حاول الصوفية أن يوجدوا لعلم الباطن أصلا جعلوا الحسن البصرى حلقة فى سلسلة الأئمة الذين انتقل إليهم السر فرووا أنه قيل له ياأبا سعيد : إنك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك فمن أين أخذته ؟ قال من حذيفة بن اليمان وقيل لحذيفة نراك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك من الصحابة فمن أين أخذته ؟ قال خصنى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان الناس يسألونه عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه [3] ومن السهل أن ننفى واقعية هذه الرواية من الناحية الزمنية لأن صلة الحسن بحذيفة (توفى ٣٦هـ بعيداً عن المدينة) — إن وجدت — لا تؤهله لأخذ الأسرار فى سن مبكرة . غير أن هذه الرواية تؤيد صلة من نوع آخر بين حذيفة والحسن ، وهى الشبه فى الاتجاه النفسى بين الرجلين فقد كان حذيفة يخاف الشر فيسأل عنه ليتجنب الوقوع فيه ، ويجعل من الحذر قاعدة للحياة الدينية

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٨/٤ ٩ الطبعة الأوربية .
(٢) البيهقى : المحاسن والمساوىء ص ٣٨٧ ط . فريدريك شوالى .
(٣) الغزالى : إحياء علوم الدين ٦٨/١ — ٦٩ .

والحسن كذلك — كان الخوف أساس التدين فى نفسه وكانت النار تتراءى له أكثر مما تتراءى الجنة ، وكان يعيا بالذنب الصغير ولا يطمئنه الخير الكثير.

وأصبح للحسن فى شجرة التصوف ثلاثة فروع — على الأقل — يصله أحدها بحذيفة فالرسول من طرف وبالمحاسبى من الطرف الآخر (الرسول — حذيفة — الحسن — المحاسبى) وربما كان هذا الفرع أوثق الفروع وأصحها نسباً من حيث المبدأ فالحسن يشبه حذيفة والمحاسبى متأثر إلى حد بعيد بالحسن ومن خلال المحاسبى امتد الأثر إلى شمالى افريقية حتى أن ليو الافريقى فى القرن الخامس عشر رأى فى بعض المدن الافريقية جماعة من العلماء يسمون أنفسهم « فلاسفة الأخلاق » والشعب يقدسهم وهم يقولون إن إمامهم الأول هو الحسن البصرى ثم خلفه فى الإمامة أسد بن الحارث المحاسبى[١] . أما الفرع الثانى فالحسن فيه واسطة تصل بين الرسول وعلى من جهة وبين حبيب العجمى وداود الطائى ومعروف الكرخى من جهة أخرى[٢] . ولا بد أن نلحظ هنا هذا الوصل بين على والحسن لنرى فيه معنى المشاركة فى مبدأ واحد ولنفهم منه كيف حاول الصوفية أن ينازعوا غيرهم من الفرق فى نسبة مذهبهم إلى « باب مدينة العلم » . والفرع الثالث يستمد فيه الحسن من أنس بن مالك (وأنس بطبيعة الحال يستمد من الرسول) ثم إنه يمد بدوره تلميذه فرقداً السبخى ومن فرقد استمد معروف الكرخى فالسرى السقطى فالجنيد فالخلدى[٣] . وهذا الفرع يلتقى مع الفرع الثانى إلا أنه يقدم فرقداً بدلا من حبيب العجمى ، وعلاقة فرقد

(١) M. Smith : The Early Mystic of Baghdad, P. 282

(٢) ابن أبى أصيبعة : طبقات الأطباء ٢ / ٢٥١ .

(٣) ابن النديم : الفهرست ص ١٨٣ الطبعة الأوربية .

بالحسن مشهورة واضحة وإعجابه به كبير ولكن جملة الحسن على بعض مبادىء فرقد (تلك الحملة التي جعلت متز يرى فى الحسن عدواً للمتصوفة) تدلنا إلى أى حد أغضى الصوفية على بعض تهجمات الحسن ورضوا به إماماً فى الجملة.

أقول فى الجملة لأن النفسية الداخلية لبعض الجماعات المتصوفة لم تنس أن الحسن فقيه بارع فى أمور المعاملات ولذلك صورته فيما دقّ من حقائق القوم أمرءاً مغلوباً على أمره ظاهريّ الفهم للمسائل الدقيقة. فهو لا يستطيع أن يجارى رابعة العدوية فى سعة الأفق ووضوح الغاية، وهو يعجز عن العزلة التى يستطيعها الصوفى المخلص. وهو يهرب من جند الحجاج ليلجأ إلى الصوفى الكبير تلميذه حبيب العجمى ويقول له وهو خائف مرتاع «يا أبا محمد احفظنى من الشرط على أثرى» فيجيبه حبيب «استحييت لك يا أبا سعيد ليس بينك وبين ربك الثقة ما تدعو فيسترك من هؤلاء»[1].

وبكرامة حبيب نفسه نجا من جند الحجاج — فيما تزعم الرواية — فإن الجند جاءوا يسألون عنه فقال لهم حبيب انه مختبىء فى البيت فلما دخلوا البيت لم يجدوا أحداً فعادوا إلى حبيب فشتموه واتهموه بالكذب فخلف لهم أنه ما قال إلا حقا، فعاودوا البحث مرتين وثلاثاً ثم انصرفوا. وخرج الحسن من مخبأه وقال لحبيب أنا أعلم أن الله سترنى ببركتك ولكن لم أخبرتهم أنى هنا؟ فقال له تلميذه: يا سيدى، إنهم لم يعموا عنك ببركتى، ولكن ببركة الصدق[2]. ما أصغر الحسن البصرى فى هذه الروايات الصوفية وما أقل شأنه! ينسى فضيلة الصدق حين يكون فى خطر، بل يلجأ إلى حبيب

---

(١) تهذيب ابن عساكر ٤/٣٠ ط. دمشق.

(٢) الهجويرى: كشف المحجوب ص ٨٨ الترجمة الانجليزية نشر وترجمة نيكولسون.

لجوء الرجل الدنيوى إلى صاحب الحقيقة . حقاً إن هذه الروايات لا تنكر أستاذيته من حبيب ومحمد بن واسع ومالك بن دينار ولكنها لا تمنحه ما منحتهم من قوة نفسية .

على أنا إذا أنكرنا أن الحسن كان متصوفاً فمن الحق أن نقرر بأن تعاليمه كانت فى مجموعها تهدف إلى « تربية زهدية » صريحة ، وبين الزهد والتصوف خط وهمى والأول يمهد للثانى . وليس فى تعاليم الحسن شىء من تلك المبادىء التى أصبحت قواماً لمذهب المتصوفة ولكن ما فيها مرحلة لا بد أن يمر بها المريد . فالحسن لا يتحدث عن الطريقة والحقيقة والوصول والمقامات ولا يعرف شيئاً عن الاتحاد بل إن مواعظه قليلة الالتفات إلى « الألوهية » فى جلالها وجمالها وعظمتها ، لأنه مشغول بالموت وموقف الحساب وهول النار ، معنى باجتذاب الإنسان لئلا يتردى فى الهاوية . وقد أتيحت له الفرصة ليكشف عن مفهومات تصوفية دقيقة فلم يفعل لأن هذه المفهومات لم تتضح إلا بعده بزمن[١] . وسترى فى بعض فصول هذا الكتاب كيف يلح الحسن إلحاحاً شديداً على مبدأ الخوف حتى يكاد يعرض عن أية إشارة إلى الرجاء ومن المعروف أن سيطرة الخوف وحده ليست من المراتب العلية فى التصوف ، وأن نوع الخوف الذى يجده الحسن لم يكن « خوف العارفين » بل « خوف الصالحين » ، لأن خوف العارفين لا يتصل بالموت والنار والعذاب وإنما هو خوف من حجاب الله تعالى والحرمان من النظر إليه[٢] . ولذلك نستطيع أن ننفى عن الحسن كل الأقوال المتعلقة بالرؤية أو الحب أو الرجاء مثل

---

(١) انظر تفسيره لآية « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » فى تفسير القرطبى ١٧ / ٤٠ ط . دار الكتب .

(٢) الإحياء ٤/١٣٩ .

« لو علم العابدون أنهم لا يرون ربهم يوم القيامة لماتوا » ومثل « الرجاء والخوف مطيتا المؤمن » ومثل « المحب سكران لا يفيق إلا عند مشاهدة محبوبه »(١) . فهذه الأقوال وأشباهها قد نحلها الحسن لتصح له مرتبة الإمام الصوفى. واستواء الخوف والرجاء أمر دقيق تنبه له المحاسبى من بعد ولكن لم يتنبه له الحسن(٢) .

ومن الحق أن نسأل أكان اسم الصوفية فى أيام الحسن يطلق على طبقة من الناس ذات مبادىء معينة ؟ أما الصوفية أنفسهم فيرون أن الاسم قديم وأنه كان معروفا فى أيام الحسن ويروون عنه أنه قال : رأيت صوفياً فى الطواف فأعطيته شيئاً فلم يأخذه وقال معي أربعة دوانيق فيكفينى مامعى(٣) . ويروون أيضاً أن تلميذه عبد الواحد بن زيد سئل عن تعريف الصوفية فقال « هم القائمون بعقولهم على هومهم والعاكفون عليها بقلوبهم ، المعتصمون بسيدهم من شر نفوسهم »(٤) . والذى لا شك فيه أنه كان فى البصرة جماعة ممن يلبسون الصوف ويتشددون فى الزهد وتسميهم المصادر المتقدمة فى الزمن أصحاب الصوف ويسميهم الحسن أصحاب الأكسية ولكنهم فى الغالب لم يعرفوا باسم المتصوفة ولا كان مذهبهم يسمى التصوف(٥) .

---

(١) أبو نعيم الأصفهانى : حلية الأولياء ٢ / ١٥٩ ، ١٥٦ ط . الخانجى وطبقات الشعرانى ١/٢٩ .

(٢) انظر مرجريت سميث عن المحاسبى ص ١٨٨ نقلا عن كتابه الرياء .

(٣) اللمع ص ٢٢ .

(٤) اللمع ص ٢٥ .

(٥) يرى الأستاذ نولدكه أن كلمة صوفى عرفت منذ أيام عبد الملك بن مروان انظر جولدتسيهر العقيدة والشريعة ص ١٣٦ والحقيقة أن هذه اللفظة لم تستعمل إلا بعد الحسن بقليل .

ولم تكن لهم مبادىء متبلورة بل كان لهم زى خاص يكرهه بعض الناس لأنه يمثل لهم نوعاً من الرهبنة حتى كانوا يقولون لفرقد « ضع نصرانيتك هذه عنك »[١] . ويكرهه الحسن البصرى نفسه لأن فيـــه إعلاناً عن الزهد والتقوى .

الطريق الثانية : تمييز الأقوال التى لا شك فى نسبتها للحسن من تلك التى تنسب له إما استغلالاً لشخصيته وإما تهاوناً من المصادر فى التفرقة بين قائل وآخر . وكان هذا العمل — على صعوبته — ضرورياً لأن هذه الأقوال هى المصدر الذى اتخذته للحكم على شخصية الحسن وتحديد تعاليمه وليس من التحقيق فى شىء أن أقبل كل ما أجده معنوناً باسمه، بل لعل المصادر عبثت فى هذه الناحية عبثاً آخر حين أوردت القول الواحد من أقواله على صور مختلفة فيها الزيادة والنقص والتحريف،وهذه الحقيقة الأخيرة تجعل الحكم على أسلوبه بعيداً بعض البعد عن الدقة . وقد وجدت القول ينسب له فى بعض المصادرثم ينسب لمالك بن دينار أوعمر بن عبد العزيز أوأبى سعيد الخدرى أو الشافعى فى مصادر أخرى .

على أن أكثر الناس منازعة له فيما قال من وعظ هوعلى بن أبى طالب . ففى النصف الأول من القرن الخامس كانت هناك ظاهرة عجيبة مثلثة — كان أبو نعيم الاصفهانى يكتب كتاب حلية الأولية ويفرد للحسن فيه ترجمة مسهبة ، حظها من الأسطورية قليل ، والشريف الرضى يجمع نهج البلاغة ويدرج فيه كثيراً من الأقوال التى رواها الجاحظ وأبو نعيم للحسن . وبين هذين وقف الشريف المرتضى يعلن فى أماليه أن مواعظ الحسن مأخوذة

(١) ابن قتيبة : عيون الأخبار ٢٩٨/٢ ط . دار الكتب المصرية .

لفظاً ومعنى أو معنى فقط من كلام أمير المؤمنين(١) . أما أخذها بالمعانى فشىء لا ضرورة لنفيه وأما أخذها باللفظ والرضى بنسبتها إلى الحسن فأمر يبعث على الدهشة والاستغراب . وإليك أمثلة من الاتفاق بينهما :

على بن أبى طالب	الحسن البصرى
(ا) وإنما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمهم الله بالعذاب لما عموه بالرضا (النهج ٢/٢٠٧)	انظر العبارة فى البيان والتبيين ٣/١١٧ نشر السندوبى
(ب) فكأن ماهو كائن من الدنيا عما قليل لم يكن وكأن ماهو كائن من الآخرة عما قليل لم يزل (١/١٩٧)	العبارة للحسن فى البيان ٢/٦٦
(حـ) وهنأ بحضرته رجل رجلا بغلام ولد له فقال له : ليهنئك الفارس فقال له عليه السلام لاتقل ذلك ولكن قلْ شكرت الواهب وبورك لكَ فى الموهوب وبلغ أشده ورزقت بره (٣/٢٣٧)	العبارة للحسن فى البيان ٣/٢٤١
(ء) مسكين ابن آدم مكتوم الأجل مكنون العلل محفوظ العمل تؤلمه البقة وتقتله الشرقة وتنتنه العرقة (٣/٢٥٣)	العبارة للحسن فى أمالى المرتضى ١/١١٠
(هـ) من أطال الأمل أساء العمل (٣/١٦٠)	العبارة فى أمالى المرتضى ١/١١٠

---

(١) أمالى المرتضى ١/١٠٧ ط . الخانجى .

النص	ملاحظة
(و) يا ابن آدم لا تحمل هم يومك الذى لم يأتك على يومك الذى قد أتاك فإنه إن يك من عمرك يأت الله فيه برزقك (٢١٧/٣)	انظر عبارة مشابهة فى الحلية ١٣٨/٢
(ز) افعلوا الخير ولا تحقروا منه شيئاً فإن صغيره كبير وقليله كثير (٢٥٤/٣)	انظر عبارة مشابهة فى الحلية ١٤٣/٢
(ح) قد حقر الدنيا وصغرها وعلم أن الله زواها عنه اختياراً وبسطها لغيره احتقارا (٢١٤/١)	انظر الحلية ١٣٦/٢
(ط) وصف المؤمنين (١٨٦/٢)	النص نفسه فى الحلية ١٥١/٢
(ى) حديث مسهب عن الأنبياء المتزهدين (٧٣/٢)	نص مشابه له كثيراً فى الحلية ١٣٧/٢
(ك) فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة فى دين وحزناً فى لين وإيماناً فى يقين .. إلخ (١٨٧/٢)	القول نفسه منسوب للحسن فى الأحياء ١٤٤/٣
(ل) واعلموا أنه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة ولا لأحد قبل القرآن من غنى (١١١/٢)	القول نفسه للحسن فى الإحياء ٢٤٦/١

وليست هذه الأمثلة هى كل ما هنالك فثمة غيرها كثير. ومهما يكن حد الفوضى فى المصادر، فإن شيئاً من الشك يساور النفس فى نسبة هذه الأقوال لعلى لأن الأمر لم يقتصر على أقوال الحسن وحده بل تعداه إلى أقوال رجال آخرين من أهل القرن الأول كعتبة بن غزوان وابن عباس وواصل

ابن عطاء وقطرى بن الفجاءة . وقد روى الجاحظ فى البيان والتبيين أن عتبة قال « أما بعد فإن الدنيا قد تولت حذاء مدبرة فلم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء يصطبها صاحبها »[١] وقال ابن عباس « إذا ترك العالم قول لاأدرى أصيبت مقاتله »[٢] وقال واصل : كن فى الفتنة كابن لبون لاظهر فيركب ولا لبن فيحلب »[٣] وهذه الأقوال الثلاثة فى نهج البلاغة[٤] معدودة من أقوال علىّ كما احتوى الكتاب المذكور على خطبة كاملة رواها الجاحظ لقطرى بن الفجاءة . وكل هذه النصوص المنسوبة لعلى تمثل موروثاً بصرياً أو مدرسة بصرية،ولست أدرى إلى أى حد يحق لى أن أفترض أن التنازع عليها يرجع إلى التنافس بين روايتين متوازيتين إحداهما تمثل اتجاه البصرة والأخرى تمثل اتجاه الكوفة . بل لعل الباحث لو صرف همه إلى نهج البلاغة لوجد بعض ما فيه ينسب فى المصادر المعتمدة إلى أشخاص آخرين من رجال القرن الأول وحينئذ يحق أن نزعم أن نهج البلاغة لا يمثل علياً وحده ولكنه يمثل « الخطيب » الدينى السياسى فى ذلك القرن .

وأياً كان الأمر فإن الاضطراب فى نسبة هذه النصوص قد جعلها قليلة الفائدة فى دراسة الحسن البصرى لأنى اضطررت إلى استبعادها فلم أتخذها أداة للحكم على مبادئه وآرائه وشخصيته .

الطريق الثالثة : جاءت بعد الخطوتين السابقتين فإنى حين رصدت التيارات المتضاربة ، وسلمت لى الأقوال الصحيحة جعلت أبنى منها تصورى لشخصية الحسن فنفيت ما رأيته غير متفق مع المكونات الكبرى

---

(١) البيان ٢/٥٣ .

(٢) المصدر نفسه ٢/٨٨ .

(٣) المصدر نفسه ٢/٩٤ .

(٤) أنظر ٢/٨٩ ، ٣/١٦٩ ، ٣/١٥٢ .

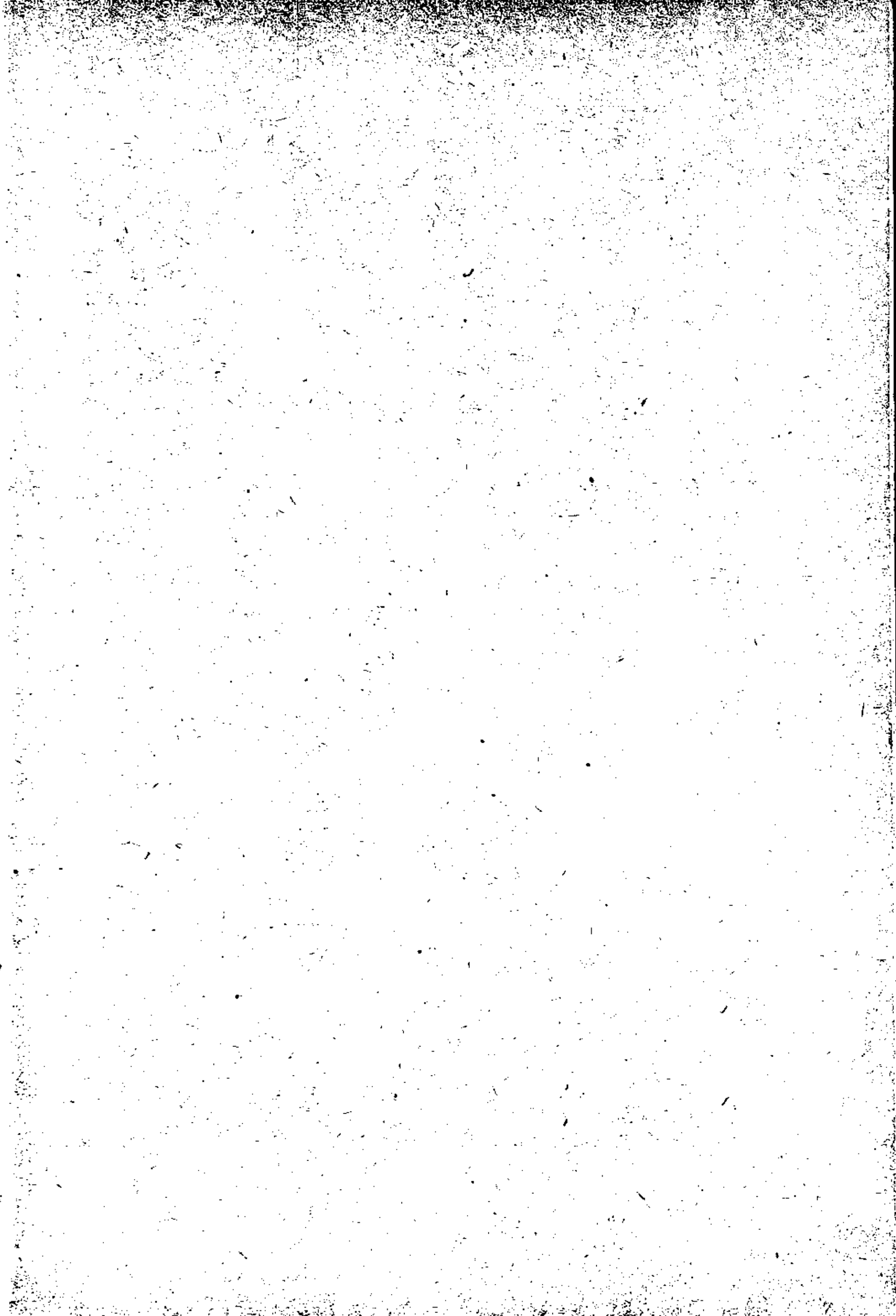
الشخصيته — على إيمانى بأن النفس الإنسانية قابلة أحياناً لكثير من المتناقضات — ولست أنكر أن هذه محاولة غير سليمة النتائج دائماً لأن الحكم على الشخصية ليس إلا تسجيلا لبعض المظاهر الخارجية التى قد تكون أبعد شيء عن الدلالة الصحيحة ، كما أنها تعبر عن وجهة نظر عند الدارس أكثر مما تعبر عن حقيقة موضوعية وكثيراً ما تكون وجهة النظر هذه متحيزة أو قاصرة ، ولذلك لم أعتمد هذه الطريق إلا فى القليل النادر .

والحسن البصرى من الشخصيات التى لم تنلها هجنة المعاصرة ولم تصب بشيء من التجريح عند المعاصرين وهذا مما يجعل الحكم عليها من خلال آثارها عقليا فاترا . لقد كان الحسن أستاذ جيل كامل من رجال القرن الأول وهذا الجيل هو خير من أحس بأثره وشخصيته ، أما اليوم فنحن نبحث فى أقوال بردت فيها الحياة لنتصور كيف كان صاحبها بعد أن بعد الزمن بيننا وبينه وحال لون كثير من آرائه فى أنظارنا . وما أظننا نبلغ فى الإعجاب به مبلغ من عاصروه أو قريباً من ذلك .

الخرطوم فى ٢٠ مارس ١٩٥٢

الكتاب الأول

خيوط من سيرته



(١)

نشأته فى المدينة

٢١ — ٣٦ هـ

ولد الحسن البصرى بالمدينة سنة إحدى وعشرين هجرية من أب يقال له يسار[١] ، استرق فى فتح ميسان[٢] وأصبح عبداً لبعض الأنصار ثم أعتق ، فكان ولاؤه فى الأنصار. ولا ندرى من هو مولاه على التعيين فيقال إنه زيد ابن ثابت ويقال أحياناً أخرى إنه جميل بن قطبة . ولم يكن الرجل يمتاز بشىء إلا بأنه خلف هذا الطفل الذى أصبح فيما بعد علماً باسمه وحده دون اسم أبيه ، بل عرف الناس أباه به فأشاروا إليه بأبى الحسن .

وأما أمه واسمها خيرة فالمشهور أنها كانت مولاة لأم سلمة فهى أيضاً أمَةٌ معتقة ولا تسند المصادر لها الأصل الميسانى كما تسنده إلى أبيه وهذا مما يجعلنا نظن أن أمه ولدت على الرق فى المدينة أو كانت حين أتى بها إليها صغيرة السن . وتمام هذا الفرض أن يساراً وقع للسيد الذى نشأت فى بيته خيرة وأنه حين تزوج امرأة من الأنصار ساق هذين العبدين فى مهرها[٣] ولم تعتقهما تلك المرأة إلا بعد أن ولد لها الحسن وبذلك يكون الحسن قد ولد على العبودية[٤] .

---

(١) هذا هو اسمه بعد أن أسلم وكان نصرانيا فى الأصل ولا نعلم اسمه الأصلى .

(٢) أورد ابن الأثير فى حوادث سنة ١٢ هـ أن والد الحسن البصرى أسر فى وقعة الثنى وكان القائد خالداً ثم عاد فذكر فى حوادث سنة ١٤ هـ خبر أسره فى ميسان . وذكر البكرى فى معجمه أن ميسان موضع من أرض البصرة (معجم ما استعجم ط . أوروبة ص ٥٦٧) .

(٣) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير ج ٧ القسم الأول ص ١١٤ .

(٤) ابن قتيبة : المعارف ص ١٩٥ .

وعاشت هذه العائلة الصغيرة فى وادى القرى فكان الأب فى الغالب يعمل فى الشئون الزراعية ، وكانت الأم تتردد على المدينة حيث تخدم أم سلمة . وأخذ الطفل يصحب أمه فى تلك الرحلة القصيرة ، ويدخل معها البيوت التى تسكنها زوجات الرسول ؛ وهو يحدثنا أنه كان يتناول سقف تلك البيوت بيده (١) ، وهذا خبر لا يشير إلى قلة ارتفاع فى تلك البيوت فحسب بل يدل على أن نمو ذلك الطفل كان قد جعله يظهر طويلا بالنسبة إلى سنه . وربما وجدنا فيه ميل الطفل فى سن غير صغيرة جداً إلى التعلق بأمه وإقباله على مساعدتها فى بعض الخدمات المنزلية وفى قضاء حوائج كان يندب لها .

وكان لاتصال أمه بالبيئة العربية فى سن مبكرة أثر ساعدها على أن تصح لها اللغة العربية ، وأن تكون قادرة على ضبط الحديث أخذاً ورواية وبذلك كانت أبعد أثراً فى تنشئة الحسن من أبيه . بل لعل ظهورها واختفاء شخصية يسار فى حياة الحسن يرمز إلى طغيان شخصيتها فى تربية أولادها وفى شئون بيتها ، فهى صاحبة الأثر الأول فى ذلك الاتجاه الدينى الذى سار فيه الحسن وأخوه سعيد ، وكانت لديها ميول قصصية وعظية فأخذ عنها الحسن ذلك الميل إلى الوعظ والقصص ، ولعلها هى التى زودته بالمادة الأولى منها بما كانت تقصه عليه فى طفولته وربما كانت تجنح فى قصصها إلى التخويف من الجحيم إلى جانب ترغيبها فى الجنة وإن تكن الأحاديث التى روتها عن أم سلمة أكثرها فى تصوير الثواب . وقد ظلت شخصيتها قوية حتى النهاية

---

(١) ابن سعد : ٧/١١٧ ونهاية الأرب ٥/٢٦٢ .

ولما هاجرت إلى البصرة جلست تقصُّ للنساء وكانت لا تزال حية حين أصبح ابنها يملأ المجتمع البصرى شهرة وصيتاً . دخل عليها الحسن ذات يوم وفى يدها كراثة تأكلها فقال لها : يا أماه ألق هذه البقلة الخبيثة من يدك . فقالت يابنى إنك شيخ قد كبرت وخرفت ، فقال يا أماه أينا أكبر [1] ! وفى جوابها ما يفسر لنا العنف الذى لم يفارق شخصية هذه الأم حتى فى شيخوختها ، وقد ظلت شخصيتها تفرض وجودها على الحسن من خلال تلك الأحاديث التى رواها عنها عن أم سلمة ولم يتركها مراسيل كما هو شأنه فى أكثر ما كان يحدث به لاعتزازه برواية أمه عن أم المؤمنين .

وكان للحسن فى هذه الفترة نصيب وافر من معرفة السنة ومن سماع أقوال الصحابة ورؤية أشخاصهم وتم له فيها قبل أن يبلغ الرابعة عشرة من عمره حفظ القرآن [2] وتعلم الكتابة وضبط الحساب ، ورسخت فى نفسه صورة مثالية لعهد عمر ذلك العهد الذى كان يشير إليه الناس دائماً وهم ينتقدون عثمان على مسمع من هذا الفتى . وقد استحالت بعض أحداث ذلك العصر القريب على ألسنتهم قصصاً جذابة تنبض بكل الفضائل السامية من عدل وصدق وتقوى وإخاء فإذا ارتفعوا قليلا إلى عهد الرسول سيطرت على النفوس موجة طاغية من الإعجاب وامتلأت القلوب بروعة الذكرى وفى لمحة خاطفة أخذ الناس يقيسون بين ما كان وما جدَّ فتحسروا على الزمن الفائت وأشاروا بأصابع النذر إلى تغير الحال وسوء المآل .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ١/٢٢٨ ط . بولاق .

(٢) ابن سعد : ٧/١١٥ .

وهكذا اتصل الحسن ببيئة المدينة فى فترة من أشد الفترات على المسلمين رجعية والتفاتاً إلى الوراء وهم يتلمسون فى الماضى القريب شعاعاً ينير لهم الطريق . وقيد الأتقياء منهم أنفسهم بحبال الماضى وكانت بوادر الثورة على عثمان تعنى غضبة أولئك الأتقياء لانحراف نهر الحياة الإسلامية عن الطريق التى شقت له من قبل، وغضبة لبدء الاضطراب فى الحياة الاقتصادية، وأعلنت هذه الغضبة عن نفسها على لسان أبى ذر الذى كان يمثل شعوراً واسعاً من النقمة على أقلية من الناس أخذت تستأثر بالثراء . وأعلن الجند سخطهم لتصرف الحكومة بالفىء وهم يعتقدون أن الفىء حق لهم دونها . وفى هذا الجو سمع الحسن دعوة أبى ذر ، ورأى حماسة ذلك الرجل التقى لمبدأه فكان لذلك كله أثر فى نفسه لم تلبث أن كشفت عنه الأيام حين وقف فى البصرة يهوّن على الأغنياء فيها أمر المادة ويخوفهم عاقبة الحرص والجشع ويحدث الناس عن مقتل عثمان ويؤكد لهم أن البطر المادى هو الذى دفع الناس إلى النزق والطيش وحمل الصحابة أنفسهم ليثوروا على أمامهم ويقتلوه .

وفى هذه الفترة من حياته رأى الحسن عثمان — رآه مرة يُصبُّ عليه من إبريق[١] ورآه يخطب فى مسجد المدينة قائماً وقاعداً[٢] وعلق بذاكرته من منظره الخارجى نكت من الجدرى بوجهه ومنظر شعره الكثيف

(١) ابن سعد ٧/١١٤ .
(٢) المصدر نفسه .

وهو يغطى ذراعيه[1] وأعجبه منه تواضعه حين كان يبصره نائماً فى المسجد ورداؤه تحت رأسه فإذا جاءه الناس جلس إليهم كأنه أحدهم[2] ثم رآه وهو فى حومة الفتنة يحاول أن يترضى الجموع فيأبى عليهم الهياج إلا مجاوزة حدود الأدب مع الخليفة الشيخ. قال الحسن : « خرج علينا عثمان بن عفان رضى الله عنه يوماً يخطبنا فقطعوا عليه كلامه إذ قام إليه رجل فقال اسألك كتاب الله فقال له ويحك أليس معك كتاب الله ! ثم جاء رجل آخر فنهاه وقام آخر وآخر حتى كثروا فتحاصبوا فتراموا بالبطحاء حتى جعلت ما أبصر أديم الأرض »[3] . وأرهف الفتى الناشىء سمعه إلى صوت صادر من بعض حجر أزواج النبى وقال الناس بعضهم لبعض هذا صوت أم المؤمنين وسمعها الحسن فيمن سمعها تقول : ألا إن نبيكم قد برىء ممن فرق دينه واحتزب ، وتلت : إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء[4] . وكان هذا المبدأ هو العقيدة التى عاش الحسن يدافع عنها طيلة حياته .

---

(١) الذهبى : تاريخ الاسلام ٢/١٤١ ط . مصر .

(٢) البلاذرى أنساب الأشراف ٥/٤ ط . الجامعة العبرية بالقدس وابن الأثير ٣/١٤٥ — وتاريخ الذهبى ٢/١٤٤ .

(٣) أنساب الأشراف ٥/٧١ ، ٩٢ والشاطبى : الاعتصام ١/٣٨ وتاريخ الذهبى ٢/٢٩ وفى البلاذرى والذهبى : ما أبصر أديم السماء (من الغبار) .

(٤) الاعتصام ١/٣٨ .

(٢)
انتقاله إلى البصرة

٣٦ — ٤٢ هـ

اضمحل نشاط المدينة بعد أن غادرها عليّ بن أبي طالب ودخل في جيشه بعض أهلها ، وربما كان هذا الفتور في الحياة يومئذ هو الذي حدا بيسار إلى أن يغادر البيئة المدنية ويتوجه بأهله إلى العراق — إلى جوار الوطن الذي فارقه قبل سنوات ؛ ونظن أن صلته بالحياة العمرانية — صناعية كانت أو تجارية أو زراعية — هي التي دفعت به إلى البصرة فنزلها متكسباً . وليس من شك في أن اختياره الهجرة إلى البصرة في ذلك الوقت لايدل على صلة بالجندية فقد كانت الحرب الأهلية حينئذ تشغل الناس عن الفتح وكانت ليالي صفين هي آخر الليالي التي قضاها الحسن وأهله في المدينة . إذن لم يشترك والده في الحرب بين علي ومعاوية بل لعل اختياره البصرة حينئذ وهي المعسكر الذي كان يعادي علياً ، وولاءه في الأنصار — وخاصة إن كان مولى زيد بن ثابت — لايقوي الظن بأنه كان يميل إلى الخليفة الجديد ، ومعنى ذلك بطبيعة الحال أن الحسن لم يخض غمار الحرب بين علي وخصومه وتقول إحدى الروايات إنه حمل سيفه وذهب ليحارب مع عائشة فلقيه الأحنف بن قيس وقال له إلى أين تريد ؟ قال أنصر أم المؤمنين . فقال الأحنف والله ماقاتلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المشركين فكيف تقاتل معها المؤمنين[١] وهي رواية تمثل اعتزال الحسن للفتنة ولكنها خطأ من حيث

---

(١) البيهقي : المحاسن والمساوىء ص ٤٩ .

الزمن لأن الحسن أيام الجمل كان لايزال فى المدينة . وتمشى مع هذه النقلة نقلة كانت أبعد أثراً فى حياة الفتى فلم يكد يمضى عليه عام بعد فراقه المدينة حتى مسحت الرجولة بيدها الخشنة على تقاطيعه وبنيته فإذا هو فى دور البالغ المكلف ينظر إلى الدنيا نظرة فيها القوة والرغبة والادارة وفيها التطلع إلى الأمل والسعى وراء الغاية .

ولم يفكر طويلا فى الطريق الذى يسير فيه فقد كان يجمع فى يده الخيوط الأولى التى تصله بعهد المدينة، ومن ثم أخذ يتردد على الحلقات فى مسجد البصرة فاستمع فيها إلى ابن عباس يفسر القرآن ويحدث الناس بأسلوب تملكَ على الفتى اهتمامه — شاهده يوماً صعد المنبر فقرأ البقرة وآل عمران ففسرهما حرفاً حرفاً[١] وأعجبه حين وجده فى تفسيره ومنطقه « مثجاً يكاد يسيل غرباً[٢] وقد سن ابن عباس فى البصرة سُنة لم يسبق إليها إذ كان أول من عرَّف بها أى جمع الناس ودعا وقت وقوف المسلمين بعرفات وأعجبت الحسن هذه السنة فاحتذاها من بعد وأخذ فى يوم عرفة بعد صلاة العصر يخرج من مقصورة الجامع[٣] ويقعـــد يدعو والناس من حوله يؤمنون على دعائه[٤] .

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ١/٩٩ ، ٣١٧ نشر السندوبى وانظر تهذيب التهذيب ٣/٢٦٣ حيث نقل ان الحسن لم يسمع من ابن عباس وما رآه قط وأن قول الحسن خطبنا ابن عباس فى البصرة انما يعنى خطب أهل البصرة وهو قول لايلتفت اليه .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) كذا فى بعض الروايات. وفى بعضها الآخر أن الحسن كان يكره الصلاة فى المقصورة. أنظر الإحياء ١/١٦٥ .

(٤) سنن البيهقى ٥/١١٧ .

وتعرف فى مسجد البصرة إلى حطان الرقاشى فتعلم منه القراءات[1] وكان إذا غادر حلقته ذهب إلى مؤخر المسجد حيث كان الأسود ابن سريع التميمى الشاعر المتأله يقص للناس ويذكرهم أو يقرأ لهم من شعره فى الثناء على الله [2] فيستمع الحسن إليه ويعى مايقول . وهكذا مضى فى شأنه يأخذ التفسير عن ابن عباس والقراءة عن حطان وطريقة التذكير والقصص عن ابن سريع وغيره من القصاص المنتشرين فى مساجد البصرة وبين هذه الألوان المتشابكة تندرج أمور من الفقه واللغة والأدب والحديث ومن كل ذلك وجد الحسن مادته الثقافية بعد القرآن وكانت الطريقة التى أخذ نفسه بها أثناء تعلمه دقيقة متدرجة ، من ذلك أنه فى فهمه للقرآن لم يخرج من سورة إلى غيرها حتى يعرف تأويلها وفيم أنزلت[3] .

ووقعت عينه فى المسجد وفى الحى الذى عاش فيه وفى غدواته وروحاته بينهما على ناس من الزهاد يحتفى الناس بهم ويكرمونهم ويتبركون بهم ويشيرون إلى بيوت لهم قد انقطعوا فيها للعبادة وقد كانت البصرة من أول المدن فى تشجيع هذه الظاهرة إذ تحدثنا الأخبار أن زيد صوحان (حوالى ٣٦هـ) عمد إلى رجال من أهل البصرة قد فرغوا للعبادة وليست لهم تجارات ولاغلات فبنى لهم داراً ثم أسكنهم إياها ثم أوصى بهم من أهله من يقوم بحاجاتهم ويتعاهدهم فى مطعمهم ومشربهم[4] .

---

(١) تاريخ الذهبى ٤/١٠٠ .

(٢) ابن سعد ٧/٢٨ وفى التهذيب ٢/٢٦٨ أن الحسن لم يسمع من الأسود لأن هذا خرج من البصرة أيام على .

(٣) ابن العماد : شذرات الذهب ١/١٣٧ .

(٤) تهذيب ابن عساكر ٦/١٣ ط . دمشق .

وفى المسجد نفسه أقبل على مجالس الصحابة الذين كانوا قداتخذوا البصرة داراً لهم وفيهم عمران بن الحصين وأنس بن مالك وعبد الرحمن بن سمرة وعلاقة بن شجار التيمى وغيرهم كثيرون . وكان أهم مايدور فى مجالسهم تحدثهم عن علاقتهم بالرسول وعن مدى تلك العلاقة وعن حوادث بارزة تتصل بها ، وتنطوى الصورة العامة لأحاديثهم على روح قصية تخويفية سبيلها العظة وغايتها عدم التردى فى الاثم . واحتلت مكان الصدارة تلك الأحاديث التى تعنى بامر الرقيق أو تنهى عن الافتيات على الأرض وسيطر على اتجاهها ما كانت تتطلبه حياة الجندية . وبعد مقتل عثمان أخذت تغلب على المجالس صبغة جديدة فتذكر المتحدثون فضائل عثمان ومواقفه المجيدة فى الإسلام وخاصة فى شراء بئر رومة وفى تجهيز جيش العسرة ووقفوا فى حيرة من أمر الفتنة التى يصطرع فيها المسلمون ولكنهم فى الأغلب وجدوا سلامة الدين والنفوس فى التخلى عن الفريقين المتنازعين وبذلك رسموا أول خط فى موقفهم من السلطة الحاكمة .

وتذهب إحدى الروايات إلى أن الحسن لم تقف به جهوده عند حدّ الاستماع والحفظ والتلقى والتدوين بل تصفه ينصب من نفسه قاصاً فى المسجد فى عهد مبكر لا يتجاوز سنة أربعين للهجرة . إذ تقرر هـــذه الرواية أن القصاص فى المساجد كانوا قد حادوا عن المألوف فى قصصهم وجنحوا إلى الإغراق والتهويل مما جعل علياً يمنعهم من التصدى للناس ويخرجهم من جامع البصرة ولكنه لما سمع كلام الحسن لم يخرجه إذ كان يتكلم فى علم الآخرة والتفكير بالموت والتنبيه على عيوب النفس وآفات الأعمال وخواطر الشيطان . . . إلخ[1]

(١) الغزالى ، احياء علوم الدين ١/٣١ .

وقد تكون هذه الرواية صحيحة فى جملتها ولكنها متقدمة فى الزمن لأن الحسن البصرى لم يكن قد تصدر للوعظ والقصص. أما أن القصاص كانوا قد أساءوا استغلال الشعور العام بين الناس وأما أن الفقهاء من أمثال ابن سيرين وسعيد بن المسيب كانوا كارهين لتحلق الناس حولهم فذلك مالا سبيل إلى إنكاره.

(٣)
فى الفتوحات الشرقية
٤٣ — ٥٣ هـ

تقلب الحسن فى هذا اللون من حياة البصرة قرابة ست سنوات ثم ذهب مع الجيوش المتوجهة نحو الشرق وشارك فى الفتوحات. وقصة هذه الفتوحات مضطربة واتساع مجالها يزيد فى اضطرابها كما أن الرجال الذين رسموا خططها فى زمن عثمان هم أنفسهم الذين أعادوا رسمها أيام معاوية. وتقول إحدى الروايات إن الحسن كان مع الأحنف بن قيس فى فتح مرو الروذ ولا بد أن نفترض — لتصح هذه الرواية — أن الأحنف عاد إلى الغزو أيام معاوية أيضاً وأنه فتح مرو الروذ غير مرة لأن فتحه لها أول مرة تم فى عهد مبكر جداً.

والثابت قطعاً أن الحسن كان مع عبد الرحمن بن سمرة فى غزوة كابل والأندقان والأندغان وزابلستان مدة ثلاث سنين وقد ولى عبد الرحمن سجستان سنة ثلاث وأربعين وخرج معه أشراف الناس مثل عبد الله ابن خازم وقطرى والمهلب وغيرهم وشهد الحسن معه حصار كابل وفتحها وأعجب بشجاعة عباد بن الحصين حتى كان يقول : ما ظننت رجلا يقوم

مقام ألف حتى رأيت عباد بن الحصين[١] وذكر الحسن أنهم فى إحدى هذه الغزوات كانوا يأكلون لحوم الخيل[٢] .

وفى سنة إحدى وخمسين استعمل الربيع بن زياد على خراسان فذهب الحسن معه كاتباً له[٣] . ومعنى ذلك أن الحسن اشترك فى الغزو بين سنتى ٤٣ — ٥٣ هـ وكان فى هذه الغزوات يرافق مثل قطرى بن الفجاءة والمهلب بن أبى صفرة[٤] . وعبّر أحد تلامذته عن إعجابه بشجاعته فوصفه بأنه كان أشجع أهل زمانه[٥] . ويقترن اسمه باسم المهلب إذ كان هذا يقدمه فى المعركة إذا قاتل ، ولا نعرف للمهلب إمرة عامة فى هذه الفترة ولكنه انفرد سنة أربع وأربعين فى جماعة من الجيش وهاجم المنطقة بين هراة والملتان .

وقد تركت هذه السنوات أثرها فى الحسن لأنها فتحت أمام عينيه آفاقاً واسعة من حياة لم تيسرها له حياة السلم فى البصرة وأطلعته عملياً على كثير من الحقائق التى كان يعرفها معرفة نظرية وأمدته بالواقع المفيد فى فتاواه وأحكامه الفقهية من بعد . وهى من وجهة أخرى لم تقطع صلته بالحياة العملية فقد كان يتردد فى خلالها إلى البصرة كما كان معه فى المشرق كثير من الصحابة فقربت حياة الجندية بينه وبين عبد الرحمن بن سمرة والأحنف ابن قيس وغيرهما فروى عنهم الحديث وتزود من معارفهم وأفاد من تجاربهم .

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٠٤ ط . مصر ؛ والمعارف ص ١٨٢ .
(٢) سنن البيهقى ٩/٣٢٧ .
(٣) تاريخ الذهبى ٣/٩٩ .
(٤) المصدر نفسه ٤/١٠٤ .
(٥) المصدر السابق .

وإذا كان مقتل عثمان هو الحادثة الأولى التى وجهت حياة الحسن فإن الاشتراك فى الغزو هو الحادثة الثانية التى فعلت فعلها فى نفسه فهنا ألمَّ بمعنى الموت على حقيقته وعرف كيف يتناقص معنى الجهاد فى النفوس الدنيوية فيصبح سعياً وراء العيش وقتالا من أجل الغنيمة وهنا استيقظ فى نفسه شعوره بالمرارة من فعل الحرب وتحويلها قسماً كبيراً من الناس إلى عبيد وأشعرته هذه الحرب بأن الطريق أمامه يبتلع كثيراً من أمثاله أبناء الموالى فيذهبون فى طريق الأبدية جنوداً مجهولين وخاصة وأن الدولة لا تسوى فى الحرب بينهم وبين العرب. ليست الحرب إذن سبيلا يكفل له الظهور والتفوق لأن الموالى فى الحرب لا يصنعون شيئاً يخلدهم ولكنهم قادرون فى فنون السلم على أن يصبحوا شيئاً مذكوراً . وإنه لمولى ذلك الرجل الذى قال : « اشترانى مولاى بثلثمائة درهم وأعتقنى فقلت بأى شىء أحترف فاحترفت بالعلم فما تمت لى سنة حتى أتانى أمير المدينة زائراً فلم آذن له »[1].
ولو لم يصبح الحسن بعد قليل رجلا مثالياً متطرفاً فى مثاليته لسمعنا منه ما يشبه هذا الاعتراف . وتلك الأقوال التى يفضل فيها العلم على الجهاد مثل « يوزن مداد العلماء بدم الشهداء فيرجح مداد العلماء بدم الشهداء »[2] — تلك الأقوال تشهد بأن المعارك الحربية قد استطاعت أن تبعده عنها إلى الأبد[3] وأنها كانت تجربة قاسية لم تزده إلا ارتماء فى أحضان العلم، وهكذا عاد الحسن إلى الطريق اللاحب الذى كان يسير فيه الموالى ليضمنوا لأنفسهم احترام العرب أنفسهم .

---

(١) الاحياء ١/٨ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) ذكر اليعقوبى فى تاريخه ٢/٣٣٣ أن الحسن البصرى خرج فى الغزو مع ابن الاشعث فيمن خرج معه من القراء . وهو أمر مستبعد .

(٤)
عودة إلى البصرة
٥٣ — ٧٤ هـ

عاد الحسن إلى البصرة يوثق الصلة بالباقية من الصحابة وشيوخ التابعين. فأخذ يجلس من الصحابة إلى عياض بن حماد التميمى ومعقل بن يسار المزنى وسمرة بن جندب وأنس بن مالك وأبى عثمان النهدى ومن التابعين إلى صلة ابن أشيم وعامر بن عبد القيس التميمى وصفوان بن محرز وغيرهم. ووجد فى نفسه القدرة على الإفتاء والقصص فأخذ يفتى حيناً ويستمع إلى أصحابه من الصحابة والتابعين حيناً آخر، وعمقت هذه الصلة آثار الغزوات فى نفسه وخاصة فى جانب الزهد. وكان من أشد الناس تأثيراً فى نفسه عامر ابن عبد القيس ذلك الزاهد الذى كان يمثل فى المجتمع البصرى نوعاً جديداً من الزهد إذ امتنع عن التزوج وعن أكل اللحم والسمن وعن الدخول على الأمراء، وكانت له بالتوراة صلة ما[1]. وبعد أن قطع شوطاً طويلا فى الظهور على مسرح الحياة الاجتماعية عاد فانقطع عن مجلسه فى المسجد الجامع ولشدة تعلق الحسن به ذهب إليه فى جماعة من المعجبين به وقالوا له: يا أبا عبد الله تركت أصحابك وجلست ها هنا وحدك، فقال لهم إنه مجلس كثير الأغاليط والتخليط... لقيت أناساً من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فأخبرونى أن أخلص الناس إيمانا يوم القيامة أشدهم محاسبة

---

(١) ابن سعد ٧/٧٤ — ٧٥.

لنفسه وأن أشد الناس فرحاً يوم القيامة أشدهم حزناً فى الدنيا وأن أكثر الناس ضحكا يوم القيامة أكثرهم بكاء فى الدنيا[١].

ومن هذه العبارات يتضح لنا إلى أى حد أثر عامر فى الحسن بزهده وتفضيله الحزن والبكاء على الفرح والضحك فى الحياة وبمبدأ محاسبة النفس فى كل وقت على ما تعمله . وقد كان عامر فى مجتمع البصرة واحداً من كثيرين اتصل بهم الحسن وتأثر بهم .

وفى هذه الفترة من حياة البصرة كان الموالى قد تكاثروا فيها حتى غلبوا على كثير من مظاهر الحياة الاجتماعية وحتى بدأ زياد بن أبى سفيان يتخوفهم لسيطرتهم على مجالات الحياة الاقتصادية وخطر لزياد أن يخلص البصرة من الموالى بالمرة . ويمكننا أن نفهم محاولة زياد لا على أنها عصبية عربية مغرورة ولكن على أنها محاولة لتجنب السياسة التى حالت بين العرب والحياة الصناعية والزراعية وقصرت جهودهم على الأمور العسكرية الخالصة . وقد كانت سياسة عمر التى أدت مهمتها أداء جيداً فى عصره قد أصبحت بحاجة إلى تغيير وأصبح الصَّغار الذى يحسه العرب تجاه الحرف فى نظر زياد نقيصة اجتماعية لا بد أن تجف معها العروق الحيوية فى جسم العنصر العربى .. ولا بد أنه كان قد وضع نصب عينيه إصلاحاً شاملاً يعوض ما سيحدث بعد خلو الحياة البصرية من الموالى ولكن الخطة التى يريدها للتخلص منهم لم تكن واضحة لديه فاستشار الأحنف بن قيس زعيم العناصر العربية الغالبة فثناه الأحنف عن رأيه الذى كان يرمى للقضاء على الموالى ونهاه عن قصده لأسباب ثلاثة : لأن عمله مخالف للدين ولأن الموالى

---

(١) تهذيب ابن عساكر ١٦٦/٧ .

غلّة للناس ولأنهم يقيمون أسواق المسلمين وقال الأحنف مستغرباً : أفتجعل العرب يقيمون أسواقهم قصابين وقصارين وحجامين [1] .

وتلك الكثرة فى الموالى كانت تعنى ازدياداً متصاعداً فى النشاط التجارى والصناعى والزراعى وتنافساً سافراً حازماً فى طلب الرزق يساعد عليه موقع البصرة ، وكان هذا المجتمع المتزاحم على الحياة بحاجة إلى من يرسم له المعنى الصحيح للعلاقات الاقتصادية الصحيحة وينظم الثروة فى طبقاته . ورأى المتدينون فى الأموال التى تكدسها الفتوحات من جهة والأسواق من جهة أخرى سبباً فيما ظهر فى المجتمع الجديد من فساد فأصبحت مبادىء الزهد هى المحاولة التى أريد بها توجيه الحياة الاقتصادية إذ لم يكن الزهد تعففاً عن الكسب المادى فحسب بل كان سخاء بالمادة وتخلياً عن فضولها للمحتاجين . وكانت عودة الحسن إلى البصرة فى عنفوان فترة من فترات الحياة الاقتصادية فلم يلبث أن وجدت هذه الدعوة طريقاً إلى قلبه فاعتنق المبدأ بحماسة وأخذ يدعو له فى غير كلال . وفى هذا المجتمع المادى الأعجمى معاً كانت المبادىء المثالية يراد لها أن تسخر للنفع المادى وتحدث الحسن فى فورة حماسته تلك أن المال الذى يزكى لا ينقص أبداً وأنه يخلف سريعاً وسمع ذلك أحد المراوزة فتصدق بماله كله فافتقر وجعل ينتظر أن يخلف المال فلم يخلف وعندئذ بكر على الحسن وقال له : حسن ! ما صنعت بى ؟ ضمنت لى الخلف فأنفقت على عدتك ، وأنا اليوم مذ كذا وكذا سنة أنتظر ما وعدت لا أرى منه قليلا ولا كثيراً . هذا يحل لك ؟ اللص ما كان يصنع بى أكثر من هذا [2] .

---

(١) تهذيب ابن عساكر ٧/١٥ .

(٢) الجاحظ : البخلاء ص ٢٢ نشر الحاجرى .

هذان عاملان أثرا فى الحسن : عامل الثقافة التى أوحت بها تعاليم أساتذته الزهاد وقواها سلوكهم الفردى ، وعامل المجتمع وهو من وراء الاتجاه الأول فى حياة الفريق الذى اختار الزهد مذهبا .

واستمد هذان العاملان قوة الحياة من عامل ثالث يمكن أن نسميه تقابل الأضداد فقد عاش الحسن فى ذيول حياة تتجه إلى المثالية شاهدها فى سلوك بعض الصحابة حين كان فى المدينة وعلق بها اهتمامه فى البصرة حيناً من الزمن وامتلأت نفسه بأشخاص الزاهدين المتواضعين وفى مقدمتهم الرسول الذى كان لا يغلق دونه الأبواب ولا يقوم دونه الحجبة ولا يغدى عليه بالجفان ولا يراح عليه بها[1] وفيهم أبو بكر وعمر وسلمان وأبو ذر وأويس القرنى وهرم بن حيان العبدى ، ثم شاهد تغير الحال — رأى الولاة يتخذون الفراش الوثير وأوانى الذهب والفضة والحجاب والشرطة والحراس وشهد عبيد الله بن زياد يبتنى له قصراً يسميه البيضاء ويزينه بالتصاوير[2] وينظم لنفسه حرساً من البخارية وينتحل مظهراً كسروياً وابهة فارسية . ورأى « ذلك الغلام السفيه الجبان[3] » — على حد تعبيره — يسفك الدماء سفكاً شديداً ، ويتمادى على الصحابة أنفسهم ، ووقف يقارن بين ضرورات الخلافة وكماليات الملك فثار على كبرياء النظام الجديد ، وتعاظم أهله وتسخيرهم الناس لخدمتهم عبيدا .

فكل هذه المؤثرات مجتمعة عمقت فى نفسه الحزن على مصير الفرد فى ظل النظام القائم فأراد للأفراد وجوداً مغايراً أو فناء فى مثل أعلى

(١) سنن البيهقى ١٠/١٠١ .
(٢) ياقوت : معجم البلدان ٢/٣٢٥ .
(٣) تاريخ الذهبى ٣/٤٤ — ٤٥ .

فكانت دعوته موجهة إلى سحق المآرب الدنيوية ليحول بين الفرد والانجراف في تيار حياة حقيرة الغايات دنيئة الوسائط فكان في ثورته على الجشع والغنى والكبر يريد لكل واحد في السواد الأعظم الذي يحيا حياة العبيد وجوداً فردياً ، فقدم الفرد على الدولة وأراد بتعاليمه أن يخلق جماعة أفرادها أصحاء تنفصل بمآربها عن الجمهرة المسوقة بقوة السيف والسوط والجشع المادى وكان عمله هذا إيجاداً وافناء معاً فإن وجود الفرد كما يريده الحسن لا يقضى على الدولة ومقابلة كل نقص في الحياة بالصبر والرضى انكار للذاتية الفردية ونسى الحسن أن القوة العليا الفاسدة تستطيع أن تفسد على الأفراد وجودهم الهادىء المطمئن في ظل تعاليمه ، وخاصة حين تكون قوة صماء لا تسمع منه ما يوجه لها من نصح في سبيل إصلاحها .

وبهذا التحول العملي في نفسه تجاوز الحسن الطور الأول من حياته يوم كان يعمل ويتعلم ليصبح مشهوراً ودخل في طور جديد ، وقد كان على وعى بهذه النقلة في الغاية حين كان يعطف بنظره على الطموح الذي دفعه في هذه الطريق ويقول : طلبنا العلم للدنيا فجرنا إلى الآخرة . ذلك لأنه في المرحلة الثانية من حياته — وهى مرحلة امتدت حتى فارق الدنيا — خضع لفكرة واحدة وهى أنه قادر على تخليص المجتمع من فساد ينخر صلبه فذهب في دعوته إلى أبعد الحدود وأخذ يبشر بمبدأ كبير هو جعل الآخرة بؤرة تتوجه إليها الأبصار ، وجلاء حقيقة تتحدى الفرد والدولة معاً وهى قوة الموت ، وحول هذا المركز أخذت تعاليمه تدور دوراناً عنيفاً يخطف الأبصار ويحرك المشاعر ويستنزف الدموع — كان يريد للأفراد من حوله أن يذهلوا عن الظلم الذي يحيق بهم والفقر الذي ينهش قلوبهم والغرائز التي

تعبث بأخيلتهم وحقائقهم فرسم لأعينهم تلك الصورة المفزعة — صورة الموت المرعب الذى فضح حقيقة الدنيا الخادعة وحقائقهم الجسمانية التافهة . وعند هذه النقطة من التحول كان الحسن قد استكشف نفسه وعرف مزايا شخصيته . واتفق أن كان أكثر أساتذته من الصحابة قد مات . فإذا به يجد الجموع تتوافد لتستمع له وقد خلا له الجو وقل إلى جانبه عدد المنافسين . ومما لا يقبل التردد أن شهرة الحسن ارتفعت كثيرا فى أواخر أيام معاوية وزادها ارتفاعاً تراخى عهد الفتن الداخلية وقيام كثير من الطامعين فى الخلافة وكانت البصرة تريد لو تستنيم إلى دعوة الحسن لتشيح بوجهها عن تلك المنازعات وتترك الدنيا لمن يتكالبون عليها ولكن الأطماع الدنيوية كانت أقوى من دعوة الحسن وما كاد يزيد بن معاوية يموت حتى ثارت نار القبلية فى البصرة بين تميم والأزد ورأى الحسن كيف خرج مسعود الأزدى معلماً بقباء ديباج أصفر مغير بسواد يأمر الناس بالسنة وينهى عن الفتنة ولم يكن الحسن يعطف على هذه الحركة وحين كان يذكر مسعوداً ومقتله يقول معلقاً فى انتقاده لمسعود : ألا إن من السنة أن تأخذ فوق يديك[1] . وما كان الحسن ليعطف على أية ثورة ولو اتخذت شعارها الدعوة إلى السنة ؛ حتى حركة ابن الزبير وقف منها الحسن موقف المتفرج وإن كان فى قرارة نفسه يتمنى لو يكون ابن الزبير الحاكم الذى يحقق للأمة وحدتها وينجو بها من الفتنة ولكن هذه الأمانى لم تزد على أن تدفع الحسن ليكتب له مذكراً واعظاً ومما كتبه له « إن لأهل الخير علامات يعرفون بها ويعرفونها من أنفسهم فمنها الصبر على البلاء والرضى بالقضاء

---

(١) الطبرى : التاريخ ٤/٤٠١ ط . مصر والنقائض ص ٧٣٤ .

وإنما الإمام سوق فما نفق فيها حمل إليها فانظر أى سوق سوقك»[1] .

ومما يؤكد أن نجم الحسن ارتفع حوالى هذا التاريخ أنه كان فى جملة من حضر وصية صفوان بن عبد الله بن الأهتم زعيم تميم عندئذ وكان من أغنياء البصرة يستغل فى الشهر الواحد ثلاثين ألف درهم وقد كتب وصيته بمائة وعشرين ألف درهم وسمعه الحسن يقول أعددتها لعض الزمان وجفوة السلطان ومباهاة العشيرة فقال له الحسن — غير متهيب — خلفتها لمن لايحمدك وتقدم على من لا يعذرك[2] .

وهناك رواية تريد أن تجعل إخلاص الحسن لمبدأه اخلاصاً مثالياً متأخراً عن هذا التاريخ الذى قدرته وخلاصتها أنه ذهب ليزور بشر بن مروان حين ولى البصرة سنة ٧٤ ﻫ فأوصاه حاجبه ألا يطيل الحديث ولما دخل على الوالى وجده على سرير عليه فرش قد كاد أن يغوص فيها ورجل متكىء على سيفه قائم على رأسه ولما سلم الحسن قال له بشر من أنت ؟ ثم سأله عن الزكاة أتدفع للسلطان أم الفقراء فقال له : أى ذلك فعلت أجزأ فسر بشر من جوابه وقال: لشىء مايسود من يسود . وعاد الحسن إليه من العشى فاذا هو يعانى مرض الموت والأطباء من حوله ثم عاد إليه من الغد والناعية تنعاه[1] . فهذه الرواية تصوره يزور بشراً مبتدئاً دون أن يدعى إلى ذلك وسنراه من بعد شديد الإنكار على من يقفون بأبواب الأمراء وهو لا يكتفى بزيارة التسليم بل يتبعها بزيارتين أخريين وفى هذا ما فيه من محاولة التقرب إلى الوالى ثم هو يسأله عن الزكاة فيجيب بجواب فيه

---

(١) أنساب الأشراف ٥/١٩٦ .

(٢) انظر المعارف ص ١٧٧ والدميرى: حياة الحيوان ٢/ ٤٠ ط . محمود توفيق .

(٣) تاريخ الذهبى ٣/١٤١ وتهذيب ابن عساكر ٣/٢٥١ .

نصيب من طلب رضى الأمير . بل إن سؤال بشر له : من أنت ؟ ربما يدل على أنه لم يكن بهذه الشهرة التي حاولت أن أصورها ولكننا لا نلبث أن نجد الجهل بشهرته أمراً قاصراً على بشر — وهو حديث عهد بالبصرة — لقوله له من بعد : لشيء ما يسود من يسود . وعلى أية حال ، إذا صدقنا هذه الرواية حكمنا أن الحسن لم يكن قد اختار لنفسه ذلك المنهج الصارم فى الحياة غير أن مما يضعف البناء الخارجي لهذه الرواية أن بشراً لم يتخذ حجاباً بل كان بابه مفتوحا على مصراعيه للقاصدين ومن الطبيعي بعد ذلك أنه كان فى بيته قد حذف مظاهر الأبهة التى يمثلها غوصه فى الفراش الوثير وقيام رجل على رأسه .

ولكن الحقيقه التى لا يمكن ردها عن علاقة الحسن ببشر ، هى خروج الحسن فى تشييع جنازته فقد طعن فى قدمه ومات بعد فترة وجيزة من ولايته قال الحسن : فأخرجناه إلى قبره فلما صرنا به إلى الجبانة إذا نحن بأربعة سودان يحملون صاحبا لهم إلى قبره فوضعنا السرير فصلينا عليه ووضعوا صاحبهم فصلوا عليه ثم حملنا بشراً إلى قبره وحملوا صاحبهم إلى قبره ودفنا بشراً ودفنوا صاحبهم ثم انصرفوا وانصرفنا ثم التفتُّ التفاتة فلم أعرف قبر بشر من قبر الحبشي فلم أر شيئا قط كان أعجب منه[1] . ولا يخفى أن روايته للحادثة بهذه الطريقة إنما ترمى إلى تحقيق العبرة من الموت كأنه يقول للناس إن الموت لا يقيم وزنا للصحة والقوة والسلطان ولا يكترث كثيراً بالبضاضة والجمال ولا يفرق بين أمير وحقير أو بين أبيض وأسود .

واتصف ظهور الحسن عند بعضهم بصفة المفاجأة حتى رأى كثير من

---

(١) البيان ٣/١٣٢ وأنظر حليه الأولياء ٢/٣٨٠ تجد القصة على لسان مالك بن دينار .

معاصريه فى ظهوره نوعا من البعث ، قال تلميذه مطر الوراق « لما ظهر الحسن جاء كأنما كان فى الآخرة فهو يخبر عما عاين »[١] ، وقال آخر ما أشبه الحسن إلا بنبي أقام فى قومه ستين عاما يدعوهم إلى الله تعالى[٢] . وهذا التصور هو تصور الجيل الذى فتح عينيه على تأثير الحسن أما الذين عاصروه أيام التلمذة فانهم عبروا عن ظهوره تعبيرا يوحى بالتدرج ؛ يقول الأعمش: « ما زال الحسن يعى الحكمة حتى نطق بها »[٣] . ولم يمض وقت طويل حتى تفوق على من بقى من الصحابة حتى قال فيه أحدهم اعترافا منه بمقدرته : أتسألونى وهذا الحبر بين أظهركم[٤] وحتى كان مالك بن أنس يقول لسائليه: عليكم مولانا الحسن فسلوه[٥] . ولا ضير على أنس وأمثاله أن يثنوا على الحسن إذ كانوا هم أساتذته وكان ثناؤهم عليه نوعا من اعجاب الأستاذ بتلميذ له نابه ذكى . إلا أن هذه الشهرة لم تعجب آخرين من معاصريه لأنها كادت تخملهم فكان عكرمة إذا روى شيئا وأعجب بنفسه قال لمن حوله « أيحسن حسنكم مثل هذا ؟ »[٦] وسئل أبو العالية عن الحسن فقال : رجل مسلم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وأدركنا الخير وتعلمنا قبل أن يولد الحسن »[٧] .

(١) تاريخ الذهبى ٤/٩٩
(٢) المصدر السابق .
(٣) تاريخ الذهبى ٤/١٠٢
(٤) الأحياء ١/٦٣
(٥) ابن سعد ٧/١٢٨
(٦) تاريخ الذهبى ٤/١٥٨
(٧) المصدر السابق ٤/٨٠

فى عهد الحجاج

٧٥ — ٩٥ هـ

تلق الحسن — إذن — عهد الحجاج فى البصرة وهو رجل ذائع الصيت معروف المكانة واضح الاتجاه ، مسموع الكلمة ولولا ذلك لغرق فى حومة الطوفان المتعسف الذى شمل الحجاج به أرجاء العراق . وهو يحدثنا عن الطابع الذى بقى فى نفسه أول مرة رأى فيها الحجاج بقوله « جاءنا أعيمش أخيفش له جميمة يرجلها وأخرج الينا بناناً قصاراً والله ماعرق فيها عنان فى سبيل الله فقال بايعونى فبايعناه ثم رقى هذه الأعواد ينظر إلينا بالتصغير وننظر اليه بالتعظيم يأمرنا بالمعروف ويجتنبه وينهانا عن المنكر ويرتكبه »(١)

والروايات التى تصور علاقة ما بين الرجلين كثيرة ولكننا نستطيع أن نستبعد منها كل ما يميل إلى الحكم بالكفر على الحجاج لأنه لو اعتقد ذلك لأفتى بالثورة عليه ولحض عليها . بل إن هذه الروايات متناقضة فيما بينها فهى تجعل الحسن حيناً ممن يرجون المغفرة للحجاج وتجعله حينا آخر ممن لا يرجون له المغفرة وينكرون على غيرهم أن يرجوها ، ومن ثم يتضح لنا أن العواطف الجماعية اتخذت الحسن لساناً لها فى هذه الأمور وأرسلت ما يجول فى خواطرها منسوباً اليه وإذا نحن حاكمنا تلك الروايات وجدنا فيها :

---

(١) أمالى المرتضى : ١/١٠٧

١ — صورة الأمانى التى كانت تجول فى خواطر الأتقياء حول مصير الحجاج الظالم عند ربه .

٢ — ثورة عراقية على العناصر الشامية التى كان يستعين بها الحجاج على تحقيق عسفه فالذى ينقل للحجاج مايدور بمجلس الحسن شامى ، والذى يشرب الدماء شامى والذى باع الآخرة بالدنيا هم أهل الشام .

٣ — مقارنة نفسية بين العلم والحكم وأيهما أشد ثقة وهيبة وأيهما أبقى على الزمن .

٤ — خذلاناً للشعبى إمام الكوفيين فهو يحضر أكثر هذه المجالس ثم يوارب ويدارى ويعقبه الحسن فيعلن عما يعتقده بصراحة ، ولا يخفى مافى هذا من افتخار للبصرة على الكوفة .

والحق أن الحسن والحجاج كانا فى عصرهما يمثلان قوتين متناقضتين فى كثير من الميول والاتجاهات — كانا يمثلان الصراع بين الموالى والعرب وبين الدين والدنيا وبين الخوف والجرأة وبين كلمة الدين وحد السيف . وكان الحسن شديد الانكار لسياسة الحجاج وتناقضه بين القول والعمل لأنه يعظ وعظ الأزارقة ويبطش بطش الجبارين (١) . وكان يرى فيه مثالا آخر من فرعون ونقمة صبها الله على الناس بذنوبهم ويقول اتقوا الله فإن عند الله حجاجين كثيراً (٢) . وينتقده لعدم المساواة فاذا غزا عدو الله غزا فى فساطيطه الهبابة وعلى البغال السباقة وإذا أغزى أخاه أغزاه طاوياً راجلا (٣) .

---

(١) البيان ٣/١٤٧ (٢) المصدر السابق

(٣) الاحياء ٣/٢٨٣

ولكن هذا لا ينفى أن الواحد منهما كان معجباً بالآخر — كان الحسن معجباً بوعظ الحجاج — أى معجباً بالحسن فى ثوب رجل آخر — ولذلك تسمعه يقول : لقد وقذتنى كلمة سمعتها من الحجاج سمعته على هذه الأعواد يقول : إن امرءاً ذهبت ساعة من عمره فى غير ماخلق له لحرى أن تطول عليها حسرته [١] . وكان الحجاج معجبا بالحسن يقف على حلقته ويستمع إلى وعظه فإذا أراد أن ينصرف قال ياحسن لاتمل الناس فيجيبه الحسن بقوله « أصلح الله الأمير إنه لم يبق إلا من لاحاجة له [٢] . وكثيرا ما كان يجلس إلى جنبه فى الحلقة فيفسح الحسن له فاذا انتهى من موعظته ضرب الحجاج بيده على منكبه استحساناً وقال : صدق الشيخ وبر ، وأوصى الناس بالتردد على مجالس الحسن وعقب على حديثه بكلام بليغ يستخرج الاعجاب من الحسن نفسه ومن سائر المستمعين [٣] ويتحدث الحسن إلى الناس بأن الحجاج سأله عن تاريخ مولده فأنبأه أنه لسنتين من خلافة عمر فأطراه الحجاج بقوله « والله لعينك أكبر من أمدك » . [٤] وكان الحجاج إذا سئل عن أخطب الناس قال إنه ذو العمامة السوداء بين أخصاص البصرة إذا شاء خطب وإذا شاء سكت [٥] . ويذهب الحسن فيزور الحجاج فى داره فيخصه الوالى بالترحيب ويضع له كرسيا إلى جنب سريره ويدنى منزلته [٦] .

مثل هذه العلاقة تجعلنا نتردد فى قبول الروايات التى تنسب للحجاج محاولة قتل الحسن . صحيح إن الحسن لم يكن يكف عن نقد الحجاج فى سياسته ولكن نقده كان إلى التلميح والتعميم أقرب منه إلى التصريح والتخصيص ،

---

(١) البيان ٢/١٩٦
(٢) تاريخ الذهبى ٣/٣٥٢
(٣) الاحياء ٣/٢٨٣
(٤) ابن سعد ٧/١١٤
(٥) البيان ١/٣٧٤
(٦) الاحياء ٢/٣٠٣

كان ينتقد الظلم عامة فيفهم الناس أنه يعنى ظلم الحجاج وكان بعض أقواله يبلغ الحجاج فيغضب ويستدعيه لينصحه بالسكوت ثم يختم قوله بمثل هذه العبارة « أما إنا على ذلك لا نتهم نصيحتك ». (١) وكان الحسن يحمل نفسه على السكوت فى أغلب الأحيان وهو غير راض . ولما نقل اليه أحدهم أن الحجاج ذكره بسوء قال له : « علم مافى نفسى له فنطق وعلمت مافى نفسى له فسكت وكل امرىء بما كسب رهين » . (٢)

ومع ذلك نسمع من أيوب السختيانى تلميذ الحسن أن الحجاج أراد قتل الحسن مراراً فعصمه الله منه واختفى مرة فى بيت على بن زيد سنتين(٣) وتتردد حادثة اختفاء الحسن أيام الحجاج فى المصادر المتأخرة فيروى صاحب كشف المحجوب أن من المتعارف المشهور بين المتصوفة اختفاء الحسن — حين هرب من الحجاج — عند حبيب العجمى(٤) .

وهناك رواية مطولة تصور لنا إحدى غضبات الحجاج على الحسن وكيف صمم على قتله ، ونصها : « لما فرغ الحجاج من قصر واسط نادى فى الناس أن يخرجوا فيدعوا له بالبركة فخرج الناس وخرج الحسن فاجتمع عليه الناس فخاف أهل الشام على نفسه أن يقتلوه فرجع وهو يقول : نظرنا يا أخبث الأخبثين وأفسق الأفسقين أما أهل السماء فمقتوك وأما أهل الأرض فغروك ثم قال : أبى الله تعالى للميثاق الذى أخذه على أهل العلم ليبيننه للناس ولا يكتمونه ثم انصرف . فبلغ الحجاج ذلك فقال يا أهل الشام — وهم حوله — آلله ! أيقدمن عبيد من عبيد أهل البصرة ويتكلم

---

(١) الاحياء ٣/٢٨٣

(٢) محاضرات الراغب الاصفهانى ١/١٨٨

(٣) تاريخ الذهبى ٣/٣٥٣

(٤) كشف المحجوب ص ٨٨ .

فىّ بما يتكلم ولا يكون عند أحد منكم تغيـــير ولا نكير قالوا ومن ذلك أصلحك الله اسقنا دمه . فقال على به وأمر بالنطع والسيف فأحضر ووجه إليه فلما دنا الحسن من الباب حرك شفتيه والحاجب ينظر إليه فلما دخل قال له الحجاج ها هنا وأجلسه قريبا من فرشه وقال له ما تقول فى على وعثمان قال : أقول قول من هو خير منى عند من هو شر منك قال فرعون لموسى ما بال القرون الأولى قال علمهـــا عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى . علم على وعثمان عند الله . فقـال له الحجاج أنت سيد العلمـاء يا أبا سعيد ثم دعا بغالية فغلف بهـا لحيته فلما خرج الحسن اتبعه الحاجب فقال يا أبا سعيد لقد دعاك لغير هذا الذى فعل بك ولقد أحضر السيف والنطع فلما أقبلت رأيتك قد حركت شفتيك بشىء فما قلت ؟ قال : قلت يا عدتى عند كربتى ويا صاحبى عند شدتى ويا ولى نعمتى ويا إلهى وإله آبائى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب ارزقنى مودته واصرف عنى أذاه ومعرته ففعل ربى عز وجل ذلك »[1] .

ولمناقشة هذه الرواية لا بد لنا أن نتساءل لمـاذا خرج الحسن يومئذ لتهنئة الحجاج وهو غير مضطر إلى ذلك. ثم ان الحسن يؤمن بالتقيةفكيف يعلن سخطه على الحجاج وهو يعرف جرأته وحدته وتسرع سيفه. وتأمل هذه الرواية كيف تجعل من أهل الشام وحشاً من تلك الوحوش الخرافية حتى ليرجع الحسن خوفاً على نفسه منهم دون أن يكون قد فعل شيئـا يعرضه لوحشيتهم. ولعلك ترى أن هذه الراوية عراقية المنبت أولا وأنها فى نهايتها دلت على أن مؤلفهـا صوفى ، أعنى أنها من تلك الروايات المتأخرة التى

(١) أمالى المرتضى ١/١١١ — ١١٢

أصبحت ترمز إلى الحسن على أنه من أصحاب الكرامات وذوى الأدعية المستجابة .

إن من سوء التقدير لذكاء الحجاج أن ننسب إليه أية محاولة لقتل الحسن، لأن الحسن كان خير مساعد للحجاج على تثبيت أقدامه ، وخير داعية بين الناس للرضى به . وقد أظهرت ثورة ابن الأشعث فائدة الحسن للحجاج والدولة التى يمثلها .

خرج أكثر القراء فى البصرة والكوفة مع ابن الأشعث والحسن جالس فى المسجد ينهى الناس عن الخروج لا على الدولة الأموية فحسب بل ينهى عن الخروج على الحجاج نفسه [1] وقد جاءه جماعة من القراء يسألونه رأيه ويقولون يا أبا سعيد ما تقول فى قتال هذا الطاغية الذى سفك الدم الحرام وأخذ المال الحرام وترك الصلاة وفعل وفعل فقال الحسن : أرى ألا تقاتلوه فانها إن تكن عقوبة من الله فما أنتم برادّى عقوبة الله بأسيافكم وإن يكن بلاء فاصبروا حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين [2]

واشتد الجدل بين الحسن وأخيه سعيد لأن الثانى كان يحض على الخروج ويرى الثورة على الحجاج أمراً لازماً وقد قال يحاول اقناع الحسن بصواب ما ارتآه ، ما ظنك بأهل الشام إذا لقيناهم غداً فقلنا والله ماخلعنا أمير المؤمنين ولا نريد خلعه ولكنا نقمنا عليه استعماله الحجاج فاعزله عنا . فلما فرغ سعيد من كلامه قال الحسن : يا أيها الناس والله ما سلط الله الحجاج عليكم إلا عقوبة فلا تعارضوا عقوبة الله بالسيف ولكن عليكم بالسكينة والتضرع [3]

---

(١) ابن سعد ١١٩/٧ عن أبى التياح قال : شهدت الحسن ... حيث أقبل ابن الاشعث وكان ينهى عن الخروج على الحجاج .

(٢) ابن سعد ١١٩/٧

(٣) المصدر السابق

وتباطأ الناس عن الخروج مع ابن الأشعث ولا بد أن تباطؤهم كان بتأثير من الحسن فقيل لابن الأشعث إن سرك أن يقتلوا حولك كما قتلوا حول جمل عائشة فأخرج الحسن [١] فأخرجه مكرها ولما كان بين الجسرين رأى غفلة من الناس فألقى نفسه فى بعض الأنهار هنالك حتى نجا منهم . [٢]

كذلك كانت مكانة الحسن : القراء يستشيرونه والناس لا يخرجون إلا إذا خرج وكذلك كان مبدأه : ألا يخرج على الدولة مهما تكن الأسباب حافزة لذلك . وكان المجتمع البصرى قد دان لتعاليمه فى أكثره

ولولا ذلك لما زاده عدم الخروج مع ابن الأشعث ارتفاعا فى نفوس الناس ولما انخفضت منزلة القراء الذين خرجوا ، إذ ليس لارتفاعه معنى لو كان الناس يومئـــذ على رأى الثائرين من القراء وإنما معنى ذلك أن القائلين بالكف فى المجتمع البصرى — أى المتأثرين بمبادىء الحسن — كانوا أغلبية ساحقة . وقد كان مسلم بن يسار — وهو أستاذ الحسن — أرفع عند أهل البصرة من الحسن حتى خف مع ابن الأشعث وكف الحسن فلم يزل أبو سعيد فى علو منهما بعد وسقط الآخر [٣] . وإذا كان عهد الحجاج قد أوقع الحسن فى أزمة نفسية فانه من ناحية أخرى قد كفل له غاية الرفعة من وجهين — رفعة فى نفوس الناس ومكانة عند الدولة .

ولما مرض الحجاج مرض الموت ذهب الحسن يزوره فشكا له الحجاج ما كان يجد فقال الحسن : قد كنت نهيتك أن تتعرض للصالحين فلججت [٤]

---

(١) ابن سعد ١١٩/٧ (٢) المصدر نفسه

(٣) ابن سعد ١٢٠/٧ وانظر تاريخ الذهبى ٧٨/٤ حيث يقال أن الحسن خف مع ابن الاشعث فسقط وارتفع أبو الشعثاء .

(٤) ابن خلكان ٢٢٣/١

ويعنى الحسن بالصالحين أمثال سعيد بن جبير الذى قتله الحجاج لأنه كان ممن خرج مع ابن الأشعث حتى قال الحسن حين قتله « اللهم أنت على فاسق ثقيف رقيب والله لو أن أهل المشرق والمغرب اشتركوا فى قتله لكبهم الله تعالى فى النار » . (١) وقال الحجاج للحسن وهو فى مرض موته : ياحسن لا أسألك أن تسأل الله أن يفرج عنى ولكن أسألك أن تسأله أن يعجل قبض روحى ولا يطيل عذابى فبكى الحسن من شدة تأثره بكاء شديدا . (٢)

أما سجود الحسن عند مابلغه موت الحجاج فقد يفسره الكثيرون بأنه سجود شكر لله لأنه خلص الناس من طاغية متجبر ولكن طبيعة الحسن تجعلنا نفهم منه سجود رجل يشعر بالقوة الإلهية التى لا يعز عليها الحجاج وأضرابه ، سجود رجل يدرك معنى الموت الرهيب فى حياة الآدميين .

واتصل الحسن فى هذا العهد بالحكم بن أيوب الثقفى الذى كان يلى البصرة للحجاج كلما غاب عنها وفى احدى المرات نراه يدخل عليه ويتكلم عنده بكلام يهدف به إلى تمجيد العفو عند المقدرة ويضرب لذلك المثل بقصة يوسف واخوته (٣) . وهى إشارة تدل على ناحية من النواحى التى أصبح الحسن يتدخل فيها عند الدولة بما له من نفوذ واحترام .

---

(١) الدميرى : مادة لبؤة ٢١٦/٢

(٢) ابن خلكان ٢٢٣/١

(٣) الاحياء ١٦٠/٣

الحسن فى أيام الخليفة التقى

٩٩ — ١٠١ هـ

لا نسمع شيئاً كثيراً عن الحسن فى خلافة سليمان بن عبد الملك ، ولكننا نعرف أنه كان من مآثر سليمان فى البصرة توزيع الأرض الموات على الناس كى يستغلوها . ولما رأى ابن الحسن أن الناس قد أقبلوا على أخذ الاقطاعات ذهب إلى أبيه يقول له : لو أخذنا كما يأخذ الناس فقال له أبوه اسكت ، مايسرنى لو أن لى ما بين الجسرين بزنبيل تراب (١)

أما فى أيام عمر بن عبد العزيز الذى خلف سليمان فقد أصبح الحسن البصرى يعمل عملا إيجابياً فى سياسة الدولة بعد أن كان من قبل سلبيا فى موقفه منها يكتفى بالنقد العام ويدعو إلى شىء من الفردية . ذلك لأنه كان صديقا لعمر وكان الخليفة التقى يأنس برأيه فيكتب اليه مستشيراً ووجد الحسن البصرى فى عمر مثال الخليفة الذى يرجوه للمسلمين فلم يبخل عليه بآرائه ونصائحه ولنا أن نقول إن حكومة عمر بن عبد العزيز هى نتاج آراء الأتقياء لا فى الشام وحده بل فى العالم الاسلامى كله ، وفى مقدمة هؤلاء الأتقياء يجىء الحسن . ولعل الحسن تصور أن تلك الحكومة إنما كانت تحقيقا لفلسفة الرضى التى كان يبثها فى الناس وثمرة للصبر الذى كان يدعو اليه ونتيجة من النتائج المحتومة لمقابلة عقوبة الله بالتضرع والسكينة والاستغفار

---

(١) أبو نعيم الأصفهانى : حلية الأولياء ٢/١٥٥ .

وحولت هذه المشاركة فى الحياة السياسية قسماً من نشاط الحسن الخطابى الارتجالى إلى نشاط كتابى فأخذت رسائله تتردد على عمر فكتب له كتاباً مطولا فى صفة الإمام العادل [1] ، وزوده بكتب مطولة أخرى فى ذم الدنيا والتحذير منها [2] . وكتب له نوعا من الكتب الموجزة المشتملة على الوعظ والتذكير . ويحدثنا أحدهم أنه حمل إلى عمر كتاباً من الحسن يقول له فيه « أما بعد فكأنك بالدنيا لم تكن وكأنك بالآخرة لم تزل » فلما قرأ الخليفة الكتاب تأثر فخرج إلى المسجد وخطب الناس بمعنى ما جاء فى ذلك الكتاب ثم رجع إلى بيته فكتب إلى صديقه جواباً موجزاً أيضا [3] . ولما توفى ابن لعمر كتب الحسن اليه يعزيه فيه . [4] كما كان عمر يسأله فى بعض ما يشكل عليه من الأمور الدينية والسياسية . فمن ذلك أنه سأله ما الذى منع الأئمة السابقين أن يحولوا بين المجوس وبين ما يجمعون من النساء اللائى لا يجمعهن أحد من أهل الملل [5]

وسأله ليشير عليه بمن يستعين فى أحكامه وقضاياه فكتب اليه يقول « أما أهل الدين فلا يريدونك وأما أهل الدنيا فلن تريدهم ولكن عليك بالأشراف فانهم يصونون شرفهم أن يدنسوه بخيانة » [6] . وهو رأى عجيب لرجل ارتفع من صفوف الموالى .

---

(١) انظر العقد الفريد ٢/ ٣٩ ط . لجنة التأليف ونهاية الأرب ٦/ ٣٧

(٢) الحلية ٢/ ١٣٤ — ١٤٠ والاحياء ٣/ ١٧٣ ونهاية الأرب ٥/ ٢٤٧ .

(٣) تهذيب ابن عساكر ٦/ ٢٤٣ وانظر البيان ٢/ ٦٢ والعقد ٣/ ١٥٠ ، ١٥٢ .

(٤) العقد ٣/ ٣٠٣ .

(٥) سنن البيهقى ٨/ ٢٤٨ .

(٦) الاحياء ١/ ٦١ .

وكانت حكومة البصرة صورة مصغرة من الدولة الاسلامية أيام عمر يرأسها عدى بن أرطاة الفزارى الذى كان يحب القراء ويقربهم اليه ويستنير بآرائهم ومن الطبيعى أن يكون الحسن فى طليعتهم ولذلك نراه يجالس هذا الوالى ويطعم عنده أحيانا [١] وعلى يديه تولى منصب القضاء بإيعاز من عمر ابن عبد العزيز فازدادت بذلك علاقته بالدولة . ولعله فى ظل هذه الوظيفة عدل عن كثير من آرائه النظرية فى سياسة الناس فقد كان من قبل ينتقد اتخاذ السلاطين للشرطة ثم وجد أيام اشتغاله بالقضاء أن اتخاذ الشرطة شىء ضرورى حتى أصبح يقول لابد لهؤلاء الناس من وزعة [٢] . ولكن مدته فى القضاء لم تطل لأنه استعفى عديا فأعفاه وولى إياس بن معاوية [٣] وقد يكون لكبر سنه دخل فى ذلك وقد تكون مضايقات الناس له هى التى أحرجته ولكن الذى لاشك فيه أيضاً أنه رأى صلته بالحياة الدنيا تقوى وتشتد ورأى أنه سيتخلى عن كثير مما كان يحرص عليه فطلب الاعفاء .

وفجع الحسن — قبل وفاة عمر — بموت أستاذه مسلم بن يسار فلما بلغه نعيه أخذ يصيح متوجعا : وامعلماه [٤] . لكنه لم يلق مصيبة أشد عليه من فقده لأخيه (حوالى سنة ١٠٠ هـ) — كان سعيد أخوه أصغر منه سنا وكان يخالفه فى مبدأ الكف والاستسلام ويرى الثورة على الحاكم المستبد ويستهين بما قد يتعرض له من سجن أو مطاردة أو تعذيب حتى لقد عير أخاه يوما

---

(١) ابن سعد ٧/١٢٥ .
(٢) المبرد : الكامل ١/٢٣١ تحقيق أحمد محمد شاكر .
(٣) تاريخ الطبرى ٥/٣١٠ وانظر ابن سعد ٧/١١٦ حيث يروى أنه ولى القضاء بعد عزل أياس عنه .
(٤) تاريخ الذهبى ٤/٥٥ .

والحجاج يسوق المسلمين من البصرة والحسن جالس مع جماعة من أصحابه على سطح بيته يرون عن كثب مايجرى وفى أنفسهم ثورة مكفوفة — عيره بأنه إنما يأمر بالكف ليسلم من الحبس(١) . وهذه الحماسة دفعته إلى الاشتراك فى ثورة ابن الأشعث ولا ندرى كيف سلم من سيف الحجاج فلعله أقر بالخطأ فنال العفو أو لعل مقام الحسن فى نفس الحجاج شفع له ومهما يكن من شىء فان هذا الاختلاف بين الأخوين لم يكن يباعد بينهما وخير مايصور علاقتهما قول الحسن فيه : رحم الله سعيد بن أبى الحسن ماعلمت فى الأرض من شدة كانت تنزل بى الا كان يود أنه وقى ذلك بنفسه »(٢) ووضحت علامات الحزن على الحسن وظهرت فى مجلسه وحديثه وأمسك عن الكلام أياماً وأخذ يقول فى لوعة ظاهرة : بئست الدار المفرقة(٣)

ودخل عليه أصحابه وهو يبكى فلاموه لأنه قدوة للناس ولأنهم اذا رأوه نقلوا ذلك الى أمصارهم فقال لهم وقد خنقته العبرة : الحمد لله أن جعل هذه الرحمة فى قلوب المؤمنين فيرحم بها بعضهم بعضاً فتدمع العين ويحزن القلب وليس ذلك بجزع ، انما الجزع ما كان من اللسان واليد . . وان الله لم يجعل حزن يعقوب عليه ذنباً إذ قال : وابيضت عيناه من الحزن وكظيم(٤) ولم يستطع أن يحتفظ ببرنس مطوّس كان لأخيه لأنه كان كلما رآه جدد له الحزن فأعطاه أحد تلامذته ليبيعه وقال له تلميذه أنا أشتريه ، فقال الحسن : أنت أعلم ولكنى أحب ألا أراه عليك(٥)

---

(١) ابن سعد ١٢١/٧ .

(٢) ابن سعد ١٣٠/٧ وتاريخ الذهبى ١١٩/٤ .

(٣) ابن سعد ١٢٩/٧ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٣٠

(٥) المصدر السابق .

ولعل الحسن أراد أن يجد العزاء عن فقد أخيه فى زيارة لمكة فخرج حاجاً سنة مائة [١] وهذه هى حجته الثانية أما الأولى فكانت فى أول عمره [٢] وفى الحجة الثانية على الأرجح حاول تلميذه ثابت البنانى أن يصحبه، فقال له: ويحك دعنا نتعايش بستر الله إنى أخاف أن نصطحب فيرى بعضنا من بعض ما نتماقت عليه [٣]. ومع ذلك نراه يصطحب تلميذا له آخر يسمى حميدا، نزل معه بمكة فى بيت واحد. وصادف ذلك وجود الشعبي بمكة حينئذ فطلب إلى حميد أن يزور الحسن فى رفقته، ولما ذهب اليه وجده قبالة القبلة وهو يقول: « ياابن آدم لم تكن فكونت وسألت فأعطيت وسئلت فمنعت فبئس ماصنعت »، ثم يذهب ويعود ويردد القول نفسه [٤]. واجتمع بمكة فى ذلك العام كثير من العلماء فصنع لهم عطاء بن أبى رباح طعاما فلما فرغوا من الطعام أخذوا يتذاكرون العلم وتكلم الحسن فى وصف الله تعالى وعظمته [٥] ووضع للحسن سرير عند الحجر وجلس هناك يقص ويحدث وأتاه أئمة التابعين يستمعون حديثه وكان فيهم مجاهد وعطاء وطاووس وقال بعضهم لبعض بعد أن سمعوا كلامه: لم نر مثل هذا قط، واحتشد الناس من حوله حتى شغل الآخرين عن الطواف فأتاه على بن الحسين يكلمه فى ذلك [٦].

---

(١) الشرجى الزبيدى: طبقات الخواص ص١٦٢ ط. مصر.
(٦) ابن سعد: ١٢٧/٧.
(٧) عيون الأخبار ١٣٦/١.
(٨) ابن سعد ١٤٢/٧.
(٩) طبقات الخواص ص ١٦٢.
(٥) ابن سعد ١١٥/٧، وأمالى المرتضى ١١٣/١ بالمزج بين الروايتين.

- ٧ -

الحسن وثورة يزيد بن المهلب

١٠١ — ١٠٣ هـ

مات خير الناس — فى رأى الحسن — لما مات صديقه الخليفة التقى بعد وفاة أخيه سعيد بقليل ، وأخذت البصرة تستقبل ثورة جديدة تشبه ثورة ابن الأشعث فى عنفها ؛ فقد هرب يزيد بن المهلب من السجن الذى كان وضعه فيه عمر لمال مستحق عليه — هرب تخلصا من مصير سيء كان ينتظره على يد الخليفة الجديد ، يزيد بن عبد الملك ، ولجأ إلى البصرة حيث قومه الأزد وأعلن الثورة على الدولة الأموية . وذهب الحسن فى وفد أرسله عدى بن أرطأة إلى المهالبة لإقناعهم بالعدول عن الثورة وتكلم أبوسعيد يومئذ بكلام معجب حتى قال أحد رجال الوفد : ما تمنيت كلاماً قط أحفظه إلا كلام الحسن يومئذ[١] . وقال عبد الملك بن المهلب للوفد : انكم واطأتم عدياً على هلاكنا وليست طاعته بواجبة علينا فقال له الحسن : كذبت . وعندئذ غضب ابن المهلب وقال له أتكذبنى يا ابن اللخناء وأخذ بقائم سيفه وقال : والله لولا أن أعير بقتلك وأنت فى منزلى لضربت عنقك فانك عبد غررت أهل المصر بتخاشعك وقدحمقت نفسك وعدوت طورك وقدرك ومضى فى ثورته لولا أن هدأه المفضل بن المهلب ، والحسن ساكت[٢] .

---

(١) البيان ٢٧٧/٢ .

(٢) العيون والحدائق (لمؤلف مجهول) ص ٥٣ نشردى جويه .

ولعل الحسن كان ينظر إلى ثورة ابن المهلب نظرة بغض شديد لا لأنه يكره الثورة فحسب بل لأنه عرف يزيد فلم يجده إلا كغيره من رجال الدولة سوءاً واستبداداً ولأنه كان على يقين من أن عمر بن عبد العزيز حبسه فى حق ، وأى حق أعظم من أن يتصرف وال من الولاة بأموال المسلمين وينفقها فى أمور دنيوية ذاتية . وساء ظنه فى يزيد لأنه سمعه يدعو إلى سيرة العمرين فما الذى غيره ؟ وأين كان عن سيرة العمرين حين كانت الدولة تحتضنه وتضع فى يده قوة الأمر والنهى ؟ ولم يقعد الحسن فى حلقته بالجامع ينصح الناس بالسكينة كما فعل فى ثورة ابن الأشعث بل زادته شيخوخته استيئاساً وجرأة فذهب إلى حيث اجتمع الناس حول يزيد يتوكأ على عاتق معاذ بن سعد وهو يقول له : انظر هل ترى وجه رجل نعرفه[1] وسر الحسن لما لم ير فى الجموع وجه رجل من أصحابه . ثم تقدم من المنبر ويزيد يخطب وقال بصوت مرتفع يخاطب ابن المهلب : والله لقد رأيناك والياً ومولى عليك فما ينبغى لك ذلك[2] . ووثب من حوله تلامذته وأصحابه يأخذون بيده وفمه وأجلسوه ويقول سعد صاحبه ما نشك أن يزيد سمعه ولكنه لم يلتفت اليه ومضى فى خطبته[3] .

ثم خرج على الناس وقد استعدوا واصطفوا صفين ونصبوا الرايات والرماح وهم ينتظرون خروج يزيد ويقولون : يدعونا يزيد إلى سنة العمرين فقال الحسن : انما كان يزيد بالأمس يضرب أعناق هؤلاء الذين ترون ثم يسرح بها إلى بنى مروان يريد بهلاك هؤلاء رضاهم فلما غضب

---

(١) تاريخ الطبرى ٥/٣٢٥ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق .

غضبته نصب قصبا ثم وضع عليها خرقا ثم قال إنى قد خالفتهم نخالفوهم ؛ وقال. إنى أدعوكم إلى سنة العمرين وان من سنة العمرين أن يوضع قيد فى رجله ثم يرد إلى محبس عمر الذى فيه حبسه(١) .

وذهب يزيد إلى الحسن مع بعض بنى عمه يحاول أن يخفف من ثورته عليه وتجادل الرجلان حتى جر جدالهما إلى الملاحاة وتدخل ابن عم يزيد فى الأمر فصاح فيه الحسن ، وما أنت وذاك يا ابن اللخناء ! وثار المهلبى للاهانة فاستل سيفه ولكن يزيد كان أكثر تعقلا منه(٢) حين قال له : اغمد سيفك فوالله لو فعلت لانقلب من معنا علينا(٣) . وهى شهادة لاتحتاج إلى توضيح فى مدى ما كان يتمتع به الحسن من مقام فى المجتمع البصرى .

وغادر يزيد البصرة وخلف فيها أخاه مروانا والحسن لا يكف عن إعلان كرهه لهذه الثورة ويقول للناس : أيها الناس الزموا رحالكم وكفوا أيديكم واتقوا الله مولاكم ولا يقتل بعضكم بعضاً على دنيا زائلة وطمع فيها يسير ليس لأهلها بباق وليس الله عنهم فيما اكتسبوا براض . انه لم يكن فتنة إلا كان أكثر أهلها الخطباء والشعراء والسفهاء وأهل التيه والخيلاء وليس يسلم منها إلا المجهول الخفى والمعروف التقى(٤) .

---

(١) المصدر السابق ٥/٣٢٦ وانظر العيون والحدائق ص ٥٩ .

(٢) لاشك أن يزيد كان قد تضايق جداً من موقف الحسن وتنسب الروايات الفضل فى تهدئته للمفضل أخيه فقد قال يزيد مرة عن الحسن والله ما أدرى ما استبقائى اياه وانه شيخ جاهل لهممت أن أضربه حتى يموت فقال له المفضل أصلح الله الأمير أن له قدما وفضلا وقدراً بالمصر (العيون والدائق ص ٦٦) .

(٣) ابن خلكان ٣/٢٨١ ولا بد أن نلحظ كيف تقابل هذه الرواية رواية تقدمت عن مادار بين الحسن وعبد الملك بن المهلب .

(٤) تاريخ الطبرى ٥/٣٤٠ — ٣٤١ .

وأشعلت هذه الخطب الغيظ فى صدر مروان فقال حين بلغه كلام الحسن « لقد بلغنى أن هذا الشيخ الضال المرائى (ولم يذكر اسمه) يثبط الناس والله لو أن جاره نزع من خص داره قصبة لظل يرعف أنفه . . . والله ليكفن عن ذكرنا وعن جمعه الينا سقاط الأبلة وعلوج فرات البصرة أو لأنحين عليه مبرداً خشنا[١] . ويدل كلام مروان أن الحسن استطاع أن يجمع حوله كثيراً من الموالى وهم الذين سماهم سقاط الأبلة وعلوج فرات البصرة وكان هؤلاء قد تخلوا عن الثورة أولا واستعدوا لحماية الحسن ثانياً حتى قالوا له : لو أرادك ثم شئت لمنعناك[٢] . فأجابهم بقوله « فقد خالفتكم إذن إلى ما نهيتكم عنه آمركم ألا يقتل بعضكم بعضاً مع غيرى وأدعوكم إلى أن يقتل بعضكم بعضاً دونى . »[٣] .

واشتد مروان على أتباع الحسن وطلبهم وهددهم فتفرقوا وحبس بعضهم ثم كلم فيهم فخلاهم[٤] . ويقول الطبرى إن الحسن لم يدع كلامه فكف عنه مروان ، وهذا الايجاز فى الخبر يطوى كثيراً من الحقيقة فان الحسن أثناء هذه الحركة كان مختفياً فى منزل أبى خليفة وظل كذلك مدة سنتين وهذا يدل على أن مرواناً لم يكف عنه بمثل هذه السرعة التى يصورها نص الطبرى .

وفى اختفائه كان صديقه الفقيه جابر بن زيد فى النزع واشتهى قبل

(١) تاريخ الطبرى ص ٣٤١/٥ .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) العيون والحدائق ص ٦٩ .

فراق الحياة أن يرى الحسن فذهب ثابت البنانى فذكر ذلك للحسن فاستمهله حتى حل المساء ثم أتى ببغلة فركبها وذهب إلى صديقه ولم يزل عنده حتى حان وقت السحر . ولما خاف الصبح رجع إلى مخبأه[1] .

ومما يؤكد خوف الحسن على نفسه من خطر المهالبة أن ابنة له توفيت وهو مختف فاتاه ثابت أيضاً ينعاها له فوصف الحسن له ما يجب عليهم أن يفعلوه فى جنازتها وأمر ان يصلى عليها ابن سيرين ولم يستطع ان يحضر جنازتها بنفسه[2] . وتسكت المصادر عن ذكر شىء من وقع الخبر على مسمع الأب الذى فقد ابنته .

— ٨ —

نظرة إلى موقفه

من ثورة ابن الأشعث وابن المهلب

من الطبيعى ان نتساءل — بعد ما وضح لنا هذان الموقفان الجريئان فى حياة الحسن من ثورة ابن الأشعث ومن ثورة ابن المهلب — لم اقر الحسن سياسة الكف ودعا إليها وهو الذى لم يكن لتصطنعه الدولة فى مآربها . لماذا بشر بين الناس بمبدأ السكينة والتضرع ومقابلة الظلم بصبر مستكين ؟ لا ريب ان المفهومات المستمدة من القرآن والحديث كانت اكبر عامل فى توجيهه الى إعتناق هذا المبدأ . ان فكرة الحصرم الذى

---

(١) ابن سعد ٧/١٣٢ وقد اخترت هذه الرواية دون أخرى تصور الحسن جريئاً جداً يخرج فى رابعة النهار لرؤية صديقه (المصدر نفسه) .

(٢) ابن سعد ٧/١٤٧ .

يأكله البعض فيضرس به الجميع ، فكرة الذنب الذى تقترفه الأقلية فيصيب الناس كلهم هى التى كانت تصور للحسن ان الحجاج وأضرابه عقوبة من الله . ولكن لماذا اتجه الحسن إلى اعتناق هذه المفهومات مع أن كثيرا من القراء كانوا يناقضونه فى رأيه ويعتقدون بوجوب الثورة ؟ تفسير هذا يرجع بنا الى مقتل عثمان وما حدث بعده من فرقة فى الجماعة . فقد كان الحسن يعتقد أن مقتل عثمان وما نجم عنه هو النقمة التى كان الله قد خبأها للمسلمين ، ولم يوقعها بهم والرسول حى إكراماً له . وقول الله تعالى : فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون يشير إلى ذلك . قال الحسن لقد كانت بعد نبى الله نقمة شديدة فاكرم الله جل ثناؤه نبيه (ص) أن يريه فى أمته ما كان من النقمة بعده [١] . اضف إلى ذلك ان الثورة كان يحمل مشعلها طبقات ورجال لا يرضى الحسن عن تدينهم ويراهم قوماً ذوى مصالح دنيوية وهو يكره الدنيا ويحتقرها ويراها أمراً لا يستحق أن يتنافس الناس من أجله . ثم إذا كان ولا بد من أن يحارب الإنسان فليحارب من أجل الجماعة ولكن أين هى الجماعة فى زمن الحسن ؟ ليس معنى السكوت على الدولة فى رأيه تحزباً لها . سأله أحدهم إلى من ينتمى فى الفتنة فقال لا تكن مع هؤلاء ولا مع هؤلاء ولما قال له أحد الحاضرين : ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد ؟ أجاب وهو يخطر بيده غاضبة ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد !! نعم ولا مع أمير المؤمنين [٢] . لأن أمير المؤمنين لا يمثل الجماعة كما كان يمثلها عمر بن الخطاب . ولذلك كان الحسن يدعو كل فرد

---

(١) تفسير الطبرى ٢٥/ ٤٥ .

(٢) ابن سعد ٧/١١٩ .

إلى إصلاح نفسه والانسجام فى مجتمعه الصغير . وهذا كفيل بالوصول إلى الغاية الأخروية وهى غاية الغايات :

أما الحاكم نفسه فوجوده ضرورى وقد منحه الدين أربع سلطات : الحكم والفىء والجمعة والجهاد [١] ويتطلب منه فى مقابل هذه الحقوق أن يكون عادلا رفيقاً برعيته كالراعى الشفيق على إبله يجنبها مراتع الهلكة ويحميها من السباع أو كالأب الحانى على ولده يسعى لهم صغارا ويعلمهم كبارا[٢] . وإذا حاولت أن تجد فى نظرة الحسن إلى الحاكم شيئاً غير معنى الرعاية فى ظل العدل لم تجد . فاذا حاد الراعى عن واجباته واتخذ الظلم شريعة له كان على الرعية أن تقابل ظلمه بالصبر أليس الله قد امتدح بنى اسرائيل فقال « وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا » فما أعجب حال من يخف (يعلن الثورة) بعد هذه الآية[٣]؟ وما أعجب أمر من يحاول أن يغير بالسيف فان التغيير لا يكون إلا بالتوبة[٤] . وقد قال الرسول: إنها ستكون عليكم أئمة تعرفون منهم وتنكرون فمن أنكر (بلسانه) فقد برىء ومن كره (بقلبه) فقد سلم .. قيل يا رسول الله أفلا نقتلهم قال لا ، ما صلّوا[٥] وكان الحسن يروى هذا الحديث ويزيد فيه لفظتى بلسانه وبقلبه ثم يقول فمن أنكر بلسانه ، ذهب زمان هذه ، أى أنه كان يرى الكره بالقلب . وكان إذا دعى إلى الدخول على ولاة السوء ووعظهم قال اليس للمؤمن أن

---

(١) انظر عيون الأخبار ١/٢ وكتاب الامام أبى نصر المقدسى ص ١١ حيث يعدها خمساً .
(٢) نهاية الأرب ٣٧/٦ من رسالته فى وصف الامام العادل .
(٣) كتاب الامام أبى نصر المقدسى ص ٤٤ .
(٤) ابن سعد ١٢٥/٧
(٥) سنن البيهقى ١٥٨/٨ .

يذل نفسه إن سيوفهم لتسبق ألسنتنا إذا تكلمنا قالوا بسيوفهم هكذا (ووصف حركة الضرب)[1] بل هب أن السكينة والتضرع والاستغفار، هبها لم تصنع شيئاً فى تحويل الظالم عن ظلمه إذن يكفى الظالمين تلك الحقارة النفسية التى يحسون بها حين يخلون إلى أنفسهم. حسبهم أن شيئا فى داخلهم سيظل يقلق كبرياءهم الظاهرية ويهزها هزاً عنيفاً: «أما إن (هؤلاء الملوك) وإن هملجت بهم البغال وأطافت بهم الرجال وتعاقبت لهم الأموال، إن ذل المعصية فى قلوبهم أبى الله إلا أن يذل من عصاه»[2]. أما المظلوم فعليه أن يكون مثالياً فى تسامحه وسعة صدره وصبره، يكفيه أن يقول إذا وقع عليه ظلم «اللهم أعنى عليه، اللهم استخرج لى حقى، اللهم حل بينى وبين ما يريد»[3] وأما الظالم فلا بد أن نزين له مبدأ العفو ونقول له «إذا جثت الأمم بين يدى الله عز وجل يوم القيامة نودوا ليقم من كان له أجر على الله فلا يقوم إلا العافون عن الناس فى الدنيا»[4]. وكانت النتيجة الحتمية لهذه المبادىء أن رضيت عنها الدولة لأنها ضمنت لها عوناً سلبياً واستغلتها عند الحاجة وأخذ الحكام يقولون للناس إن كل ما يعملونه فانما هو بقدر من الله[5].

---

(١) ابن سعد ١٢٨/٧

(٢) العقد ٢٠٢/٣.

(٣) تفسير الطبرى ٢/٦

(٤) الأحياء ١٣٤/٣

(٥) المعارف ص ١٩١

(٩)

علاقته بالولاة فى الأيام الأخيرة

١٠٣ — ١١٠ هـ

ولئن كانت الدولة قد أعجبت بمبادىء الحسن فان مسلمة بن عبد الملك الذى ولى العراق بعد إخضاع المهالبة كان معجباً بشخصيته يحب أن يستمع من الناس وصفهم لمزاياه ويقول إذا امتلأ بشخصيته إعجاباً : كيف يضل قوم هذا فيهم[١] — كلمة ساذجة لأن الناس قد يضلون وفيهم الأنبياء . وكان مسلمة يحب أن يستمع إلى الحسن ويحثه على أن يعظه . فيقول له الحسن : إذا نزلت عن المنبر فاعمل بما تكلمت به[٢] . وأهداه مسلمة جبة وخميصة فقبلهما منه[٣] .

وجاء عمر بن هبيرة بعد مسلمة والياً على العراق فاستدعى اليه الحسن والشعبى وسألهما فى أمور تتعلق بأوامر يتلقاها من يزيد إذا نفذها خالف أمر الله . وقد نصحه الحسن بتقديم الخوف من الله على الخوف من يزيد وكان فيما قاله : إنه يوشك أن ينزل اليك ملك من السماء فيستنزلك من سريرك ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك ثم لا يوسعه عليك إلا عملك . إن هذا السلطان إنما جعل ناصراً لدين الله فلا تركبوا دين الله وعباد

---

(١) تاريخ الذهبى ١٠٣/٤

(٢) أمالى المرتضى جـ ١١١/١

(٣) ابن سعد ١٢٦/٧ والذهبى ١٠٢/٤ والعقد ٣١٨/١

الله بسلطانه تذلونهم به فانه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق(١) .

وخرج الحسن من عند ابن هبيرة فاذا هو بجماعة من القراء على بابه فانتهرهم بقوله : ما يجلسكم هاهنا تريدون الدخول على هؤلاء الخبثاء أما والله ما مجالستهم بمجالسة الأبرار . تفرقوا فرق الله بين أرواحكم وأجسادكم . لقد رقحتم نعالكم وشمرتم ثيابكم وجززتم شعوركم ، فضحتم القراء فضحكم الله . أما والله لو زهدتم فيما عندهم لرغبوا فيما عندكم لكنكم رغبتم فيما عندهم فزهدوا فيما عندكم أبعد الله من أبعد(٢) .

والحق أن الحسن لم يكن راضياً عن طبقة القراء إجمالا لأن كثيرين منهم كانوا قد استغلوا مظهرهم الدينى فى الأمور الدنيوية وكانوا فى نظره قد أصبحوا ثلاثة اصناف : صنف متكسب بالقرآن ينتقل به فى البلاد متعيشاً وصنف يحفظونه لفظاً ليستدروا به الولاة ويستطيلوا به على الناس وصنف قليل العدد سهروا الليل متسربلين الخشوع مرتدين الحزن وقد ركدوا فى محاريبهم واتخذوا القرآن دواء لأدواء قلوبهم(٣) ولا ينفرد الحسن برأيه هذا فى هذه الجماعة فكثير من معاصريه أشاروا إلى التغير فى مسلكهم(٤). والمشكلة التى أدت بالحسن إلى التنصل من سيطرة المادة هى التى أظهرت مدى انحراف هؤلاء عما كان عليه أسلافهم ، وكان تحضر الحياة من حولهم فى ظل الملكية وتعقد المطالب المادية أكبر مشكلة رمت شرارة الاضطراب

---

(١) انظر المسعودى ٥/٤٦٣ ط . باريس وأمالى المرتضى ١/١١٠ والعقد ١/٦٨ وتاريخ الذهبى ٤/١٧٧ وشرح النهج ٤/٥٩ والحلية ٢/١٤٩ والمحاسن والمساوىء ص ٣٧٠ والنص مختلف فى عبارته ولكن المعنى العام فيه واحد .

(٢) الحلية ٢/١٥١

(٣) عيون الأخبار ٢/١٣٢ والعقد ٢/٢٤٠

(٤) انظر العقد ١/٢٣ وتهذيب ابن عساكر ٦/٣٣٦ ، ٧/١٤٢

فى صفوفهم ونفوسهم على السواء وليس رضى الحسن عن بعضهم دون البعض الآخر إلا رضى عن طريقته فى الحياة .

ونخطىء إن تصورنا أن الدولة كانت تحترم الحسن البصرى لأنه كان يمالئها أو يدعو لها . حقا إنها كانت تستفيد من مبدأه فى التثبيط عن كل خروج عليها ولكن لا مراء فى أنه كان شوكة فى جنبها تقلقها ، وكانت هى من جانبها تخشى نفوذه فى المجتمع البصرى وهو نفوذ يرتكز على سلامة شخصيته وعلى كثرة أتباعه والمؤمنين بمبادئه . وقد كان الحسن ينتقد الدولة ويهاجم الحكام فكان فى سياسة البصرة المحلية يزعج الوالى ازعاجاً شديداً وخاصة إذا ولى أمر الناس رجل قصير النظر ضيق الصدر مثل مالك ابن المنذر العبدى صاحب شرطة البصرة وأحداثها ايام خالد القسرى . فمالك هذا ساءه ما يبلغه من نقد للدولة وعيب للأمراء على لسان الحسن وغاظه أن يرى الجموع تتحلق من حوله وتعتنق آراءه فهدده بالضرب وشتمه وبعث إليه يقول : اعتزل مسجدنا فانك تعيب أمير المؤمنين والأمير[1] . وكتب بالخبر إلى خالد القسرى فنهاه خالد عن أن يعرض للحسن بسوء وجاء رسول مالك للحسن يقول له إن أبا غسان يقرئك السلام ويقول ان رأيت أن تأتى المقصورة فافعل . فجعل الحسن يقول: ان أبا غسان يقرئك السلام ويقول لك ان رأيت أن تأتى المقصورة فافعل. (يردد ذلك ثلاثاً) . لا . لا . لا . ثم ذهب إلى مالك فوعظه وقال له: اتق الله لا تترجح فى هذه الأمانى فان أحداً لم يعط شيئاً بأمنية دون عمل[2] .

وهذه المواقف تصور كيف زادت الشيخوخة من عنف الحسن وحدة

(١) العيون والحدائق ص ٨٧

(٢) المصدر السابق

أعصابه بدلا من أن تبث الهدوء فى نفسه فازداد تعلقه بمبدأه وكثر نقده للولاة ولعله كان يتعرض للاستشهاد — الذى فاته — فى سبيل المبدأ . ولا يفترق موقفه من بلال بن أبى بردة الذى تولى الأحداث والشرطة بعد مالك عن موقفه من مالك العبدى نفسه . وكان بلال يحاول أن يتقرب منه ويزوره وهو يظهر عدم رغبة فى ذلك[1] .

(١٠)
حياته العائلية واليومية

تزوج الحسن فى البصرة ولا بد أن زوجته كانت من أصل غير عربى فقد كان العرب لا يزوجون بناتهم من الموالى فى هذا العصر وكان صديقه عمر بن عبد العزيز يقول لا يتزوج من الموالى فى العرب إلا الأشر البطر[2] ولما حاول ابن عون تلميذ الحسن أن يخرج على هذه القاعدة بزواجه من امرأة عربية ضربه بلال بن أبى بردة قاضى البصرة بالسياط[3] . والحسن يخاطب امرأته فى بعض حالات الغضب يا علجة واللفظة حرفياً تنفى عنها النسبة إلى العرب ، وقد رآها احدهم ووصفها بأنها عجوز طويلة[4] ، وربما وضح لنا من بعض مواقفها انها لم تستطع القيام بمثالية الحسن ولم تتشرب كثيراً من روحه فقد كان يزعجها بذله المال ورفضه أن يزوج ابنته إلى

(١) تهذيب ابن عساكر ٣/٣١٩

(٢) لسان العرب مادة « طبع »

(٣) ابن سعد ج ٧ القسم الثانى ص ٢٦ .

(٤) ابن سعد ٧/١٢٥

رجل غني وحطه المهر بحيث لا يثقل كاهل من يريد أن يتزوجها وفى مثل هذه المناسبة قالت له : ايش ؟ تحرمنا رزقاً ساقه الله إلينا[١] .

وقد كانت الرغبة فى تحقيق الزوجة المثالية للحسن البصرى — وهى كانت تنقصه بالفعل ـ حافزاً نبه الخيال الصوفى — فيما بعد — إلى ضرورة عقد الرباط المقدس بين الحسن ورابعة العدوية ، وإن كان هذا الخيال قد غفل عن الفرق الزمنى الواسع بينهما. والواقع أن الحسن ورابعة فى هذه القصص ليسا إلا رمزين اتخذا ليعبرا عن بعض الحقائق التى كانت تجول فى خواطر المتصوفة حول الزواج وأثره فى الحب الإلهى . وتصور هـــذه القصص الصوفية رغبة الحسن فى الزواج من رابعة وتمنع رابعة وإباءها لأن الزواج فى رأيها لا يصلح إلا لذوى الوجود المادى أما الذين فنى وجودهم وأصبح وجودا فى الله فلم يعودوا إلا ظلا لإرادته وحيناً تتذرع رابعة بإلقاء أسئلة على الحسن وتجعل موافقتها رهناً بحله لتلك المشكلات فاذا ظهر عجزه عن إجابة أمور تتعلق بالغيب قالت إنها مشغولة بتلك المشكلات عن أن تخلق لنفسها شغلا جديداً بالزواج[٢] .

ورزق الحسن فيما نعرف ولدين أكبرهما سعيد وبه كان يكنى والثانى عبـد الله ويقول الهجويرى إنه كان أيضاً يكنى بأبى على ويكنيه آخرون بأبى محمد أو بأبى سعيد[٣] . أما من الإناث فالمصادر تتحدث عن تزويجه لابنتـه وتورد روايات متنوعة تتفق كلها فى أنه كان يحرص على ألا يشق على الخاطب ولا يشتط فى طلب المال . وتصف هذه الروايات كيف كان يرحب

(١) ابن سعد ١٢٦/٧
(٢) انظر أمثلة من هذه القصص فى تذكرة الأولياء للعطار ٦٦/١ نشر نيكولسون ١٩٠٥
(٣) كشف المحجوب ص ٨٦

بختنه ويقول له : مرحبا بمن كفى المؤونة وستر العورة ثم يتنحى له عن مكانه تكريما له (١) ، ويستفاد من أحد الأخبار أن واحدة من بناته — إن كان له غير واحدة — كانت صغيرة السن حين كانت أمها عجوزاً وربما كانت هي التي جاءه نعيها وهو مختف أيام يزيد بن المهلب ، وقد كان شديد الإحساس بالعبء الذي يلقيه أبناؤه على كاهله وكيف أن غريزة الأبوة لا تقنع بالسعي من أجل الأبناء في الحياة حتى تشفق عليهم من الفاقة بعد الموت . ويرى أن من يرضى الله عنه يريحه من الأهل والولد . وهنىء مرة بغلام فقال لا مرحبا بمن إن كنت عائلا أنصبني وإن كنت غنياً أذهلني (٢) .

وسبب هذا أن الحسن كان يرى في الأسرة توثيقاً لصلته بالحياة وهو لا يحب توثيق هـــذه الصلة ، وكان لا بد لكثير من آرائه أن تصطدم بالحاجات العملية لأسرته . خصوصاً وأنه لم يعرف عنه مزاولته لعمل يدر عليه الرزق . والذي نعرفه من أخباره أنه كان يأخذ عطاءه من الدولة ثم لا يلبث أن يقسمه بين المحتاجين ولا يجعل لأهله منه نصيبا إلا إن عرضت حاجة ماسة (٣) ومرت به فترات من الإضاقة لأن عطاءه حبس عنه (٤)، ولم يكن يتحرج من أخذ العطاء كبعض المتطرفين من الأتقياء الذين رفضوا أخذه من الولاة الظالمين ولم يسمحوا لأنفسهم به إلا أيام عمر بن عبد العزيز وقد سأله أحدهم أيأخذ عطاءه أم يدعه ليتقاضاه من حسنات بني أمية يوم

---

(١) محاضرات الراغب ٢/٩٢

(٢) البيان ٢/١٤٧ وعيون الأخبار ٣/٩٣

(٣) ابن سعد ٧/١٢٤ .

(٤) البخلاء ص ١٨٦ .

القيامة فقال لسائله ذاك : قم ويحك خذ عطاءك فان القوم مفاليس من الحسنات يوم القيامة (١) .

ومع أنه لم يأخذ أجراً على القضاء فانا نراه يتقبل صلات الأمراء فقد قبل هدية من مسلمة ورئى عنده عدد من الرقيق أرسلهم اليـــه أحد الولاة (٢) ، وبعد أن خرج من مقابلة ابن هبيرة منح أنواعاً من التحف والطرف وأربعة آلاف درهم (٣) وتؤكد الأخبار أنه كان يتقبل الصلات من فريقين : من رجال السلطان ومن أصحابه الأدنين فاذا جاءته من باب آخر رفضها . حمل اليه رجل من خراسان كيساً بعد انصرافه من مجلسه فيه خمسة آلاف درهم وعشرة أثواب من رقيق البز وقال له يا أبا سعيد هذه نفقة وهذه كسوة فقال الحسن عافاك الله تعالى، ضُمّ إليك نفقتك وكسوتك فلا حاجة لنا بذلك ، إنه من جلس مثل مجلسى هذا وقبل من الناس مثل هذا لقى الله تعالى يوم القيامة ولا خلاق له (٤) ونستطيع أن نقول إن الحسن كان يرفض كل صلة يفهم منها معنى الأجر ويقبل ما عدا ذلك .

ومهما يكن من شيء فان نفقاته المتصلة بأهله وبنفسه لم تكن كثيرة فقد عرف مثلا أنه كان ينفق نصف درهم فى اللحم كل يوم فان غلا اشترى بدرهم (٥) ويصفه خالد بن صفوان بأنه كان مستغنياً عن الناس (٦) ولحظ من عاده فى مرض موته خلو بيته من فراش أو بساط أو حصير وأنه

(١) أمالى المرتضى ١/١١١ .

(٢) ابن سعد ٧/١٢٥ .

(٣) الاحياء ٢/٣٠٣ والحلية ٢/٢٦٨ .

(٤) الاحياء ١/٥٥ .

(٥) البخلاء ص ١٨٦ .

(٦) تاريخ الذهبي ٤/١٠٣ .

لم يكن فيه إلا سرير منسوج بالسعف (١) وتمثله الروايات الصوفية المتأخرة في صورة السائحين من الزهاد فقد غرقت البصرة ذات مرة وخرج الناس هاربين وخرج الحسن ومعه قصعة وعصا وهو يقول : نجا المخفون (٢) .

ويظهر أنه في بعض الأحوال كان يعول أسرة أخيه سعيد ولا ندري أكان ذلك وأخوه حي أم بعد وفاته ، إذ نجد ابن أخيه يطلب إليه أن يعطيه جرة المعلم (٣) ، ولا بد أنه كان له رزق دارٌ يعيش منه — باستثناء العطاء فان هذه المسئوليات الواسعة والسخاء الذي تتحدث عنه المصادر بإعجاب تجعلنا نفترض مثل هذا الفرض وربما كان ابنه هو الذي يعمل للانفاق على تلك الأسرة .

وعاش من البصرة في أحد أحيائها المتواضعة ، عاش بين أخصاص البصرة وهي بيوت من الخشب بنيت منها المدينة جميعها في أول أمرها ثم أخذت تتحول شيئا فشيئاً إلى مساكن تبنى باللبن لأن الأخصاص كانت عرضة للحرائق ويحدثنا الحسن نفسه عن اختراقها جميعاً باستثناء واحد منها في ولاية أبي موسى الأشعري (٤) وكانت تسكنها الطبقات الفقيرة وبعض الزهاد ولا ندري من أمر بيت الحسن شيئاً على التحقيق في المكان والجهة والإتساع وكل ما نعرفه أنه كان يسكن إلى جنبه جار يهودي وأن علاقته به كانت علاقة رعاية ومجاملة حسنة (٥) ولا ينتظر من الحسن غير

---

(١) المصدر السابق ٤/١٠٤ .

(٢) محاضرات الراغب ١/٢٤٧ . وانظر رواية مشابهة عن مالك بن دينار في الحلية ٢/٣٦٨

(٣) ابن سعد ٧/١٢٨ .

(٤) الأحياء ٤/٢٩٢ .

(٥) أمالي المرتضى ١/١١١ .

ذلك وهو الذى يقول فى الجار : ليس حسن الجوار كف الأذى عن الجار ولكن حسن الجوار الصبر على أذى الجار [١] . ويقول خالد بن صفوان إنه جار الحسن إلى جنبه [٢] وخالد هذا تميمى فهل كان الحسن يسكن فى أحد أحياء بنى تميم ؟

وبين بيته المتواضع والمسجد الجامع قضى الحسن أكثر العمر ، فقلما كان يخرج إلى البرية [٣] أو يرتاد الأسواق ، وكان من عادته أن يخرج لاستقبال الحجاج فى عودتهم [٤] ، وربما زار بعض جيرانه وأصحابه وطعم عندهم أو حضر عند الوالى فى أمر من الأمور أو كلفه أحدهم بحاجة نخرج فى قضائها ، وكان يستريح فى وقت القيلولة ليساعده ذلك على السهر والتهجد [٥]

ومن ثم كان له مجلسان يلزمهما أكثر الوقت : مجلس عام فى جامع الأمير ومجلس خاص فى بيته ، أما فى الأول فكان يقعد أحياناً فى أصل منبر ابن الأشعث [٦] ، وأحيانا أخرى على المنارة العتيقة فى آخر المسجد [٧] ، والأرجح أنه فى المكان الثانى اتخذ مجلس القضاء لا حلقة التدريس ، وبدأت جلساته فى المسجد بعد عودته النهائية من الغزو وكان المفتى قبله صديقه

---

(١) اسامة بن منقذ : لباب الآداب ص ٢٦٢ تحقيق الأستاذ أحمد محمد شاكر .
(٢) تاريخ الذهبي ٤/١٠٣ .
(٣) محاضرات الراغب ١/١٥٤ .
(٤) الكامل للمبرد ١/٢٠٨
(٥) الإحياء ١/٣٢٤
(٦) ابن سعد ٧/١٢٠ .
(٧) ابن سعد ٧/١١٦ .

جابر بن زيد[١] ، ولما اشتهر اصبحت حلقته أحفل حلقة بالمسجد[٢] ، إذ كانت تجمع اصنافاً كثيرة جداً من الناس وقد رأينا كيف كان الأمير نفسه يجلس فى حلقته ويستمع له ولكن لم يكن كل من يحضرون مجلسه من أتباعه المخلصين لمبادئه المعجبين بآرائه فكان بعضهم لا هم له من الحضور إلا أن يتتبع سقطات كلامه وأن يعنته بالسؤال[٣] وهو يصف قوماً آخرين يحضرون مجالسه ولا همّ لهم إلا الدنيا[٤] كما ان بعضهم كانوا جواسيس عليه ينقلون ما يتكلم به إلى الرجال المسئولين فى الدولة ، ويتخيل أبو حيان التوحيدى مجلسه وموضع أصحابه منه فيقول « يجمع مجلسه ضروب الناس وأصناف اللباس لما يوسعهم من بيانه ويفيض عليهم بافتنانه .. يجلس تحت كرسيه قتادة صاحب التفسير وعمرو وواصل صاحبا الكلام وابن أبى اسحاق صاحب النحو وفرقد السبخى صاحب الرقائق وأشباه هؤلاء ونظراؤهم »[٥]

ولم يكن الحسن دائماً صاحب الكلام فى مجلسه فأحياناً كان يجلس جلسة المستمع ويتيح الفرصة لغيره كى يتكلم فهذا صحابى يحدث الناس فى مجلسه[٦] وهذا يزيد بن أبان القاص الزاهد العابد يتكلم أيضاً بالقصص فى مجلسه[٧] وذلك قاص آخر يتكلم عنده بمواعظ جمة ومعان تدعو إلى الرقة فلا يتأثر

---

(١) ابن سعد ١٣١/٧ .
(٢) الاحياء ٢٨٣/٣ .
(٣) الاحياء ٢١٤/٢ .
(٤) ابن سعد ١٢٣/٧ .
(٥) ياقوت : معجم الأدباء ٩٧/١٦ ط . دار المأمون .
(٦) الاحياء ٦٣/١ .
(٧) البيان ٢٩٧/١ .

بها الحسن ويلتفت إلى القاص قائلا : إما أن يكون بنا شرٌّ أو بك[١] وكان من طريقته إذا لم يجد من يسأله أن يتلو آية من القرآن ويعلق عليها ويبين أثرها فى نفسه وإذا آنس فى بعض تلامذته ميلا إلى بسط الأسئلة ابتدره بقوله هات ما عندك[٢] . لأنه كان مهيباً فى النفوس وكانت الهيبة تمنع بعضهم من الإقدام على سؤاله[٣] .

فاذا لم ينعقد مجلسه فى المسجد ذهب تلامذته إلى بيته وكان مجلسه الثانى أكثر خصوصية من الأول لا يحضره إلا من يسميهم إخوانه ويقتصر الحديث فيه على معانى الزهد والنسك (وعلوم الباطن)[٤] ولنا أن نعترف بأن نسبة التكلم فى علوم الباطن إلى الحسن إنما هى تسميه لبسائط الزهد — كما عرفها — باسم متأخر تاريخاً ، وواسعٍ من حيث الدلالة . ويقال إن الحسن لم يكن يتكلم فى ذلك المجلس الخاص إلا فى المعانى المتقدمة فان سأله إنسان غيرها برم به وقال إنما خلونا مع إخواننا نتذاكر[٥] . وليس من الضرورى أن ننفى هذه الخصوصية عن ذلك المجلس ولكن ليس من الضرورى أن نبالغ فيها ذلك لأن شهرة الحسن قد جعلت مجلسه فى المسجد وفى غيره منتجعاً للراغبين فى سماع موعظته وكان الاقبال على مجلسه فى البيت أحياناً كالإقبال عليه فى المسجد حتى إن تلميذه ثابتاً البنانى لم يحدث الناس مخافة أن يصيبه ما أصاب الحسن لأنهم — على حد تعبير ثابت —

---

(١) البيان ٣/٣٢٨ .

(٢) ابن سعد ٧ القسم الثانى ص ٣٥ .

(٣) تاريخ الذهبى ٤/١٠٣ .

(٤) المصدر السابق ٤/١٠٦ .

(٥) المصدر نفسه ٤/١٠٦

منعوا الحسن القائلة ، منعوه النوم[1] . ويحكى لنا أحد تلامذته كيف كانوا جلوساً فى منزل أستاذهم فسأله أحدهم عن الذى كتمته الملائكة فى قوله تعالى لهم « وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون »[2] وهو خبر يزيدنا يقينا بأن مجلس الحسن فى بيته لم يكن يختلف كثيراً فى الموضوع عن مجلسه فى المسجد .

وكان النهار ينتصف والقوم ليس فى نيتهم الانصراف مع تبكيرهم فى الحضور ، أى قبل أن يتناول فطوره حتى إن ابنه قال لهم مرة « خفوا عن الشيخ فانكم قد شققتم عليه فانه لم يطعم طعاماً ولا شراباً »[3] وانتهر الحسن ابنه ولم يقبل منه هذا التدخل وقال له : مَهْ فوالله ما شىء أقر لعينى من رؤيتهم[4] .

وفى ختام مجلسه كان يدعو بهذا الدعاء : اللهم برىء قلوبنا من الشرك والكبر والنفاق والرياء والسمعة والريبة والشك فى دينك يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك واجعل ديننا الاسلام القيم[5] .

---

(١) ابن سعد ج ٧ القسم الثانى ص ٤ .
(٢) تفسير الطبرى ١/١٧٦ .
(٣) ابن سعد ٧/١٢٣ .
(٤) المصدر نفسه .
(٥) المصدر نفسه ٧/١٢٨ .

(١١)
وفاته
١١٠ هـ

وكانت السنوات العشر الأخيرة من حياة الحسن سنوات من الضعف والشيخوخة التي تسير إلى الفناء ، صحيح انه فى هذه السنوات قام يناوىء ابن المهلب ولكن هذه المناوأة أرهقت أعصابه كثيراً. ومنذ أن فقد أخاه سعيداً وفقد أصدقاءه واحداً بعدآخر زاد ثقل السنين على كتفيه وفى جنازة أبي رجاء العطاردى التميمى — فى خلافة عمر — خرج الحسن يشيع الجنازة على حمار وصلى عليها وابنه محتضنه لما كان يحس به من ضعف وكبر[١] . وعلى الرغم من الضعف الذى أعجزه عن المشى ظل يخرج فى تشييع الجنائز على حماره[٢] . وكأنما كان يستمد الشجاعة لرؤية الموت من خوفه النفسى.

ولم يسلم له فى الشيخوخة ما كان يتمتع به من ذاكرة قوية شهد له بها أنس بن مالك الذى كان يحيل عليه بالافتاء ويقول « حفظ ونسينا »[٣] فأصبح إذا سمع الحديث نسى من حدثه به[٤] . أو قد ينسى الحديث نفسه ثم يفتى فى المسألة برأيه افتاء مخالفاً لما سمعه — سمع الحديث « من قتل عبده قتلناه » ثم نسيه وأفتى بأنه لا يقتل حر بعبد[٥] . وأخذ الكلام يثقل عليه

(١) ابن سعد ١٠١/٧
(٢) انظر تاريخ الذهبي ٩٤/٤ وابن سعد ١٤٨/٧ ، ١٥٢/١٥٩
(٣) ابن سعد ١٢٨/٧
(٤) المصدر نفسه ١٢٠/٧
(٥) سنن البيهقى ٣٥/٨

فإذا تقدم إليه أحد يسأله حرك إليه رأسه[١] .

ثم مرض مرض الموت وابنه إلى جانبه يمرضه ويعنى به وهو على سريره يسترجع ويكثر الاسترجاع فيقول له ابنه أمثلك يسترجع على الدنيا؟ فيجيبه بقوله : يابنى ما أسترجع إلا على نفسى التى لم أصب بمثلها[٢] . وأخذ الناس — وخاصة أصحابه — يفدون لعيادته فرادى ومجتمعين ويتزودون منه نصيحة تنفعهم قبل الفراق الأخير . وسأله قوم أن يزودهم شيئا فقال لهم : إنى مزودكم بثلاث كلمات ثم قوموا عنى ودعونى وما توجهت له ، ما نهيتم عنه من أمر فكونوا من أترك الناس له ، وما أمرتم به من معروف فكونوا من أعمل الناس به ، واعلموا أن خطاكم خطوتان خطوة لكم وخطوة عليكم فانظروا أين تغدون وأين تروحون[٣] . وقال لقوم عادوه فى مرضه — ولحظهم لحظة — لو أن ابن آدم أخذ من صحته ليوم سقمه[٤] . ودعا إليه كاتباً وأمره أن يكتب وصيته ومما أملاه فيها « هذا ما يشهد به الحسن ابن أبى الحسن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله من شهد بها صادقاً عند موته دخل الجنة يروى ذلك عن معاذ بن جبل أنه أوصى بذلك عند موته يروى ذلك عن رسول الله (ص) . »[٥] .

ولما اشتد به الوجع طلب إلى الخادم أن تسجر التنور وكانت لديه صحف وكتب فأمر بها جميعاً فأحرقت غير صحيفة واحدة ظلت فى حوزة

(١) الخطيب : تاريخ بغداد ١٨٠/٢ .
(٢) العقد ٢٣٤/٣ .
(٣) الحلية ١٥٤/٢
(٤) ابن سعد ١٢٧/٧
(٥) المصدر نفسه ١٢٦/٧

ابنه حتى استعارها منه مسلم بن حصين الباهلى [١] .

وقد صور كاتب متأخر — له ميول التوحيدى وأسلوبه — آخر ما نطق به الحسن قبل أن يفارق الدنيا ، مستمدا تلك الصورة من طبيعة أحاديثه ومجلسه فذهب إلى أنه ذكر الموت وهول المطلع فأسف على نفسه واعترف بذنبه ثم التفت يمنة ويسرة معتبراً باكياً وأخذ يمسح مرفض العرق عن جبينه ثم قال : اللهم إنى قد شددت وضين راحلتى وأخذت فى أهبة سفرى إلى محل القبر وفرش العفر فلا تؤاخذنى بما ينسبون إلىَّ من بعدى . اللهم إنى قد بلّغت ما بلغنى عن رسولك وفسرت من محكم تأويلك ما قد صدقه حديث نبيك إلا وإنى خائف عمرا ألا وإنى خائف عمرا [٢] ،

وهذا الكاتب أجاد التصور لحال الحسن وحركاته ولكنه نحله حديثه هذا لغايتين وهما :

١ — أن الحسن قال بالقدر ثم اعترف بذنبه قبل أن يموت وبرىء مما سينسب إليه منه بعد وفاته (وهى مشكلة سنعرض لها فى غير هذا المكان) .

٢ — أنه كان يخشى ماسيحدثه عمرو بن عبيد من بدعة القول بالقدر . وإذا وضحت هاتان الغايتان عرفنا أن هذا القول إنما أرسله على لسان الحسن شخص من أعـــداء القدرية وممن كانوا يريدون تبرئة الحسن من تهمة القول بالقدر ،

وقبل أن يسلم الحسن روحه أغمى عليه ثم أفاق وتقول الرواية إنه التفت إلى من كانوا حوله وقال لهم : نبهتمونى من جنات وعيون ومقام كريم [٣]

---

(١) ابن سعد ٧ / ١٢٧

(٢) العقد ٢/ ٣٨٦

(٣) ابن خلكان ١/ ٢٢٨

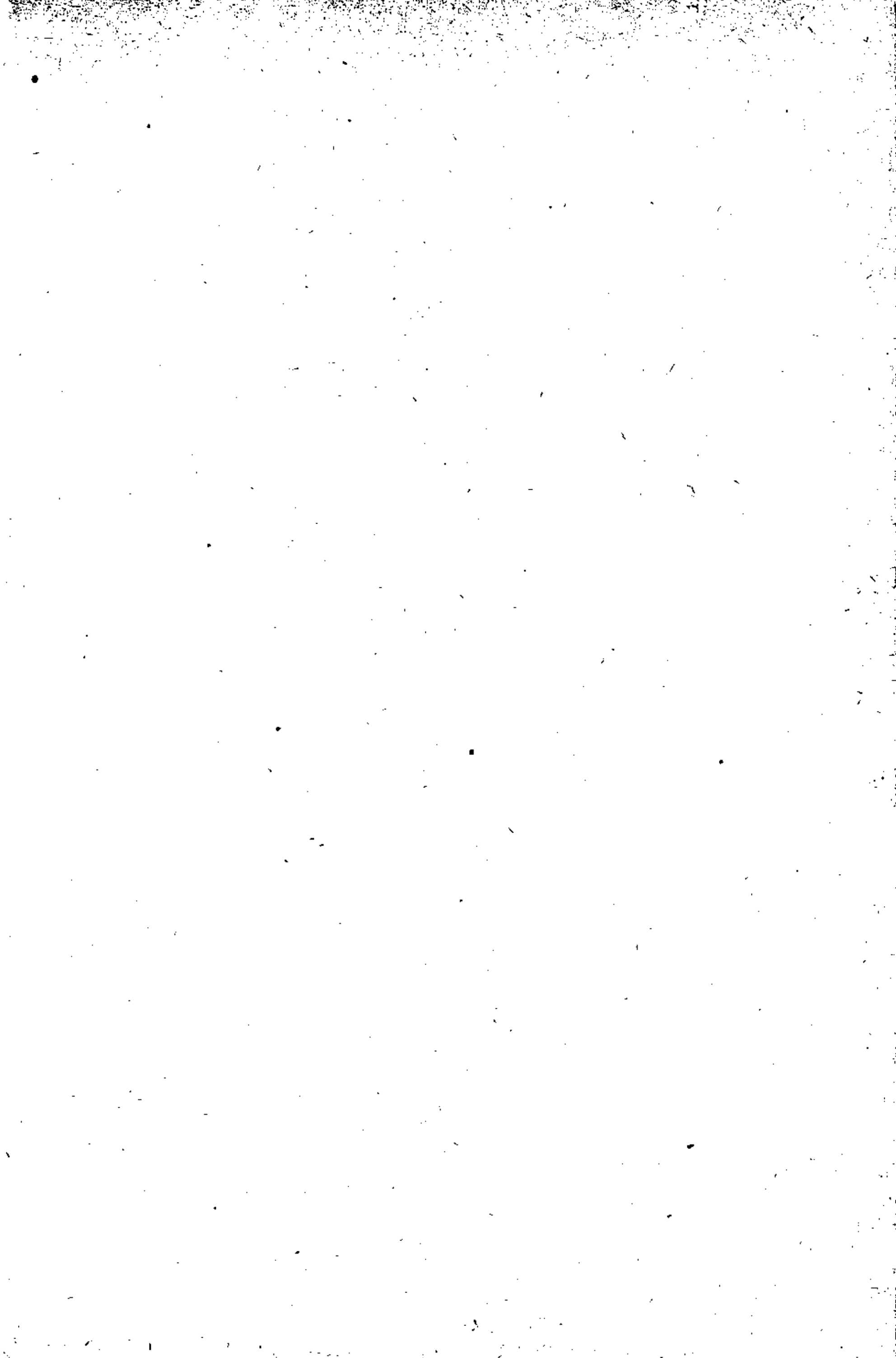
وهو تصور جميل لآمل جميل ممن أرادوا للحسن نهاية سعيدة عاجلة، واشتد به النزع حتى عجز لسانه عن الإفصاح بالكلمات بعد أن كانت الإبانة والفصاحة من أظهر صفاته ، ولم يعد عائدوه يفهمون عنه ما يقول فينبئهم ابنه أنه يسترجع (١) ، وفي ليلة الجمعة من أول رجب سنة عشر ومائة أسلم الروح وغسله تلميذاه أيوب وحميد الطويل وصلى عليه عقيب الجمعة وازدحم الناس من حوله حتى إن صلاة العصر لم تقم يومئذ في جامع البصرة (٢) ،

(١) ابن سعد ٧/١٢٧

(٢) تاريخ الذهبي ٤/١٠٦

الكتاب الثاني

العناصر الكبرى في شخصيته



(١)
بعض السمات الظاهرية

كان الحسن طويل القامة عريض العظام ، شهد من رآه أن زنده كان عرضه شبرا[١] . وكان وجهه جميلا وسيما متناسب التقاطيع بحيث أطرت جماله امرأة كانت تراه فى سن العشرين يتردد على مسجد البصرة فى طلب العلم[٢] . وقال الشعبى لرجل كوفى مسافر إلى البصرة اقرىء الحسن السلام فلما أخبره أنه لا يعرفه قال له أنظر إلى أجمل رجل تراه فى عينك فاقرئه منى السلام[٣] إلا أن أنفه أصيب إصابة لم تختف مع الزمن عند ما وقع عن دابته فى تاريخ لا أستطيع تعيينه[٤] . وكانت عيناه زرقاوين ومن هنا نفهم لم كانت تخشى منه الإصابة بالعين ، فقد دخل المسجد ذات مرة ومصعب بن الزبير يخطب فنزل عن المنبر حين رآه لأنه كان يخاف العين على جماله[٥] . أما صوته فكان جهورياً حتى كان المستمعون أحياناً لا يطيقونه[٦] . وكان يرخى لحيته ويكره أن يأخذ منها ما يزيد على قبضة كما كان يفعل بعض الفقهاء[٧] ويكتفى بأن ينظف عنفقته ويستحسن ذلك[٨] ولا يحفى شاربه كما يحفيه بعض الناس فى عصره إلا أنه كان أحياناً يستدعى

---

(١) المعارف ص ١٩٥ وتاريخ الذهبى ٤/٩٩ . (٢) تاريخ الذهبى ٤/١٠٠ .

(٣) تهذيب التهذيب ٢/٢٦٤ وما بعدها . (٤) المعارف ص ١٩٥ .

(٥) عده ابن قتيبة فى الزرق: المعارف ص ٢٥٣ وانظر ابن رستة : الأعلاق النفيسة (ج ٧ فى المكتبة الجغرافية ص٢٢٣) ، وكذلك فى تاريخ الذهبى ٣/٢٠٩ وفى أنساب الأشراف ٥/٢٨٥ أن مصعبا كان يحسد الناس على الجمال وأنه نزل لما رأى الحسن ويصلح النص بأن نقرأ « يحسده » بدلا من « يحسد » . (٦) ابن سعد ٧/١٢٥

(٧) ابن سعد ٧/١١٦ (٨) تفسير القرطبى ١٧/١٠

الحجام ليسويه له تسوية غير بليغة[1] . ولما ابيضت لحيته أخذ يصبغها بالصفرة — فى كل جمعة[2] . وكان يترك شعره يطول ويحلقه يوم النحر من كل عام[3] . ولم يكن يضع العامة أبداً فى صيف أو شتاء إذا خرج إلى الناس ، وبتلك العامة الحرقانية السوداء المرخاة من ورائه[4] كان الحجاج يشير اليه ويسميه ذا العامة السوداء ولعل عدم نزعها هو الذى ميزه بها لأن السواد فى العائم لم يكن أمراً نادراً فى البصرة وربما كان يتميز بها عن ابن سيرين صديقه ومنافسه لأن هذا كان يلبس عمامة بيضاء[5] . أما كونها حرقانية فاتباع للسنة إذ كان الحسن يحاول أن يتقيد فى مظهره بما شاهده من مظهر للصحابة الذين أدركهم . وقد كان أستاذه ابن عباس يلبس أيضاً هذا النوع من العائم ويرخيها شبراً[6] . كما أن عمر بن عبد العزيز حين وصفت له عمامة الحسن بأنها حرقانية قال إنها كانت من لباس القوم[7] ومن السنة أيضاً صبغه لحيته بالصفرة واتخاذ خاتم له فقد كان يلبس خاتماً على شكل حلقة من الفضة الخالصة يضعها فى إصبع من أصابع يده اليسرى وقد رسمت فيها خطوط[8] .

أما فى ثيابه فلم يكن يتقيد بنوع واحد فكان يلبس الطيلسانات والبرود والجباب والخمائص الكثيرة الأعلام والأقبية : فكان طيلسانه أحيانا من

---

(١) محاضرات الراغب ١/٢٨٢ ولباب الآداب ص ٨٥ .
(٢) ابن سعد ٧/١١٦ وتاريخ الذهبى ٤/١٠١ .
(٣) تاريخ الذهبى ٤/١٠٢ .
(٤) ابن سعد ٧/١١٧ والذهبى ٤/١٠١ .
(٥) ابن سعد ٧/١٤٨ .
(٦) تاريخ الذهبى ٣/٣٥
(٧) ابن سعد ٧/١٢٥
(٨) ابن سعد ٧/١١٦ — ١١٧

النوع الكردى المثنى الغامض السلك ، وأحياناً أخرى أزرقياً . وكان برده من الأبراد السعيدية[١] . المصلبة ، وجبته يمنة ورداؤه يمنة وقميصه من الكتان الشطوى . وربما كان يفضل اللون الأسود فيما يشترى من ثياب وخاصة إذا تذكرنا أن عمامته كانت سوداء وأنه كان يلبس الخميصة وهى فى الغالب سوداء أيضاً . ولم يكن يطيل ثيابه لأن الإطالة لم تكن سنة الزهاد حينئذ[٢] وأول من استحدث التطويل تلميذه أيوب السختيانى لأن التقصير أصبح سمة شهرة لمن يريد أن يعده الناس زاهداً[٣] .

وكان مظهر أبي سعيد يستلفت دائماً انتباه فرقد السبخى صاحب الصوف وهنا يمكن القول بأن الخصومة بين الفقهاء الواقعيين والزهاد المتطرفين اتخذت المظهر موضوعاً لها وتجاذبت الروايات المتضاربة شخصية الحسن فى هذه الناحية . ولكن دقة الروايات المتقدمة فى التاريخ ومنحاها التفصيلى يجعلنا نرفض بلا تردد ما قاله الصوفية فيما بعد عن زى الحسن فقد ذكروه بين من اختاروا الأكسية الصوفية المرقعة مثل مالك بن دينار وسفيان الثورى[٤] . ورووا عنه أنه شهد سبعين بدرياً يلبسون الصوف إذ قال « والله لقد أدركت سبعين بدرياً أكثر لباسهم الصوف »[٥] ، وجملة « أكثر لباسهم الصوف » مزيدة فى هذه المصادر . ويقولون إنه رأى سلمان الفارسى يلبس

---

(١) سميت بالسعيدية نسبة إلى سعيد بن العاص الذى كساه الرسول جبة ، فما كان مثلها سمى سعيدياً (انظر المعارف ص ٢٦٥) .

(٢) انظر تفصيل أنواع الثياب التى كان يلبسها عند ابن سعد ص ١١٧ .

(٣) ابن سعد ٧ القسم الثانى ص ١٥

(٤) كشف المحجوب ص ٤٥ .

(٥) الحلية ٢/١٣٤

رداء صوفيا[١] . وحقيقة ما قاله الحسن أنه رأى سلمان يخطب فى عباءة يفترش نصفها ويلبس نصفها[٢] . وتصوروه فى مظهره العام مثالا للصوفى يمشى حافيا ويلبس الأثواب الصوفية وقميصه قذر لأنه مشغول عن غسله[٣] وعلى هذا كان الثوب الرخيص يكلف الحسن سبعة دراهم أو أربعة عشر درهما[٤] . أما المعارضون لهؤلاء فيذكرون أن الحسن كان يلبس الثوب أحيانا بأربعمائة درهم[٥] وكان مثل هذا الثوب لين المس فان كان طيلسانا بدا وكأنما يجرى فيه الماء وإن كان خميصة ظهرت وكأنها خز[٦] والفريق الثانى إنما يذكر هذا عن الحسن ليستبيح لنفسه سنة يتبعها فى سعة ونستطيع أن ننكر انفاق الحسن الأثمان العالية فى شراء ثيابه ولكن هذا لا يعنى أنه كان يمتنع عن لبسها إذا جاءته بطريق الهدية وكل هذا على أية حال لا ينفى أنه لبس الصوف والقول الفصل فى ذلك أنه فى نظره لنفسه كان لا يبالى إذا لبس الصوف فاذا رآه على غيره لمس شيئاً من الإعلان عن الزهد ولذلك يقول من لبس الصوف تواضعاً زاده نوراً فى بصره وقلبه ومن لبسه اظهاراً للزهد وتكبراً كور فى جهنم مع الشياطين[٧] .

ويمكننا أن نضيف إلى مظهره العام حمله للعصا ، فقد خرج يحملها لما

---

(١) كشف المحجوب ص ٤٥
(٢) تاريخ الذهبى ٢/١٦١
(٣) الكواكب الدرية ورقة ٩٥ ، ٩٩
(٤) محاضرات الراغب ١/٢٢٤ وعيون الأخبار ١/٢٥١
(٥) محاضرات الراغب ٢/١٥٦
(٦) تاريخ الذهبى ٢/١٠١
(٧) الكواكب الدرية ورقة ٩٨ .

غرقت البصرة فيما تقول الرواية ، وإن صح أنه قال فيها : فى العصا ست خصال سنة للأنبياء وزينة الصالحين وسلاح على الأعداء وعون للضعفاء وغم المنافقين وزيادة فى الطاعات[١] — إن صح ذلك فانها كانت عدة له قبل أن تضطره اليها الشيخوخة .

أما فى الأطعمة فقد كانت قاعدته ألا يحرم نفسه من الطيبات ويعتبر أوسط الطعام فى كفارة اليمين الخبز واللحم ويليهما الخبز والسمن ومن بعد هذين الخبز واللبن[٢] . ولم تخل داره يوما من اللحم لاستعماله فى صنع المرق فلما حبس عطاؤه أصبحت مرقته بشحم[٣] . وذكر بعض من كان يتردد على داره أنه لم يشم أطيب ريحاً من المرق عنده[٤] وهى شهادة أراد بها راويها أن تدل على طيب الحلال من الطعام وقد تؤخذ لتدل على تفنن معين فى الطهى وكان يطبخ اللحم فى الدعوات ويقول للناس هلموا إلى طعام الأحرار[٥] . وكان يحب من الحلوى الفالوذج حتى قال لمن عابه مرة : فتات البر بلعاب النحل بخالص السمن ما عاب هذا مسلم[٦] . وفى بيته يأكل الخبيص[٧] ، ويشرب السويق وربما أفطر عليه فى رمضان[٨] وكان يكره أن تشربه النساء لأنه داعية إلى السمنة[٩] وكان يصف العسل لمن استمشى[١٠] وأعلن عن كرهه للصحناة وهى نوع من السمك الصغار حتى قال لسائله عنها

---

(١) تفسير القرطبى ١٨٨/١١ .

(٢) تفسير الطبرى ١٢/١٢ . (٣) البخلاء ص ١٨٦ .

(٤) ابن سعد ١٢٣/٧ . (٥) أبو حيان التوحيدى : الامتاع والمؤانسة ٣٧/٣ .

(٦) عيون الأخبار ٢٠٣/٣ . (٧) ابن سعد ١٢٨/٧ .

(٨) تفسير القرطبى ٤٦/١٩ .

(٩) عيون الأخبار ٢٠٧/٣ . (١٠) المصدر نفسه ٢٠٦/٣ .

باستغراب ، وهل يأكل المسلمون الصحناة[١] . وكره الكراث كذلك .
وكثيراً ما كان يدعى إلى الولائم فيجيب — والوليمة فى زمنه تنصرف إلى
طعام الإملاك والاعراس والسبوع والختان[٢] إذ كان الناس يحمدون
من يجيبها ويذمون من لا يجيبها . وكان من دعائه فى آخر الوليمة : مد الله
لكم فى العافية وأوسع عليكم فى الرزق واستعملكم بالشكر[٣] .

(٢)

الولاء وآثاره فى فصاحته وكرمه وتدينه

كان من أقوى العوامل تأثيراً فى بناء شخصيته وفى نفسيته أنه مولى ،
فالبيئة التى عاش فيها لم تنف من نفسه الشعور بالولاء ولا تخلصت من
شعورها نحوه بأنه مولى ؛ دخل عليه جماعة من القراء — وكلهم عرب —
يستشيرونه فلما أشار عليهم بما لا تهوى أنفسهم خرجوا من عنده يقولون
أنطيع هذا العلج[٤] ؟ ولما ذهب فى وفد إلى المهالبة قام الناس إجلالا له
فقال يزيد بن المهلب (أو قال أحد المهالبة) : كاد العلماء يكونون أربابا ،
أما ترون هذا المولى كيف قام له سادات العرب[٥] . واحساس الناس بأنه
مولى بعث على ألسنتهم فلتات تعبيرية تفصح عن الحقيقة المكنونة فى نفوسهم
فقد كان الشعبى يشبهه بالفرس العربى بين المقارف[٦] . وسمعه أعرابى يتكلم

---

(١) الدميرى ٢/٧٥ .
(٢) البخلاء ١٩٥ .
(٣) نهاية الأرب ٣/٣٤٥ .
(٤) ابن سعد ٧/١١٩ .
(٥) محاضرات الراغب ١/١٣
(٦) الاحياء ٢/٣٠٣ .

فقال عنه « هو عربي محكك »[١] . وقيل لأعرابي آخر رآه كيف تراه فقال أرى خيشوم حر[٢] . هذا فى حالة الرضى أما فى حالة الغضب فكان العرب يعيرونه بولائه ويسمونة عبداً أو عبيداً وقد حسب أصحابه أن شعوره بالولاء لم يعد له أثر فى نفسه حين انتقدوه لأنه زوج ابنته من مولى عتاقة .

ومن هذا النقص استمد القوة فى النواحى التى تفوق فيها العرب وخاصة صفتى الفصاحة والمقدرة البيانية ، والكرم . كما استمد الاتجاه المتحمس نحو الدين .

(ا) الفصاحة والمقدرة البيانية .

حار الأقدمون كيف يعللون فصاحة مولىً عرف أسرار العربية وأحكمها إحكاماً فاق به أبناءها فذهبوا إلى القول بأن تلك الفصاحة إنما جاءته من بركة أم سلمة — أم المؤمنين — لأنها كانت إذا أرسلت أمه فى مهمة حملته وألهته عن البكاء بثديها فدر ثديها عليه ومن ثم نشأ فصيح اللسان[٣] وليس يعنينا من هذه الرواية إلا كونها تضيف شيئاً إلى الثناء الذى أضفاه المعاصرون على الحسن لتمكنه من اللغة، شهد له بذلك علماء اللغة أنفسهم كأبى عمرو بن العلاء الذى كان يعد الحسن والحجاج أفصح قرويين رآهما[٤] . وكان بعض تلامذته ينقل اليه شيئاً من كلام الحسن فيظهر إعجابه بحسن بيانه[٥] . وشهد له رؤبة بن العجاج شاعر الغريب فى زمانه[٦] .

وكان الناس إذا ذكروا الحسن شبهوه برؤبة فى الفصاحة والاقتدار

---

(١) البيان ١/٢١١ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) ابن سعد ٧/١١٤
(٤) البيان ١/١٧٤ :
(٥) المصدر السابق .
(٦) البيان ٢/٢٣٢

على الغريب[١] وأثنى عليه الأعراب أنفسهم ولم يتبادر لهم أنه غير عربى[٢] وكان الحجاج يعده أخطب الناس[٣] وبهذه الشهادات نفسها تعلق الجاحظ فعده من خطباء النساك والعباد ثم قال « فأما الخطب فانا لا نعلم أحداً يتقدم الحسن البصرى فيها[٤] . وعلى الجملة فان الرواية البصرية التى يمثلها الجاحظ والمبرد وأبو عمرو بن العلاء قد جعلت الحسن البصرى فى أعلى مرتبة من مراتب الفصاحة فى عصره .

وفى هذه الناحية كثرت الروايات التى نشأت حول الحس اللغوى عند الحسن واستبشاعه للحن من محدثيه وهذه الكثرة نفسها قد تشككنا فى واقعية تلك الروايات فلعل ما وقع فى الأصل لا يعدو حادثة أو حادثتين ثم تولد من ذلك روايات مستفيضة تكاد تكون كلها ذات صبغة واحدة وبعضها أشبه بالنادرة منها بالحادثة الواقعية كقصة الرجل الذى دق عليه الباب وقال يا أبو سعيد ثم يا أبى سعيد فقال له قل الثالثة وادخل[٥] وأكثر اللحن المتصل بهذه القصص يعترى كنية أبى سعيد نفسها أو أحد الأسماء الخمسة . وكان الحسن يعزو هذا اللحن اما إلى النشأة فى بيئة غير عربية خالصة كالأبلة[٦] وإما إلى انشغال المرء بكسب الدوانيق عن التعلم[٧] .

ومهما يكن حظ تلك الروايات من الصدق فلن يمنعنا ذلك من الايمان بدقة الإحساس اللغوى عنده ونفوره من اللحن وتشجيعه الناس على أن يتعلموا العربية ويقيموا بها ألسنتهم وحين سئل عن رأيه فى الرجل يتعلم

(١) ابن سعد ٧/١٢١ والأغانى ١٨/١٢٤ .
(٢) البيان ١/٢١١ .
(٣) البيان ١/٣٧٤
(٤) البيان ١/٣٣٦
(٥) معجم الأدباء ١/٧٩
(٦) ابن سعد ٧/١٢١
(٧) البيان ٢/٢٢٣

اللغة قال : نعم ليتعلمها فان الرجل يقرأ الآية فيعيا بوجهها فيهلك[1] . وكان يعتقد أن العجز اللغوى هو الذى يؤدى إلى المماحكة فى الجدل ويجر إلى الفرقة فى الدين وفى ذلك يقول « أهلكتهم العجمة يتأولونه على غير تأويله » ولا شيء يشين الرجل كاللحن حتى أفتى المصلين أن يرفضوا إمامة رجل يلحن[2] ويمكن أن يفسر اللحن الذى يحاول الحسن تجنبه بأنه ليس بنقيض للسلامة الإعرابية فحسب بل هو أيضاً العجز عن فهم حدود اللفظة كما استعملها العرب . ومن النوع الثانى دعاء رجل سمعه الحسن يقول : اللهم تصدق على فقال له يا هذا إن الله لا يتصدق إنما يتصدق من يبتغى الثواب أما سمعت قول الله تعـــالى إن الله يجزى المتصدقين . قل اللهم أعطنى وتفضل على[3] .

ولم يبرأ الحسن نفسه من تهمة اللحن عند أرباب اللغة على ما كان لديه من حس لغوى دقيق[4] . فروى عنه أن لسانه كان يعثر بشيء من اللحن فيستغفر الله[5] . ونسب اليه الجاحظ الخطأ فى كلمتين من القرآن هما : صاد والقرآن ، وما تنزلت به الشياطون[6] . أما القراءة الأولى فتدين فى نشأتها — كما يقول الأستاذ يوهان فك[7] — إلى نظر تفسيرى محض حيث فهمت على أنها أمر من مصدر المادة الثلاثية (ص دى) وفسر الحسن معنى الفعل بأنه أتله وتعرض لقراءته[8] . وهى قراءة لم ينفرد بها الحسن بل كانت قراءة

(١) معجم الأدباء ١/٨٣ والاعتصام ٢/٢٥٨ .
(٢) تفسير القرطبى ١/٢٣
(٣) تفسير القرطبى ٩/٢٥٥ . (٤) البيان ١/١٧٤
(٥) معجم الأدباء ١/٦٨ . (٦) البيان ٢/٢٢٣
(٧) يوهان فك : العربية ترجمة الأستاذ النجار ط . لجنة التأليف ص ٣٣
(٨) تفسير القرطبى ١٥/١٤٢

أبي بن كعب وابن أبي اسحاق ونصر بن عاصم ، وأما الشياطون (الشعراء آية ٢١٠) فقد أنكر المهدوى جوازها، وقال النحاس انها غلط عند جميع العلماء وقال الفراء غلط الشيخ واعتذر عنه النضر بن شميل بأنه إن جاز الاحتجاج بقول رؤبة والعجاج جاز الاحتجاج بقول الحسن وبأنه لا بد سمعها من غيره وأراد يونس أن يخفف من وقعها فنسب إلى بدوى أنه قال دخلنا بساتين من ورائها بساتون[١] .

ومهما يكن موقف النحويين فان هذه القراءة وأشباهها تدل على أن الحسن قد أمعن فى التنطس والتفصح حتى خرج إلى إلف غير المألوف من اللفظ والمتتبع لقراءته يتبين هذا الميل عنده واضحاً فهو يقرأ « إلا من هو صالُ الجحيم[٢] » وهى قراءة عدت من اللحن كما عد من اللحن قراءته غير مضارِّ وصيةٍ[٣] . لأن اسم الفاعل عند من أنكروا هذه القرءاة لا يضاف إلى المصدر وكان الحسن يقرأ ان أخى له تسع وتسعون نعجة بفتح التاء فى اللفظتين وكسر النون من نعجة[٤] وليس الميل النفسى وحده هو المحرك الدائم له فى هذا الاتجاه إذ أن قسما مما شذ فيه يرجع إلى تأويل معين قد يقتضى الرفع دون النصب مثلا أو إلى كتابة المصحف غير المنقوط الذى تحذف بعض أحرف العلة فيه ومن هذا القبيل تصبح لينذر — لتنذر (غافر) ورجلا سلماً — ورجلا سالماً (الزمر) وابتغوا — واتبعوا (البقرة) كما أن جواز غير صورة واحدة من اللفظة تجعل الحسن فى سعة من استعمال إحدى الصور التى سمعها عن شيوخه (اقتت = وقتت : المرسلات) و (لا تمنن = لا تمنَّ : المدثر) و (ألقيا فى جهنم = ألقين : سورة ق) . . الخ

---

(١) تفسير القرطبى ١٣/١٤٠ (٢) المصدر السابق ج١٥ (انظر تفسير سورة الصافات)
(٣) المصدر السابق ٥/٨٠ (٤) المصدر نفسه ١٥/١٤٢ والدميرى ٢/٣٦٠

ولا ننس أيضاً أثر البصرة فى الحسن بوجه عام فقراءته لا تعنى انفراده دون سائر القراء ولكنها كثيراً ما تكون قراءة البصريين مثل أبى العالية وأبى رجاء العطاردى ويحى بن يعمر ومالك بن دينار وغيرهم فاذا قرأ الحسن البعث (بفتح العين) لم يكن شذوذاً منه وإنما هى قراءة بصرية وعلى وجه العموم نجد قراءته مستمدة من طريقين إحداهما طريق الرقاشى عن أبى موسى الأشعرى والثانية طريق أبى العالية عن أبى بن كعب وغيره[١] وتتميز قراءة البصرة بأثر تميمى واضح لأن كل مصر من الأمصار الإسلامية تعصب لمن يليه من البدو فتعصبت البصرة لعليا تميم وسفلى قيس وعدتهما معدن الفصاحة[٢] . وكانت تميم صاحبة السيادة الثقافية والقبلية حينما كان الحسن يطلب العلم ولذلك نرى فى قراءته آثاراً كثيرة من اللهجة التميمية ومميزاتها . بها قرأ الصواقع بدلا من الصواعق[٣] وقرأ فاذا حبالهم وعصيهم (بضم العين)[٤] ويقول الأخفش أن حوباً — بدلا من حُوبا هى لغة تميم وبها قرأ الحسن[٥] . وقرأ الحمد لله بكسر الدال ويقول النحاس إنها صيغة الحمدلة فى لهجة تميم[٦] ومع هذا الشذوذ نسمع الشافعى يقول فيه : لو أشاء أن أقول إن القرآن نزل بلغة الحسن لقلت لفصاحته[٧] .

---

(١) ابن الجزرى : غاية النهاية فى طبقات القراء الترجمة رقم ١٠٧٤ ط . مصر ١٩٣٣ .

(٢) انظر فى ذلك مقالة للاستاذ P.E.Kahle بمجلة Near Eastern studies vol. VIII No. 2, 1949.

(٣) تفسير القرطبى ١/٢١٩ (٤) المصدر نفسه ١١/٢٢٢

(٥) المصدر نفسه ٥/١٠

(٦) انظر يوهان فك « العربية » ص ٣٢ نقلا عن ابن الأنبارى فى نزهة الألباء وراجع اللسان مادة « حمد » .

(٧) ابن الجزرى الترجمة رقم ١٠٧٤ .

وربما لم يكن الحسن يحسن لغة غير العربية ومرة رآه فرقد السبخي فكلمه بالفارسية وأجابه أبو سعيد بالعربية[1] وليس في تفسيره للقرآن ميل إلى رد الألفاظ لأصول أجنبية إلا نادراً كأن يقول مثلا إن هيت كلمة سريانية[2] ولعله سمع ذلك من ابن عباس وتابعه في رأيه. ومرة وردت في كلامه لفظة « خربندج »[3] وورودها يدل على أنه استمد من مجتمعه بعض الألفاظ الفارسية المعربة. وفي قراءته نجده يلفظ بعض الكلمات الأجنبية بما هو أقرب إلى الأصل مثل الانجيل (بفتح الهمزة) وجبريل (بفتح الجيم)[4] ويونس، ويوسف[5].

وليس بهذا التفرد في القراءة اكتسب الحسن صفة الفصاحة وإنما أحرز إعجاب اللغويين في عصره لأنه ملأ عباراته بألفاظ فصيحة مما لم يكن مألوفاً في الحديث العادي مثل « اقدعوا هذه النفوس فانها طلعة » . . . و« أحب إلي من طلاع الأرض » . . . « ودقدقت بهم الهاليج » . . « وإن لله ترائك في خلقه » . . و « يملخ في الباطل ملخاً » ومثل قوله في الحجاج : دخلت على احيول يطرطب شعيرات له (أي ينفخ شفته في شاربه غيظا) وقوله فيه أيضا : هل كان الحجاج الا حمارا هفافا (أي سريعا طياشا)[6] فبهذا المعجم الفصيح تميز الحسن وأصبح له طابع خاص في التعبير ومن هنا تفهم لم شبهوه برؤبة .

---

(١) ابن سعد ٧/١٢٣ (٢) تفسير القرطبي ٩/١٦٤

(٣) كتاب اللمع في التصوف ص ٣٤٤ .

(٤) انظر تفسير الطبري ١/٣٤٦ وأصل لفظة انجيل يوناني فأخذها السريان عن اليونانية وعنهم أخذها الأحباش مفتوحة الهمزة ومن الأحباش أخذها العرب وقد أشار الأستاذ برجشتراسر إلى قراءة الحسن البصري بالفتح « انظر التطور النحوي ١٥٤ » .

(٥) تفسير القرطبي ٦/١٦ (٦) انظر تهذيب ابن عساكر ٤/٧٦

أما مدى تعمقه فى النواحى الأدبية فمن الصعب أن نقول فيه شيئاً واضحاً ، كان يروى بعض الأبيات فيتمثل فى أول النهار بقول الشاعر [١]

يسر الفتى ما كان قدَّم من تقى ، إذا عرف الداء الذى هو قاتله

وفى آخر النهار بقول الآخر

وما الدنيا بباقية لحى ولا حى على الدنيا بباق

وينشد فى قصصه [٢]

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء

ويردد أبياتاً أخرى [٣] أكثرها فى ذكر الفناء واليأس من الدنيا مع أن الجاحظ [٤] قصر تمثله على البيت الأول والثالث الواردين هنا ، ومرة جاءه الفرزدق يحاول أن يسمعه هجاءه لإبليس فأبى أن يسمع منه وقال له كيف تهجوه وأنت عن لسانه تنطق [٥] وهذا قد يدل على شىء من التحرج فى سماع بعض أنواع الشعر ، ولذلك لا نعرف مدى اطلاع الحسن على الشعر جاهلياً كان أو إسلامياً .

إذن ما هى المؤثرات الكبرى التى ساعدته على تنمية الموهبة الفنية ؟ من السهل أن يقال — وإن كان التحديد صعباً — إنه متأثر إلى حد بعيد بالقرآن الكريم كما أنه يحاكى نوعاً من أحاديث الرسول ، قائماً على ضرب من التمثيل وربما وجدنا عنده مسحة من الحكمة الانجيلية تظهر فى مثل قوله : يا معشر الشيوخ الزرع إذا بلغ ما يصنع به (قالوا يحصد) يا معشر الشباب كم من زرع لم يبلغ أدركته آفة [٦] ولكننا لا نستطيع أن نلح على هذه الناحية

---

(١) البيان ١/١٣٢ والحلية ٢/١٤٣ (٢) الحلية ٢/١٥٢

(٣) انظر الأغانى ١٩/١٤ والاحياء ٣/١٨٦ وعيون الأخبار ١/١٧٧

(٤) الحيوان ٦/٥٠٧ تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون .

(٥) طبقات ابن سلام ص ٧٨ ط . ليدن ، والأغانى ١٩/١٤ ، وتاريخ الذهبى ٤/١٨٠ .

(٦) عيون الأخبار ٢/٣٢٣

لأنا لا نعلم أن الحسن كان ذا صلة بالانجيل أو بالتوراة . فهو لا يذكر التوراة إلا مرة واحدة فى قوله « كلمات أحفظهن من التوراة ، قنع ابن آدم فاستغنى ، اعتزل الناس فسلم ، ترك الشهوات فصار حراً ، ترك الحسد فظهرت مروءته ، صبر قليلا فتمتع طويلا »[1] . ولم يذكر من الأقوال منسوباً للمسيح — إلا قولة واحدة[2] . حقاً إن المجتمع البصرى فى عصره لم يكن يجهل التوراة والانجيل ولكن الخطو فى هذه الناحية دون شواهد بينةداع إلى الزلل . وقول أحد معاصريه « ذاك الذى يشبه كلامه كلام الأنبياء » لا يشير إلى شبه فى الموضوع فحسب بل قد يؤكد التأثر بالأسلوب .

وهناك احتمال آخر لتأثره بالخطباء والقصاص الذين عرفهم وشاهدهم فى صباه مثل على وابن عباس ويزيد بن أبان القاص وغيرهم . والشبه بينه وبين على يمتد إلى الأسلوب نفسه وقد يعلل هذا بالتأثر أو قد يسند إلى طبيعة الأسلوب الخطابى عامة وإلى خضوع الخطابة فى القرن الأول الهجرى لمؤثر كبير — هو القرآن — طبعها بمظاهر عامة مشتركة .

وبالمقدرة الخطابية أحرز الحسن المكانة العليا فى مجتمعه ومن خلالها استطاع أن يبسط آراءه ومبادئه بسطاً مؤثراً فى النفوس فانجذب اليه الناس واستأسروا لسحره وكانت هى الأداة التى كشفت لهم عن معنى علمه وحكمته وذكائه وسعة اطلاعه .

ونحن اليوم نقرأ ما بقى من خطبه عارية عن ذلك النغم الصوتى الذى كان يبعثه فيها ، محرومة من التأثير المسرحى الذى يتطلبه موقف الخطيب

---

(١) الاحياء ٢/١٩٨

(٢) انظر البيان ٣/١٤٠ حيث نجد الكلمة مروية على لسان أبى سعيد الزاهد والاشتراك فى الكنية أوقع الالتباس .

فلا نرى خطرة باليد تضيف إلى المعنى ظلا ، ولا نسمع تلك النبرات القوية المؤثرة التى كان يحتفل لها صاحبها أبلغ احتفال حين يرسل الألفاظ قوية حادة صحيحة الحروف والمخارج . وقد فاتتنا كذلك رؤيته وهو مندمج فى موضوعه متحد به مخلص له أو خاضع منكسر النفس من أجله، فاتنا كل ذلك كما فاتنا أن نراه يبكى حين ترق الموعظة أو تختلج عضلات وجهه حين يتحدث منذراً مخوفاً وضاعت من النصوص المكتوبة وقفة ذلك الشيخ الجليل الجميل المهيب فى زى حزين ونظرة حزينة ، كل ذلك الجو قد زال والخطابة لا تقدر على حقيقتها بالنقل والرواية أو قل انها تقدر بأكثر من حقيقتها فى الإلقاء والتمثيل لأنها تستنجد بالعوامل المساعـــدة لتصبح شيئاً مؤثراً .

اذن لم يبق لنا فى خطابته إلا أن نبحث عن تلك الخصائص العامة التى استمد منها الحسن تأثيره فى الجماهير . والسر فى الموضوع والأسلوب معاً. أما الموضوع فهو التذكير بالموت والتخويف منه والتنفير من الدنيا . وقد حاول الحسن أن يبتعد عن تهويل القصاص فى أغلب أحواله فلم يتحدث عن المحال وإنما أحضر فى النفوس معنى الحقيقة المرة التى تقاسيها الإنسانية جميعاً وتحاول بالطرق المختلفة أن تهرب منها . وكان لا يفعل شيئاً أكثر من أن يرد الهاربين فى مسارب الحياة اللاهية إلى تلك الحقيقة الكبرى مكتفياً بأن يقول لهم — بأسلوبه الخاص به — إلى أين تذهبون ؟ وكان يتلاعب بأنفسهم — بأسلوبه الخاص به أيضاً — فيبكيهم أحر بكاء ويخرجون من عنده وهم لا يظنون الدنيا شيئاً — كما قال أحدهم — أى أنه كان ينسيهم كل شىء إلا الموت . وهنا يمكنك أن تقارن بين اخفاق خطيب مثل على بن

أبي طالب ونجاح خطيب كالحسن فى التأثير . والسر فى ذلك لا يرجع لطبيعة السامعين أو لاختلاف واسع فى المقدرة بين الرجلين ولكنه فى الموضوع قبل كل شيء . كان علي يدعو الناس إلى الجهاد — أى إلى الموت — وما يحب أحد أن يموت . وكان الحسن يذكر الناس أنهم سيموتون وكل الناس يحزنون ويبكون إذا تمثلوا هذه الحقيقة بوعى غير سادر وأدركوا معنى فراقهم للحياة . فبالموضوع أولاً أحزن الحسن الناس وأبكاهم حتى حول كثيراً من الخاطئين عن سبل الخطيئة وكون فى البصرة مدرسة لاهمّ لها إلا التذكير والتخويف ، وانبث تلامذته فى أنحاء المدينة يقصون ويخوفون حتى هلع الناس وكادت تنخلع قلوبهم . وذهبوا يشكون هؤلاء التلامذة للحسن فقال لمن شكا له : « إنك إن تخالط أقواما يخوفونك حتى يدركك الأمن خير لك من أن تصحب أقواما يؤمنونك حتى يدركك الخوف[1] » .

وكان التلامذة — فيما أرى — تنقصهم المقدرة الخطابية واللباقة فى العرض — وهما صفتان من صفات أستاذهم — كما كان يعوزهم قدر صالح من الاخلاص والتوفيق بين القول والعمل . وأنتجت مدرسة الحسن نتيجتين متناقضتين فجذبت اليها بعض الناس ودفعت بالبعض الآخر إلى الحياة وقد قال عبد الله بن عبد الأعلى يذكر الدنيا حين كان يودعها « دخلتها جاهلا وأقمت فيها حائراً وأخرجت منها كارها »[2] — كلمة من أصدق مايقوله شخص على فراش الموت وإن كرهها المتدينون . وعبد الله هذا كان من المقبلين على الحسن المسحورين ببيانه ولعله كان يحزن حزناً بالغاً إذا استمع إلى خطبه ولكن ذلك لم يمنعه من أن يحب الحياة ويأسى عليها

---

(١) البيان ٣/١٤٧ والاحياء ٤/١٦٢ (٢) البيان ٣/١٤٨

لأن الموت سيحرمه منها . والحسن وتلامذته مسئولون بسبب موضوع الموت الرهيب عن تحبيب الناس بالحياة وخلق طبقة تريد انتهاب اللذات قبل أن يحل الأجل المحتوم .

هذاهو الموضوع ، أما الأسلوب فإنه يقوم على مميزات ملائمة أظهرها الاندفاع في التعبير والاستناد إلى الحدة في اللفظ والتركيب وتتمثل هذه الخاصية في مثل قوله يذم يزيد بن المهلب « ياعجبا لفاسق من الفاسقين ومارق من المارقين غبر برهة من دهره ينهك لله في هؤلاء القوم كل حرمة ويركب فيهم كل معصية حتى إذا منعوه لماظة كان يتلمظها قال أنا لله غضبان فاغضبوا ونصب قصبا عليها خرق واتبعه رجراجة رعاع هباء ما لهم أفئدة »[1] فالحدة في هذا النص ظاهرة في الموسيقى العامة وفي ألفاظ الذم والتحقير مثل « فاسق ومارق ورجراجة رعاع هباء » وهي حدة صارخة تلازمه في أكثر حالاته ولذلك تجده يستعمل ألفاظا مثل « ألا إن علوجا أهل ربا وغلول . . . » وقوله في علي « امض قدما لا أبالك » أو ترديده كلمات : علج ولكع وفاسق وثكلته أمه إلى غير ذلك من ألفاظ تلائم مواقف التخويف والتعنيف .

ومن مظاهر هذه الحدة في أسلوبه إكثاره من صور الإغراء والتحذير والمفعول المطلق المحذوف العامل كقوله « ابن آدم جمعاً جمعاً سرطا سرطا ، جمعاً في وعاء وشداً في وكاء »[2] أو كقوله « رحم الله رجلا وعظ أخاه وأهله فقال يا أهلي صلاتكم صلاتكم زكاتكم زكاتكم جيرانكم جيرانكم اخوانكم إخوانكم »[3] ومنها : يا ابن آدم عملك عملك فإنما هو لحمك ودمك »[3]

---

(١) ابن خلكان ٣/٢٨١
(٢) أمالي المرتضى ١/١١٠
(٣) البيان ٣/١٢١ .

والأمثلة كثيرة فيما بقى من من خطبه .

ومن مظاهرها أيضاً استعانته بالقسم فى أكثر أقواله وأحاديثه ولقد يقسم فى مواضع لا داعى فيها للقسم . وقل أن تجد جملة لا يصدرها بقوله « والله » أو « والذى نفس الحسن بيده » ودخل عليه رجل وهو يقول : والله الذى لا إله إلا هو لتموتن والله الذى لا إله إلا هو لتبعثن والله الذى لا إله إلا هو لتحاسبن، فقال هذا حلاف[1] وينسجم مع هذه الحدة تلوينه الحديث تلويناً ساطعاً بالالتفات الجرىء الحاد فهو يتحدث للانسان مطلقاً وفجأة تجده أسرع إلى الالتفات فأخذ يذم أو يتأسف كأنما هو يخاطب شخصاً معيناً يقف أمامه . استمع إليه فى حدة التفاته وهو يتحدث عن الانسان الجشع فيقول : حتى إذا أخذته الكظة وتجشأ من البشم قال ياجارية هاتى حاطوماً . يا أحمق لا والله لن تهضم إلا دينك[2] أو كقوله يصف الزبير ابن العوام حين أخذ ينادى قاتله أجرنى أجرنى: « ياعجباً للزبير أخذ بحقوى أعرابى من بنى مجاشع . أجرنى . أجرنى . حتى قتل . والله ما كان له بقرن . أما والله لقد كنت فى ذمة منيعة »[3] .

ويستغل الحسن هذا التحول المفاجىء استغلالا بعيداً للتأثير ومن ثم بنى طريقته الخطابية على المفاجأة وحيث تكثر المفاجأة تجده أكثر من الحذف والاكتفاء بأقل قدر ممكن من الكلام ومن ثم تتحقق الرهبة التى يريد غرسها فى النفوس لأن كل كلمة تترك وراءها فضاء رهيباً يروده خيال السامع مرتعشاً خائفاً . ومن أوضح الأمثلة على ذلك قوله : أمتكم آخر الأمم ، وأنتم آخر أمتكم ، وقد أسرع بخياركم فماذا تنتظرون ؟ المعاينة ؟ فكأن قد . هيهات هيهات ! ذهبت الدنيا بحال بالها وبقيت الأعمال قلائد

(١) الحلية ٢/ ١٤٣
(٢) ابن سلام ص ٧٨
(٣) أمالى المرتضى ١/١٠٨
(٤) ابن سعد جـ ٣ القسم الأول ص٧٩

فى أعناقكم »(١) ومن هذا النسق قوله : « الوحى الوحى والنجاء النجاء . علام تعرجون ؟ أتيتم ورب الكعبة . قد أسرع بخياركم ، وأنتم كل يوم ترذلون . فماذا تنتظرون »(٢) . وبهذه الموسيقى المفزعة القصيرة النبرات المثيرة للدهشة كان الحسن يؤثر فى النفوس أشد التأثير . وهاتان المقطوعتان تدلان على مبلغ تأثر الحسن بالسور المكية فى القرآن .

ومع هذه الحدة كان الحسن لا يثير فى المخاطبين شيئاً من التحدى لأنه كان إذا وقف بينهم وجه الموعظة إلى الانسانية جميعاً ، لم يكن يخاطب هذا أو ذاك بل كان يخاطب الانسان أو « ابن آدم » فى كل مكان ؛ وقد أصبح توجيه الخطاب لابن آدم بدء كل موعظة عنده . ولم يكن يغفل فى هذا التعميم حقيقة أخرى تعطف القلوب على حكمته وهى معنى الرثاء لحال ابن آدم . إذ لم يكن الحسن دائماً معنفاً ثائرا بل كان يظهر عطفه على ابن آدم المسكين ويأسى لحاله وفى مثل قوله « مسكين ابن آدم مكتوم الأجل مكنون العلل . . » وقوله « مسكين ابن آدم رضى من دار حلالها حساب وحرامها عقاب » . . نجد إشفاقاً داخلياً عنده على الانسان الضعيف العاجز الذى يرمى عن قوس القدر فلا يستطيع دفاعا ، وبمثل هذه الأقوال المشحونة بالتعاطف والرثاء كان الحسن يجتذب اليه القلوب .

فإذا هدأ قليلا وغلب الوصف على حديثه استعان بالتفصيل والترديد وساق العبارة فى إطناب واسترسال . ووصفه لموت بشر به مروان ودفنه من أمثلة هذا اللون الهادىء المسهب « فوضعنا السرير فصلينا عليه ووضعوا صاحبهم فصلوا عليه ثم حملنا بشراً إلى قبره وحملوا صاحبهم إلى قبره

---

(١) البيان ٣/١١٨ والحلية ٢/١٤٣ — (٢) البيان ٣/١١٩

ودفنا بشرا ودفنوا صاحبهم . . إلخ »[١] وهذا الاسهاب يغلب على ماكتبه الحسن ، كرسائله المطولة فى ذم الدنيا ورسالته فى وصف الامام العادل. ولكن هذا الاسهاب يكشف عن محاولات فنية ساذجة لأن هذه الرسائل أشبه بالحديث العادى بعد أن فقدت مميزات الأسلوب الخطابى وليس للسن أثر فى هدوء أسلوبها لأن خطبه فى ثورة ابن المهلب تكشف عن قوة خطابية عنيفة رغم الشيخوخة ، وثورة ابن المهلب متأخرة فى الزمن عن هذه الرسائل ، وهذا قد يشير إلى أن قريحة الحسن لم تكن تتفتح عن نشاط حيوى إلا إذا غضب أو حزن حزناً عميقاً ، ولذلك تجده فى أشد حالاته حماسة ونشاطاً حين يتناول أقوال الآخرين أو أحوالهم بالتعليق لأن هذه الأقوال والأحوال كانت تستفزه فيندفع محتدا أو تحزنه فتستخرج أصدق ما فى نفسه من تأثر .

وقد ارتفع الحسن إلى مرتبة المتفنن الصحيح فى تلك الأقوال التصويرية التى كانت عصارة منتزعة من تجربته ومن اندماجه فى موضوعه وهى أقوال تتصف بالبراعة والابتكار كقوله فى المساكين « هؤلاء مناديل الخطأ[٢] » ، وقوله « فضح الموت الدنيا فلم يترك لذى لب فرحا[٣] » ، وقوله « ابن آدم إنما أنت عدد فإذا مضى يوم فقد مضى بعضك[٤] » ، وقوله « إن امرءاً ليس بينه وبين آدم إلا أب قد مات لمعرق فى الموت[٥] » . ومنها : يا ابن آدم السكين تحد والتنور يسجر والكبش يعتلف[٦] .

وأصبح الحسن بأسلوبه إماماً يحاكيه أهل عصره فتأثر به تلامذته فى

---

(١) البيان ٣/١٣٢
(٢) محاضرات الراغب ١/٢٤٢
(٣) البيان ٣/١٢١
(٤) المصدر نفسه ٣/١٣٢
(٥) المصدر نفسه ٣/١٥٥
(٦) الدميرى ١/٢٧١

الموضوع والأسلوب معاً ومن يقرأ مواعظ عمرو بن عبيد يتمثل فيها صورة الحسن واضحة الحدود . وتلك المقدرة البيانية التى اشتهر بها واصل ذات صلة بتأثير أستاذه القدير . وقد كان الحجاج نفسه يحاول أن يقلد الحسن فى الموضوع والطريقة . اسمعه يقول : إنا والله ماخلقنا للفناء وإنما خلقنا للبقاء وإنما ننقل من دار إلى دار [١] تجد فى قوله هذا أثر الحسن . وبينما يقول الحسن « اقدعوا هذه النفوس فإنها طلعة . . » نجد الحجاج يقول: اقدعوا هذه الأنفس فإنها أسأل شىء إذا أعطيت وأمنع شىء إذا سئلت [٢] .

ولما دخل عبيد الله بن الحسن العلوى على المهدى يعزيه تكلم بكلام أعجب الناس فأمر المهدى أحدهم أن يسأل محمد بن يزداد الكاتب من أين اتفق له هذا الكلام فكان من رأى ابن يزداد ـ الذى أيده عبيد الله نفسه ـ أن عبيد الله أخذ مواعظ الحسن البصرى ورسائل غيلان فلقح بينهما كلاما [٣] . أما رسائل غيلان التى لم تصلنا منها إلا نتف قليلة فقد رأى منها ابن النديم مجموعا فى نحو ألف ورقة [٤] . وأما مواعظ الحسن فلم تصل مجموعة أيضا ولكن ذكرها على هذا النحو يدل على أنها كانت مؤلفا يقرؤه الناس ويحاكونه فعبيد الله يستفيد منها مقلداً وابن يزداد يعرفها ويميز أسلوب الحسن منها .

(ب) الكرم :

عرف الحسن بالسخاء هو وصديقه ابن سيرين إلا أن الحسن كان

---

(١) البيان ٣/١٥١ (٢) اللسان مادة « قدع » .
(٣) البيان ١/٢٨٦ والجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١٤١ نشر الأستاذ مصطفى السقا
(٤) الفهرست ص ١١٧

يتميز بشدة إلحاحه فى الدعوة (١) . وكان ينفق الكثير فى الطعام حتى قال له أحدهم إنك تنفق من هذه الأطعمة وتكثر فقال له ليس فى الطعام سرف(٢) . ورووا عنه أنه لم يأكل وحده قط(٣) . وإذا كان لولاء الحسن تأثير فى هذه الناحية فإن هذا التأثير اختفى مع الزمن لأن هذا السخاء أصبح أساس المبادىء الزهدية فى حياته ، أى أصبح جزءا من مذهبه العام فى التخلى عن الدنيا وفى إذلال الدينار والدرهم . وأصبح فعلا يصدق به قوله « والله ما أعز أحد الدرهم إلا ذل »(٤) . وقوله : بئس الرفيقان الدرهم والدينار لاينفعانك حتى يفارقانك (٥) . وهو لم يكن غنياً ولكنه لم يكن يستبقى شيئا يقع فى يده . وعرفه إخوانه بهذا السخاء وأحبوه فكانوا يذهبون إلى بيته ويدخلونه وهو غائب ويتناولون ما يجدونه هنالك من طعام فاذا حضر الحسن ظهر السرور والارتياح على وجهه لأن الأخوة قد استطاعت أن تزيح الحرج من صدورهم . وإذا رأى أحدهم قد امتنع عن تناول الطعام قبل حضوره لامه لأنه باين بعمله ذاك شريعة الاخوان المتحابين (٦) .

ولابد من التفرقة بين هذه الروايات وروايات أخرى تصور الحسن جالسا فى السوق يأكل من متاع بقال تارة يأخذ من هذه الجونة وتارة من تلك فاذا ذكره أحد تلامذته أن فعله هذا مخالف لمبدأ الورع قال له : يالكع اتل علىّ آية الأكل فيتلوها وفيها إشارة إلى إباحة الأكل من عند الصديق (٧) . علينا أن نفرق بين هذين النوعين من الروايات فالأول يدل

(١) ابن سعد ١١٨/٧
(٢) عيون الأخبار ٢٣٤/٣
(٣) البخلاء ص١٥٣
(٤) تاريخ الذهبى ١٠٣/٤
(٥) المصدر نفسه
(٦) الاحياء ١٥٤/٢
(٧) الاحياء ٨/٢

على سخاء الحسن لإخوانه والثانى لايتفق ونفسيته العامة . وربما كان هذا النوع الثانى من وحى الحياة الصوفية التى أصبحت مؤسسة على الكدية .

(د) التدين :

وللشعور بالولاء يعزى اندفاع الحسن — أول الأمر — إلى أحضان الدين ففى ظله كان يجد عزاء عن كل ما حرمته الحياة — عزاء عن ذلك النسب الذى لم يجعل له فى الدائرة الاجتماعية مقاماً بارزاً وعزاء عن تلك القيود التى كان مستقبله فى الحياة يرتبط بها . وفى ظل الدين كان يرتاح لمعنى المساواة وبه استطاع أن يلفت إليه الأنظار ويطأ كبرياء الأمراء والحكام . وكان الدين والعلم يومئذ شيئين مترادفين فأخذ نفسه بطلب العلم — أى طلب الدين — ليحرز فى المجتمع المتعصب للدم العربى مكانة رفيعة . لقد أراد الحسن الدين للشهرة والمجد الدنيوى ولكن دوافع من نفسه وأخرى من الخارج نأت به بعيداً عن الغاية الدنيوية . ونحن نجهل بالضبط ما هى الحوادث المباشرة التى فتحت عينيه على معانى الزهد ولكن لاشك أن الرواسب النفسية التى خلفها مقتل عثمان وما أضيف إليها من ذكريات الحروب الشرقية وما اجتمع بعدها من عوامل الفناء كالطاعون الجارف الذى أصيبت به البصرة مرات — هذه الأحداث كلها تسلطت على نفسه الحساسة المرهفة ونبهت فيه شعور الرجل العاطفى ، وبينما كانت الأحداث الطبيعية من حريق وفيضان وطاعون آخذة بخناق الحياة الإنسانية كان المسلمون يتقاتلون فيما بينهم على الزعامة . وتلقى الحسن هذه المؤثرات تلقياً جاداً فتولد من ذلك شعوره بضعف الإنسان وتفاهة دنياه . وأريد أن أضيف إلى هذه العوامل الخارجية عاملا آخر — أريد أن أفترض أن

الحسن وقع عن دابتـه فى قريب من هذا التاريخ وكان فتى جميلا معتزا بجماله وفى سقطته تشوه أنفه تشوهاً لم تمحه الأيام وكانت الصدمة قاسية والأثر عميقا ونظر الشاب المصاب فأدرك أن الشباب والسرور والمتعة والجمال ، كل ذلك باطل فزهد فيما بين يديه .

وقد ذكرت من قبل أن الحسن لحظ هذا التغير وأدرك أنه أراد الدين لغايات دنيوية فأبى إلا أن يقوده إلى الآخرة ، وبعد أن كان يريد أن يصبح بالدين « عربياً » مشهورا لم يعد يبه لذلك لأنه أصبح يرنو إلى رتبة « المؤمن » والإيمان شيئان علم وعمل أما الأول فقد أحرزه وأما الثانى فليجهد وراءه .

(٣)
الشخصية الزاهدة ومظاهرها

وشب منذ طفولته على النظر إلى « مثل أعلى » ولعله كان فى مبدأ أمره يتمثله فى عمر . وبعد حين من الزمن لم يعد مثله الأعلى شخصاً معيناً بل أصبح عاملا مشتركا بين جميع الفاضلين الأتقياء وذلك العامل المشترك هو « الشخصية الزاهدة » فهى تتمثل له فى الأنبياء والحكماء والصحابة وأساتذته الزهاد . وسيطرت هذه الشخصية على كل ناحية من نواحى تفكيره فأصبح لا يرى فى أهل الفضل إلا صفة الزهد لأنها رأس الفضائل جميعا ؛ حتى سليمان صاحب الملك العريض والنعمة السابغة كان زاهداً لأنه « كان يأكل خبز الشعير فى خاصته ويطعم أهله الخشكار والناسَ الدرمْك فإذا جنّه الليل لبس المسوح وغل اليد إلى العنق وبات باكيا حتى يصبح ، يأكل الخشن من الطعام ويلبس الشعر من الثياب »[1] . ويعقوب لما جاءه البشير وألقى القميص على وجهه لم يكن لديه ما يكافئه به لشدة فقره وزهده[2] وعلى هذا

(١) الحلية ٢/١٣٧ (٢) تفسير القرطبى ٩/٢٦١

جرى الحسن في نظرته إلى الصحابة فذكر زهدهم وقناعتهم بالقليل وأعرض عن ذكر الأغنياء منهم وأكثر التحدث عن عمر وسلمان وعن الولاة المتقشفين الذين استعان بهم عمر في إدارة الدولة الاسلامية . وكان لأخذه بعناصر الشخصية الزاهدة آثار حكمت شخصيته إلى حد بعيد :

١ — مبدأ عدم التناقض : فانه حين أخذ نفسه بحدود الشخصية الزاهدة لم يمض عليه أجل طويل حتى أصبح عالماً عاملا ، قوالا فعالا معاً ودهش الناس لهذا الذي لا يخالف قوله فعله وسره علانيته وهذا هو سر شخصية الحسن كما عرفها معاصروه — مبدأ عدم التناقض في الداخل والخارج أو بذل أقصى جهد مستطاع في محاولة عدم التناقض . وقد اهتدى أحدهم إلى هذه الحقيقة الكبرى في شخصيته حين وصفه بقوله : « أشبه الناس سريرة بعلانية وأشبه قولا بفعل . إن قعد على أمر قام به وإن قام على أمر قعد به وإن أمر بأمر كان أعمل الناس به وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له »[١] ومن الطريف أن تسمع الحسن يثني على من يعجبه من الناس بهذه الصفة فيه — دون سائر الصفات —[٢] . ذلك لأنه حين اتخذ المثل الأعلى — الشخصية الزاهدة — مرآة ينظر فيها إلى نفسه ، خلق من نفسه مرآة جديدة تنعكس عليها أعمال الناس وأخلاقهم . فإذا قلت إن الحسن ينتقد الأشياء من خلال المرآة العامة أو من خلال المرآة الخاصة كنت في القولين مصيبا . وإن سمعت الحسن يصف المؤمن أو يعرف الفقيه أو الزاهد فانت حر في أن تعتقد أنه يقيس الأشياء بالمقياس الذاتي أو بالموضوعي لأن الاثنين عنده قد كادا يتحدان . وما نستطيع أن نعدم الذاتية عند الحسن تماما لأنه كان من خلالها يرى ويحكم في أحايين . ولما سمع قاصا في مجلسه ولم يتأثر قال له :

(١) الحلية ٢/١٤٧ وتاريخ الذهبي ٤/١٠٣ .

(٢) انظر ثناء الحسن على عمرو بن عبيد في تاريخ بغداد ١٢/١٧٠ وفي الكواكب الدرية الورقة ٩٩

إما أن يكون بقلبك شر ، أو بقلبي (١) . وتفسير هذا أنه كان قد استمرأ من القصص ما يحسنه هو وكل ماعداه مما لم يمر من خلايا ذاته لاتهتز له نفسه وهو لا يحس — مهما يطل فى موعظته — أن الناس بحاجة إلى الراحة وأنهم قد يملّـون ، ولـكنه لما رأى غيره يقص قال له : لقد شققت على أصحابك . فأجابه القاص ذو اللسان الذلق : ما أرى عيونهم انفقأت ولا ظهورهم اندقت والله يأمرنا ياحسن أن نذكره كثيراً وأنت تأمرنا أن نذكره قليلا . كلا لاتطعه واسجد واقترب ، وسجد القاص ، وترك الحسن حائراً مبهوتاً(٢) .

وإذا قلنا إن الحسن أخذ نفسه بمبدأ عـدم التناقض لم يصح أن ننفى عنه التناقض نفياً قاطعاً . وفى نفسيته مجال للتناقض الدقيق . فهو فى الداخل رجل عاطفى رقيق الشعور يبكى إذا سمع آية من القرآن حتى تخضل لحيته وإذا واجهه أحد بإساءة تمس مبدأه بكى ، ويحدث الناس حديث الجذع الذى حنّ فيبكى ومع ذلك فإنه يريد أن يظهر معتدل العاطفة — ينصح الناس أن يحبوا باعتدال (٢) وهو إذا لقى صديقاً عانقه بشدة (٣) وإذا سافر صديقه ودعه وعيناه تهملان . (٤) ينصح الناس ألا يظهروا الجزع على من يموت من أهلهم فاذا مات أخوه ملـكه الحزن وغمر وجهه ونبراته وأبى أن يسمى هذا جزعا . وهو شديد الغضب كثير الإطراء للحلم وسعة الصدر . لطيف إذا ناداه خادمه أجابه لبيك (٥) ثم يكون فى قاموسه ألفاظ مثل : فاسق . علج لكع . لا أبالك . . . الخ .

---

(١) البيان ١/٩٨
(٢) الحلية ٢/٢٤٦ وتاريخ الذهبى ٢/٦٨٣
(٣) عيون الأخبار ٣/٩ ، ١٠
(٤) تاريخ الذهبى ٤/٣٠٥
(٥) عيون الأخبار ٣/ ٣٢
(٦) العقد ٢/٤٢٦

ب — التحكم فى الشعور .

هذا الاختلاف بين المشاعر الداخلية والقاعدة الخارجية ، كلف الحسن جهداً لا يضطلع به إلا المجاهدون . فقد ضغط أنواعاً من الشعور الداخلى وأبى لها أن تتسرب مخافة أن يخالف القاعدة الكبرى فيقع فى تناقض . ضغط الميل إلى السرور فبقى ثلاثين سنة لا يضحك[١] فإذا سمع ما يضحك ابتسم ابتسامة عارضة لا تلبث أن تختفى[٢] . وأوثق بعض الرغبات النفسية التى كان يريد شبابه لها أن تنبعث حرة طليقة وأوكأ النسيان لا على الشهوات وحدها بل على الحس بجمال الطبيعة فإذا أصحر لم يلتفت إلى شىء إلا أن يكون منسجما مع المبدأ الكبير[٣] ، وخنق صوت العاطفة حين كان يجد بعض مظاهر العاطفة متعارضاً مع مبدئه فلم يسمح بالشفقة أن تظهر فى مواقف تستحق الشفقة لأن ظهورها يخدش وجه المبدأ ، شكا إليه أحدهم ضيقاً فقال له : شكوت من يرحمك إلى من لا يرحمك[٤] . وجاءه آخر يشكو اليه سوء الحال وجعل يبكى فقال الحسن : يا هذا أكل هذا اهتماماً بأمر الدنيا والله لو كانت الدنيا كلها لعبد فسلبها ما رأيتها أهلا لأن يبكى عليها[٥] . وكان يطرد الشحاذين من باب الجامع يوم الجمعة لأن وقوفهم يتعارض مع رأيه الفقهى[٦] . ولم يظهر عطفاً على رجل ماتت زوجته فحزن لفقدها وتوجع[٧] .

ومن السهل أن نتصور كيف كانت عائلته — بعد نفسه — تتذوق

---

(١) الاحياء ٣/١١١
(٢) المصدر نفسه ٣/٢٨٣
(٣) محاضرات الراغب ١/١٥٤
(٤) محاضرات الراغب ١/٢٥٩
(٥) المصدر نفسه ٢٤٩
(٦) عيون الأخبار ٣/١٨٧
(٧) البيان ٣/١٦١

مرارة المبدأ الصارم . حقاً إنه كان إذا دخل البيت قال لأهله السلام عليكم[١] ولكن هذا اللطف لا يغنى شيئاً عن عائلة يفرق ربها المال على المحتاجين إذا تحصل ويسخو سخاء لا يبقى على شيء ، ويأبى ان يزوج ابنته من رجل غنى ويرفض أن يستغل الأرض التى توزعها الدولة على الناس — لأن كل ذلك يتعارض مع ما يفهمه من معنى الزهد .

ونتصوره أيضاً قد ضرب الأسداد بينه وبين جمال المرأة ولذلك نريد ألا نقبل تلك الروايات التى تنسب اليه تصريحاً بإعجابه بها فلا نصدق انه قال النظر الى الوجه الجميل عبادة[٢] ، لا لأن هذا يعترض مع مبدأ النظر الى المرأة بل لأن انواع الرياضة التى أقبل عليها كانت تحول بينه وبين المتعة الجمالية ، وفى رواية أخرى ان امرأة دخلت عليه فقالت له يا أبا سعيد أتفتى الرجال أن يتزوجوا على نسائهم قال نعم فقالت أعلى مثلى؟ وكشفت قناعها عن وجه كالقمر فقال الحسن لما ولت : ما على رجل مثلُ هذه فى زاوية بيته ما أقبل عليه من الدنيا وما أدبر[٣] . فهذه الرواية تذهب بخيرها وشرها دون أن يكون للحسن فيها نصيب لأنها تستبيح من نفسيته حرماً مقدساً وتصور نوعاً من التمنيات الباطلة كان يترفع عنه .

وهكذا مضى الحسن يقضى بالحبس على كثير مما كان يتمنى أن يرى الشمس مخافة ان يقع فى تناقض ، غير أن المحبوسات المتطلعة إلى الحرية كانت تحاول ان تنفلت هاربة من سجنها الضيق وتتحين لهربها اشتداد الأزمة فى الصراع بين الداخل والخارج ، تلك الأزمة التى يمكن أن نراها فى الغضب . وقد كان الحسن فى حالات الغضب على خير أحواله صفاء ذهن

---

(١) ابن سعد ٣/١٨٧

(٢) محاضرات الراغب ٢/٤٩

(٣) المصدر نفسه ٢/٨٨

وقدرة على تصريف القول حتى ليقول أحد تلامذته « ما كنا نأخذ علم الحسن إلا عند الغضب »[1] . وفى ثنايا الألفاظ الحادة — التى قدمت لها الأمثلة من قبل — كان الحسن يتوارى من لفح المواصف الداخلية ، كما كان يكثر من التلميح ، ويقدم أمامه سوء الظن ومن ثم تسمعه يقول : « احترسوا من الناس بسوء الظن »[2] . واعتقد لذلك أن الرجل الحليم معدوم إطلاقاً ، وان الحلم فضيلة ولكن من ذا الذى يستطيعه ؟ ألم يقل صديقه وأستاذه الأحنف إنه ليس بحليم وإنما يتحالم ؟ وتحالم الحسن ايضاً أى حاول ان يسكت صوت الغضب الهادر فى نفسه بالقوة ؛ لحقه مرة رجل وجعل يشتمه فقال له : أما انت فما ابقيت شيئاً وما يعلم الله اكثر[3]

(ح) الالتفات الى الماضى ، والمحافظة :

وكان ذكيا ولكنه لم يسمح لذكائه بالحرية الكاملة بل ربطه إلى عجلة المثل الأعلى فحيثما دار المثل الأعلى تحرك ذكاؤه ولذلك التفت إلى الماضى بكل ملكاته وعاش يستنشق النسمات الاولى التى أحبها فى وادى القرى وفى المدينة وغاب فى ثنايا الماضى وأكثر من الحديث عنه وقاس به واقعه المحيط به . وطغى الماضى — كما تصوره — على نفسيته ومشاعره طغياناً جعله يتطلع إلى مثالية صعبة المنال واستعاض عن ذكريات الشباب التى تبهر النفس الشاعرة بذكرياته بين الصالحين فى فترة شبابه ومن تلك الصلة القوية بينه وبين ماضيه فى البيئة الصالحة الصحابية وجد طريقه إلى القلوب فنقل علم المدينة إلى البصرة وأحيا فى المجتمع البصرى شخصيات المدينة وأقبل الناس

---

(١) ابن سعد ٧/١٢٤ (٢) المصدر نفسه ٧/١٦٩

(٣) عيون الأخبار ١/٢٨٧ ومحاضرات الراغب ١/١٨٦ .

عليه لأنهم وجدوه بقية من عهد نورانى . كيف كان الناس الذين عاشرهم ؟ هذا الإطار من الذكريات هو الذى أبرز فيه حقائق الزهد لمعاصريه :

١ — والله لقد أدركت سبعين بدرياً لو رأيتموهم لقلتم مجانين ولو رأوا خياركم لقالوا ما لهؤلاء من خلاق ولو رأوا شراركم لقالوا ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب . والله لقد كانت الدنيا أهون عليهم من التراب الذى تمشون عليه ما يبالون أشرقت الدنيا أم غربت ذهبت إلى ذا أو ذهبت إلى ذا . ولقد رأيت أقواماً يمسى أحدهم وما يجد عنده إلا قوتا فيقول لا أجعل هذا كله فى بطنى لأجعلن بعضه لله عز وجل فيتصدق ببعضه وإن كان هو أحوج ممن يتصدق به عليه[١] .

٢ — والله لقد أدركت أقواماً ما طوى لأحدهم فى بيته ثوب قط ولا أمر فى أهله بصنعة طعام قط وما جعل بينه وبين الأرض شيئا وإن كان أحدهم ليقول لوددت أنى أكلت أكلة فى جوفى مثل الآجرة . الخ[٢]

٣ — لقيت أقواماً كانوا فيما أحل الله لهم أزهد منكم فيما حرم الله عليكم وصحبت أقواماً كان أحدهم يأكل على الأرض وينام على الأرض منهم صفوان بن محرز[٣] .

٤ — لقد صحبت أقواماً إن كان أحدهم لتعرض له الحكمة لو نطق بها لنفعته ونفعت أصحابه وما يمنعه منها إلا مخافة الشهرة وإن كان أحدهم ليمر فيرى الأذى فى الطريق فما يمنعه أن ينحيه إلا مخافة الشهرة[٤] .

٥ — لقد أدركت أقواماً كانوا آمر الناس بالمعروف وآخذهم به

(١) الاحياء ٣/١٨١ والحلية ٢/١٣٤ بالمزج بين النصين .
(٢) الحلية ٢/١٤٦ .
(٣) تاريخ الذهبى ٤/١٤ .
(٤) الاحياء ٣/ ٢٥٦ .

وأنهى الناس عن منكر وأتركهم له ولقد بقينا فى أقوام آمر الناس بالمعروف وأبعدهم منه وأنهى الناس عن المنكر وأوقعهم فيه فكيف الحياة مع هؤلاء[١] .

الزهد بالتقلل والسخاء وعدم التناقض فى القول والعمل وبغض الشهرة هذه هى الصفات التى تسمى الماضى فى نظره ، أما هو نفسه فقد شاء له الاتباع الدقيق أن يصبح — إن صح التعبير — « صحابياً » فى دنيا التابعين إذ لم يكفه التعلق بالسنة وحث الناس عليها بل تشربها بروحه ولبسها فى مظهره وحاكاها فى كلامه وأغرق حتى قارب عند الناس الأنبياء . « كأن سمة سمت المسيح . . كنبى أقام فى قومه ستين سنة . . . كلامه يشبه كلام الأنبياء » كل هذه الأقوال رددها معاصروه إذ كادت تعز التفرقة بين الأصل والحكاية . وكان العالم الكبير — فى عصره — هو الذى يستطيع أن يحيى فى النفوس ما كاد يندثر مع الزمن ، والحاكم الحقيق هو الذى يستمد من الماضى أساليبه وكان حبل الزمن يلتف بالناس وهم يجذبونه إلى الوراء ولولا أنه أقوى منهم لا نقطع ولذلك اقتطع الحسن الماضى القريب وطبقه على حاضره فلم يترك ثغرة لبدعة جريئة . وقال أحد عارفيه : «ما رأيت أشبه رأياً بعمر بن الخطاب منه » ، وقال آخر : « ما رأيت رجلا قط لم يصحب النبى أشبه برسول الله (ص) من هذا الشيخ » وقال ثالث لو أن الحسن أدرك أصحاب رسول الله (ص) لاحتاجوا إلى رأيه[٢] ، هو ذو رأى لأنه ذو ذكاء أصيل ولكن ذكاءه لمح الحواجز التى تقام دونه فاشتد نشاطه واحتد وكان لا يفتر عن التفجر بالحيوية فى دائرة مقفلة .

---

(١) الحلية ٢/١٥٥ .

(٢) ابن سعد ٧/١١٧ — ١١٨ .

واتسمت شخصيته بالمحافظة ، ولكن الذكاء الأصيل جعلها محافظة متعقلة فكان يعادى كل شىء جديد فى البدء ويقابله بكره لاسلطان له عليه ويسمى الجديد بدعة وينصب لها شهاباً رصداً من ذكائه وقدرته الخطابية ويقابلها فى توجس فإذا اطمأن إليها قبلها . كره أن تنقط المصاحف وقال جردوا القرآن ولا تلبسوه بشىء ثم تحقق الفائدة من النقط فسمح بها (١) . وكره بيع المصاحف ثم ظل تلميذاه مطر الوراق ومالك بن دينار يجادلانه فيه حتى أفتى بجواز البيع (٢) . وقابل أخذ المعلم للأجر بامتعاض ثم رأى الحياة من حوله تتطلب التغير فنزل عن رأيه (٣) . هذا موقفه من أمور كانت تجد أما مامضى فيه حكم فهو قاطع لايسمح بإثارة التساؤل من حوله . سمع فى صباه عثمان يقول : اقتلوا الكلاب فلم ينزل عن هذا الرأى طيلة حياته حتى إن رجلا جاء يستأذنه فى اقتناء كلب لأن داره معورة فقال لا . لا (٤) . وعدّ من البدعة التى لاضرورة لها قول الناس فى عصره حين يسلمون على بعضهم كيف أنت أصلحك الله، كيف أصبحت عافاك الله بدلا من قول السلام عليكم (٥) . وشدد النهى عن مجالسة أهل الأهواء وخاصة الخوارج بل نهى عن اجتماع قوم من أهل السنة يقرأون القرآن خوفاً من أن يجر اجتماعهم إلى هوى جديد أو بدعة جديدة (٦) .

(د) الخوف والحزن :

ولولا أن الحسن أخضع نفسه لمثل اعلى منتزع من الدين لكان من

---

(١) ابو داود السجستانى : كتاب المصاحف ص ١٤٠ نشر آرثر جفرى .
(٢) المصدر السابق ص ١٧٧ . (٣) ابن سعد ٧/١٢٨ .
(٤) الحيوان للجاحظ ١/٢٩٣ . (٥) الاحياء ٢/ ٢٠٥ .
(٦) الإعتصام ٢/٢٥ .

اكثر الناس مسايرة للواقع الاجتماعى ومتطلبات الحياة المتجددة وكثيراً ما استمد من الدين مفهومات لاتتعارض مع الواقع العملى، وصلته بالدولة وثورته على الثورة من هذا القبيل، ومن هنا نفهم لم اصبحت التقية ضرورة لازمة فى حياته، لتخفف من حدة الاصطدام بين المثال والواقع ولم تكن لتصبح كذلك لولا نغمة من الاعتدال كان يسمعها بين حين وحين من وعيه المتنبه ولولا خوفه من الموت — وهو اعتدال فى فهم معنى الاستشهاد. فهذا الخوف قد صبغ مذهبه وحياته ولون طريقة تناوله للأحكام وجعل مقياسه يختل بعض اختلال فهو فى الدوائر الشعبية شجاع مغامر يسأله وكيع بن أبي سود — مثلا — عن دم البرغوث إذا وقع على الثوب أيصلى فيه فيقول له يا عجباً ممن يلغ فى دماء المسلمين كأنه كلب ثم يسأل عن دم البراغيث[١]. وهو فى «المقامات العليا» مشير ناصح إذا وثق من السلامة عزوف مكتف بنفسه إذا ذكر حد السيف. وليس يعيب الحسن الانسان أن يخاف الموت فذلك دليل على يقظة عقله واعتداله فى النظر إلى الأمور ولكن الحسن المثالى شيء آخر؛ وقد كان يخشى الموت خشية واضحة وما نعلم ما هى الذكريات الأولى التى جعلت هذا الخوف فى دمه وأعصابه شبيهاً بالمرض — كان إذا رجع من جنازة لزم بيته وحمد الله انه لم يكن السواد المختطف ولا يحدث فى ذلك اليوم شيئا[٢]. وكان تلامذته لا ينتفعون به إذا عاد مريضا مدة يوم وليلة أما إذا شيع جنازة فلم يكن ينتفع به أهله وولده وإخوانه ثلاثاً[٣] وكان يمكث اياماً لا يذوق طعاماً ولا شراباً ولا يراه الناس إلا منتحباً باكياً وكان بتشييعه للجنائز يحاول أن يقهر ذلك المرض ويروض نفسه على التحديق فى الحفرة المظلمة ولكن عمله هذا زاده إرهافاً وظلت نفسه

---

(١) كتاب الحيوان ٢٢٥/١ .　(٢) ابن سعد ١٢٩/٧ .
(٣) عيون الأخبار ٣٦٢/٢ .

تهتز فرقاً من الموت حتى النهاية ، وزاد من خوفه إشفاقه من العذاب الذى تجره الخطيئة وهكذا خاف الخطيئة وخاف العذاب وخاف الموت واتحدت المخاوف كلها عنده تحت عنوان الخوف من الله . وبنى مبادئه فى الحياة على التخويف لأنه عاش فى قبضة الموت فانقطع عنده الأمن حتى انه سمع حديث من يخرج من النار بعد ألف عام فقال يا ليتنى كنت ذلك الرجل(١) . وكان إذا قيل له امؤمن انت قال إن شاء الله ولم يقل نعم لأنه يخاف أن يجيب بها فيقول الله سبحانه كذبت يا حسن(٢) .

وتستطيع أن تصف الحسن بأنه كان نذيراً فى اغلب احواله ، ألقى على الرجاء ذيلا من التغاضى ، وبدا للناس خائفاً محزوناً ، «تراه إذا اقبل فكأنما أقبل من دفن حميمه وإذا جلس فكأنه أسير قد أمر بضرب عنقه وإذا ذكرت النار فكأنها لم تخلق إلا له »(٣) وما رآه احد إلا ظنه حديث عهد بمصيبة(٤) ، وقد يكون وحده يمص الماء او يتمضمض فما يشعر الناس إلا ودموعه تسيل على وجنتيه ويرتعد حتى يهتز منكباه ويتنفس تنفسا شديدا(٥) وإذا جلس اتخذ هيئة الحزين فافترش ظاهر كفه بذقنه(٦) وعلينا ان نصدق الحسن حين يربط بين حزنه وبين القرآن فى قوله : والله لا يؤمن عبد بهذا القرآن إلا حزن وذبل وإلا نصب وذاب وإلا تعب(٦) ، وفى قوله : والله يا ابن آدم لئن قرأت القرآن ثم آمنت به ليطولن فى الدنيا حزنك وليشتدن فى الدنيا خوفك وليكثرن فى الدنيا بكاؤك(٧) . غير أن القرآن

---

(١) الاحياء ٢٣/٤ ، ١٦٣ .

(٢) الاحياء ١٠٨/١ .

(٣) البيان ١٥٤/٣ .

(٤) الحلية ١٣٣/٢ وتاريخ الذهبى ١٠٣/٤

(٥) الحلية ١٤٣/٢ .

(٦) الكامل ٨٨/١ .

(٧) الحلية ١/ ١٣٤.

(٨) المصدر السابق .

وعد ووعيد ، وجنوح الحسن إلى التأثر بآيات الوعيد تأثراً عنيفاً يدل على استعداد خاص فى نفسيته .

ولذلك أراد للمجتمع من حوله أن يؤمن بالقرآن أى أن يحزن ويذبل ويشتد بكاؤه ويطول عبوسه وكان المجتمع البصرى يتمنى لو يستسلم إلى ضحك طويل فقد فرضت عليه السياسة ظلا ثقيلا من العبوس ، فزياد ضحك مرة أو مرتين والحجاج الصارم العابس يفتش عن صاحب شرطة طويل العبوس [١] . ونشر الزهد على المجتمع ثوباً من الحداد فآلى غزوان الرقاشى ألا يضحك [٢] وحرمت معاذة على نفسها الضحك [٣] ، واستسلم الحسن وتلامذته — مثل محمد بن [٤] واسع — للحزن الطويل ، وغيرهم كثيرون . وذهب الحسن إلى أبعد من ذلك حين أخذ ينكر على الناس ضحكهم فى يوم عيد [٥] .

(٤)
شخصية المعلم

لم يكن الحسن انطوائياً فى شخصيته ولو كان كذلك لاعتزل الناس وقنع بما قنع به غيره من الزهاد المنقطعين إلى إصلاح نفوسهم ولكنه لم يعتزل الحياة لأنه لم يكن يخافها على نفسه ولم يعتزل الناس لأنه لم يكن يخافهم أيضا . وقد اعتقد منذ البدء أنه قادر على أن يقدم لهم خيرا وهذا الشعور يتمثل فى قوله « إن رأينا خير لهم من رأيهم لأنفسهم » [٦] وكان إخلاصه — من

---

(١) محاضرات الراغب ١/ ٨٠ . (٢) تاريخ الذهبى ٤/ ٤٤ .
(٣) محاضرات الراغب ١/ ١٣٧ . (٤) الاحياء ٣/ ١١١ .
(٥) انظر زهر الآداب ٢/ ٢٨٤ والكامل للمبرد ١/ ٨٩ والعقد ٣/ ١٩٩ .
(٦) ابن سعد ٧/ ١٢٠

وراء المبدأ — يسرى إلى الناس فيتنبهون على قيمته من طريق الحماسة المتدفقة على لسانه . وكان فى الحلقة الضيقة يحسن اجتذاب الاخوان والتلامذة ويقدس روابط الأخاء «إخواننا أحب إلينا من أهلنا وأولادنا لأن أهلنا يذكروننا بالدنيا وإخواننا يذكروننا بالآخرة» [١] . أما فى الحلقة الواسعة فكان قادراً على أن يملك الانتباه . وأحس بوجوده فى تلامذته وأتباعه فلم يستطع أن يعتزل الحياة وكانت عاطفته تصور له الأمرين معا فهو فى بعض حالاته يتمنى لو استطاع أن يكف عن التحدث اليهم ثم يكون عزاؤه أن يذكر الميثاق الذى أخذ على العلماء [٢] . وإذا ثقل عليه الناس وأحس بالضيق منهم أجبر نفسه على أن تتحمل لأن له لذة خاصة فى رؤية الأتباع من حوله . ومنذ أن تصدر للافتاء والقصص كان يحس فى نفسه شخصية المعلم وظل معلما إلى آخر يوم فى حياته . وعرف بين تلامذته بالأستاذ وذكره إياس بن معاوية فقال هو معلمى ومعلم أبى [٣] وارتفعت قيمة اللفظة فى نفسه فضن بها على الحجاج حين لم يقل إنه كان معلماً بالطائف بل قال إنه كان مكتبا [٤] ومضى المعلم فيه يبنى للناس القواعد النظرية واجداً السند المعنوى من دقته فى تطبيقها على نفسه حتى أصبح يجد لنفسه الحق أن يمنع عمليا ما يراه مخالفا لمبادئه فاذا رأى رجلا يتبختر فى مشيته استوقفه ووبخه وإذا رأى صاحب أمر يشتط فى تطبيق الحدود مضى إليه ينصحه وإذا رأى عالما يستغل علمه للدنيا زجره . ومر ذات يوم برجل يُقَاد منه فقال للولى : ياعبد الله إنك لاندرى لعل هذا قتل وليك وهو لا يريد قتله وأنت تقتله متعمداً فانظر لنفسك فقال الرجل: قد تركته لله [٥] وأصبح الناس

(١) الاحياء ٢/١٥٥ (٢) ابن سعد ٧/١١٥ . (٣) عيون الأخبار ١/٦٢ .
(٤) انظر تاج العروس مادة كتب . (٥) عيون الأخبار ١/١٠٤ .

يرجعون اليه فى أمورهم أحيانا ويسألونه احيانا أخرى قضاء حوائجهم فيخف لمساعدتهم . استعان به رجل فى حاجة فخرج معه فقال الرجل إنى استعنت بابن سيرين وفرقد فقالا حتى نشهد الجنازة ثم نخرج معك فقال الحسن أما إنهما لو مشيا معك لكان خيرا[١] وبهذه المبادرة إلى المساعدة اتسع تأثيره واصبحت الجماهير تطيعه وتخشى مخالفته أو تكرهها . ولما شعر بنجاحه فى الجماهير لم يقف عند حد لأنه كان يريد تحويل القلوب عن الدنيا وصهر النفوس ليصبح الناس جميعا كالحسن البصرى فإذا ضج الناس بالبكاء من موعظته نظر إليهم مستزيداً لا يقنع ثم يقول : عجيج كعجيج النساء ولا عزم، وخدعة كخدعة إخوة يوسف إذ جاءوا أباهم عشاء يبكون[٢] .

وكانت هذه الأستاذية — من ناحية أخرى — شاقة عسيرة لأنها عرضته للناس فى ظل المبدأ وفرضت عليه ألا يخرج عنه قيد شعرة فكان يأمر وينهى ، ونفسه أول مأمور ومنهى . وزادت هذه الأستاذية من إحساسه بضرورة الانسجام الكامل بين الداخل والخارج ، بين القلب واللسان ، والعلم والعمل فأصبح شديد الخوف من التناقض لأن كل تناقض نفاق حتى أشفق من أن يصحبه تلميذه إلى مكة مخافة أن يرى أحدهما من الآخر مايتماقتان عليه[٣] . وكان خوفه فى الأكثر أن يبدو لتلميذه منه شىء يخالف القواعد التى كان يبثها فى أتباعه ، ولو أقل مخالفة .

وزاد الأمر مشقة أن الحسن ذهب مع مقدرته البيانية إلى نهايتها فلم يعد يحسن الصمت . وبكثرة الحديث تكثر الموعظة وتطول المبادىء وتعرض ويزداد العبء ثقلا على من التزم التوفيق بين القول والعمل

(١) ابن سعد ١٢٣/٧ .
(٢) عيون الأخبار ٢٩٦/٢ .
(٣) المصدر نفسه ١٣٦/١

(وهو نفسه يقول من كثر كلامه كثر كذبه)[١]. ولم يترك إلا مجالا ضيقا للصمت والتأمل وغدا المستمعون يقبلون عليه طالبين الإفتاء فى أمور دينهم ودنياهم فلا يمهل الجواب يوماً أو ساعة ومن ثم اضطرته المبادرة المتحمسة إلى أجوبة ملتوية قال له أحدهم يا أبا سعيد إن لى جارية حسنة الصوت لو علمتها الغناء لعلى آخذ بها من مال هؤلاء فقال الحسن : إن اسماعيل كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا[٢]. والجواب ملتو لأنه ليس فيه نهى صريح عن الغناء. وجاءه رجل يخبره أنه طلق امرأته ثلاثاً فقال له إنك قد عصيت ربك وبانت منك فقال الرجل قضى الله ذلك على؟ قال ما قضى الله ذلك (أى ما أمر به) وتلا الآية «وقضى ربك ألا تعبدو إلا أياه»[٣].

وأصبح لا يخلو إلى نفسه إلا ليستريح فى القيلولة أو حين يتهجد ليلا وفى هذه الساعات لم يتخذ التأمل الصامت السابح فى ملكوت السموات والأرض عدته بل كان يجرد نفسه قدامه ويتحدث إليها لائماً معنفاً. كان يريد من يتكلم إليه دائماً لأنه لم يعد يطيق الصمت الرهيب فتصور تلوم المؤمن على شكل حديث مجهور يقول فيه المؤمن لنفسه : ماذا أردت بهذا، والله لا أعذر بهذا .. الخ ولما ذهب الشعبى ليزوره ودو فى مكة وجده يدور فى أنحاء البيت وهو يتكلم إلى نفسه بصوت مرتفع. ولما جلس وحده مفترشاً ذقنه بظاهر كفه كان يقول بصوت عال : «يا عجباً لقوم قد أمروا بالزاد وأوذنوا بالرحيل وأقام أولهم على آخرهم فليت شعرى ما الذى ينتظرون»[٤].

---

(١) الاحياء ٣/٩٩.
(٢) سنن البيهقى ١٠/٢٢٦.
(٣) تفسير القرطبى ١٠/٢٣٨.
(٤) الكامل ١/٨٨.

(٥)

عمق التجربة

وفى الإفتاء والقضاء ومجالس الوعظ والتدريس وجد الحسن مجالا للتجربة فعرف شيئاً عن أخلاق الناس وطباعهم ومعاملاتهم وبنى بعض أحكامه على ما وقع فيه من ظروف وملابسات ، غير أن الجانب النظرى فى تجربته ظل مسيطراً على الجزء الأكبر من تفكيره وآرائه ، فإن رجلاً فى ملكات الحسن لا بد أن يشغله التأثير الخطابى عن دراسة الناس ويصرفه إلى محاولة التأثير فهو معنىٌّ بالصفحة التى تبدو للعيون من نفسه وبالمبدأ الكبير الذى يريد أن يبثه فى الجماهير . أما التعمق فى دراسة الحياة وجوانبها العملية فقلما يصيبه من يعيشون فى غمار التيار الاجتماعى مأخوذين بسحر أنفسهم وروعة أثرها فى نفوس الآخرين . والحسن من الذين كانوا محط الأنظار فى عصره حتى أضحى من الصعب عليه أن يرجع إلى عزلة الانطوائى المتأمل لا لأنه كسب فى المجتمع مقام المعلم فحسب ولكن لأنه انتصر على عوامل من الخجل الطبيعى كادت تلازمه فى كهولته وليس من الصعب أن نتبين فيه رجلا خجولاً كسب الجولة الأولى فى الميدان الاجتماعى فازداد ثقة بنفسه ومضى يكسب جولة بعد أخرى .

وكان كثير من مبادئه نظريا لا يحل مشكلات المجتمع — أو بعضها — حلاً صحيحاً لأن تلك المبادىء أهملت جوانب متعددة من مقتضيات الطبائع البشرية . فتلامذة الحسن يفتخرون بأن إمامهم « لم يقلب درهما فى

تجارة »(١) ولكن كيف تكون حال المجتمع لو أن الناس كانوا كالحسن البصري يكرهون الأسواق ويرونها مفسدة للدين ويحرمون على أنفسهم الاشتغال بالتجارة ؟ وكيف تكون حال المجتمع لو ان الناس آمنوا مع الحسن بأن المتفرغ للعبادة خير من التاجر الصدوق ؟(٢) وأيهما أفضل أن يأكل الإنسان من كسب يده أم يعيش على عطاء الدولة وصلات الأمراء ؟ ليس من الحق أن ننكر على الحسن سخاءه بالمال واستهانته به ولكنا نشرف من تصرفه فى الناحية المادية على أنه لم يكن صاحب عقلية تجارية — كان إذا اشترى إزاراً وبلغ ثمنه ستة دراهم ونصف أبي إلا أن يدفع سبعة دراهم لأنه لا يقاسم أخاه درهماً(٣) ويقول تلميذه ابن عون « ما أرسلنى الحسن فى ابتياع شيء له إلا قال لما عدت بارك الله فيك ولم يسألنى عن ثمنه »(٤)

وكان الناس يستغلون فيه هذه الطيبة وخاصة إذا ابتاعوا منه شيئا ولقد باع بغلة له مرة بأربعائة درهم فلما استوجب المال قال له المشترى اسمح يا أبا سعيد . فقال : قد أسقطت عنك مائة درهم ، قال له : فأحسن يا أبا سعيد ، فقال : وهبت لك مائة أخرى فقبض من حقه مائتى درهم(٥).
وفى هذه الناحية التجاريه يقف الحسن مناقضا لابن سيرين التاجر الدقيق فى المعاملات المادية ، والحق أن ابن سيرين كان يختلف عن الحسن فى مظاهر كثيرة فبينا كان الحسن غضوباً كثير الكلام طويل الحزن غزير الدمعة لا يتكلم الا فى أمور الآخرة كان ابن سيرين حليما طويل الصمت كثير

---

(١) شذرات الذهب : ١/١٣٧ . (٢) الاحياء : ٢/٥٧ .
(٣) عيون الأخبار : ١/٢٥١ ؛ ومحاضرات الراغب ١/٢٢٤ .
(٤) محاضرات الراغب : ١/٢٢٤ . (٥) الأحياء : ٢/٧٤ .

الضحك والدعابة يتحدث فى الأخبار والأشعار[١] . وكان ابن سيرين أقرب الى الواقع العملى من صديقه لمزاولة التجارة ووقوعه تحت طائلة الدين وتقلبات الأسعار وامتزاجه بالناس ومعرفة أخبارهم وأحوالهم ؛ ويختلف الرجلان أيضا فى الطريقة فالحسن ممن لا يهمه أن يزيد فى الحديث النبوى أو ينقص منه وابن سيرين متشدد دقيق فى الرواية ، مع أن الحسن كان قوى الذاكرة وابن سيرين ضعيفها إذ كان ابن سيرين يصلى والمصحف إلى جنبه فإذا شك فى شىء نظر فيه وهو فى الصلاة[٢] . وكان الحسن ينتقد ابن سيرين فى بعض الأمور التعبدية وفى شدة ثقته بنفسه فى تعبير الرؤيا وابن سيرين لا يعجبه اندفاع الحسن فى التفسير كأنه شهد التنزيل[٣] ؛ ولأمر ما تهاجر الصديقان فلما توفى الحسن لم يحضر ابن سيرين جنازته[٤] ومهما يكن من شىء فالاختلافات بينهما لا تصوّر فروقاً فى مكونات الشخصية بقدر ما تصور تباينا فى المظاهر العامة وخير ما يصور اتجاه كل منهما فى النفسية والغاية قول الحسن : إنما هى طاعة الله أو النار وقول ابن سيرين إنما هى رحمة الله أو النار[٥] .

وعلى أساس الطيبة والنظرة الهينة إلى دنيا الناس نستطيع أن نفهم لم قال إياس فى الحسن : إن الخب يخدعه[٦] وذلك لأنه كان لا يشق على نفسه فى شىء لا يتعارض ومبدأه ويتصرف بإخلاص يلتبس على الناس بالسذاجة ؛ ولقد جاءه رجل من أصحابه يقول له إن إياس بن معاوية رد شهادته ، فقام

(١) ابن سعد : ٨/١٤٢ .
(٢) كتاب المصاحف ص ١٩٤ .
(٣) محاضرات الراغب : ١/٧١ .
(٤) المعارف ص ٢٣٠ .
(٥) الحلية : ٢/٢٧٠ .
(٦) البيان : ١/١١٥ .

الحسن بنفسه ليسأل إياساً كيف يردها ، وقال إياس ببساطة : إن الرجل ليس ممن يرضيني ، وعاد الحسن دون أن يعمل شيئا إلا أنه عرض نفسه لما كان فى غنى عنه ؛ ولما ولى القضاء توسط عنده أحدهم من أجل رجل يريد أن يكفل أحد اليتامى فقال الحسن للوسيط : أتعرفه ؟ قال : نعم . فأمضى الأمر دون بحث أو سؤال . ومع هذا الظاهر الساذج تسمع الحسن ينصح غيره بأن يحترس من الناس بسوء الظن ؛ ومع ميله إلى تقديس العقل وقوله فيه « العقل هو الذى يهدى إلى الجنة ويحمى من النار »[١] وغير ذلك من أقوال — مع كل ذلك ، تجده قد رضى بتعطيل جزء من قوة النقد عنده — وهى قوة عنيفة نارية — واستسلم إلى العاطفة فى الحكم على الأشخاص والأشياء وأهدر أحياناً حق المنطق فى التعليل ؛ يقول له أحد الناس إنى أبيت معافى وأحب قيام الليل وأعد طهورى فما بالى لا أقوم فيقول له الحسن : ذنوبك قيدتك[٢] . ويقول أيضاً : إذا أردتم أن تعرفوا من أين أصاب ماله فانظروا فى أى شىء ينفقه ، فإن الخبيث ينفق فى السرف[٣] . ويقول : حسبك من شرف الفقر أنك لا ترى أحداً يعصى الله ليفتقر[٤] . ولكن هذه البساطة فى التعليل كانت تختفى فى الجو الشعبى المحيط به ، وتنساب فى غمرة من السذاجة العقلية ، تمثلها تلك الأسئلة التى كانت الجماهير توجهها إليه فهؤلاء يسألونه عن الجن الذين بايعوا رسول الله هل بقى منهم أحد[٥] وأولئك يسألونه هل ينام إبليس[٦] .

---

(١) كتاب الامام أبى نصر ص ١٦ . (٢) الاحياء : ١/٣٢٤ .

(٣) البخلاء ص ١٠ وعيون الأخبار : ١/٢٤٤ ومحاضرات الراغب : ١/٢٣٩ .

(٤) عيون الأخبار : ١/٢٤٧ .

(٥) الحليه : ٢/٣٠٤ . (٦) الكواكب الدرية ورقه ٩٦ .

وكانت الهيبة تزيده فى النفوس مكانة ، وقد أشرت من قبل إلى تهيب تلامذته من سؤاله وكيف كان الغرباء يوعزون إلى أصحابه بعرض الأسئلة عليه ، وشبه بعضهم العلماء حين يقفون من حوله بالفراريج[١] ، وقال آخر إن فضله على علماء بلده كفضل البازى على العصافير[٢] ، وكان الشبان خاصة يظهرون فى مجلسه حيارى قد عقد الحياء ألسنتهم عن سؤاله[٣] ولكن هذه الهيبة لم تحل بينه وبين أن يكون قريباً إلى القلوب حتى قال محمد بن سلام الجمحى : إنه لم يكن فى الأمصار مثل الحسن فى زهده ، وفصاحته ، وسخائه ومحله من القلوب[٤] .

وبلغ ما كانت تصبو إليه نفسه فى الصبا من شهرة وعظمة حتى غدا يشار إليه بالأصابع — كان يروى مرة قول الرسول (ص) بحسب المرء من الشر ، إلا من عصمه الله ، أن يشير إليه الناس بالأصابع ، ووجد أحدهم فى نفسه الجرأة ليقول له ياأبا سعيد : إن الناس إذا رأوك أشاروا اليك بالاصابع فقال : انه لم يعن هذا — أى الشهرة فى الخير — وانما عنى به المبتدع فى دينه والفاسق فى دنياه[٥] ، ولم يلبث الحسن إلا قليلا حتى أخذ يبغض هذا المظهر الدنيوى وكان إذا عاد من المسجد على حماره تجمهر الناس ومشوا وراءه فالتفت اليهم وأمرهم أن يتفرقوا لأن خفق النعال من خلف الرجال يبطر ويدعو إلى الفتنة ويسرع فى فساد القلب ؛ وفى ذلك يقول : ما يبقى خفق نعال هؤلاء من قلب آدمى ضعيف[٦] . وكان الناس يرون فيه معنى العظمة حتى قال له أحدهم ما أعظمك فى نفسك فقال له لست بعظيم

---

(١) الاحياء : ٣/١٦٠ .
(٢) ابن سعد ٧/١٢٣ .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) تاريخ الذهبى ٣/٣٠٨ .
(٥) الاحياء : ٣/٢٣٨ .
(٦) ابن سعد : ٧/١٢٢ .

ولكني عزيز من قوله تعالى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين[١]، ولما جلس الفرزدق إلى جانبه فى جنازة أبى رجاء العطاردى قال له : أتعرف ما يقول الناس يا أبا سعيد ؟ يقولون قعد على هذا القبر اليوم خير أهل البصرة وشر أهل البصرة[٢] .

وأخيراً عبرت الروح الجماعية عن شعورها إزاءه بتلك المجموعة من الأحلام التى رؤى فيها الحسن على أحوال مختلفة وقد أريد بقسم من تلك الأحلام أن يكون شعاراً للرضى عن طريقته فى الخوف والحزن وفيصلا فى الحكم بينه وبين ابن سيرين لأنها رفعته على معاصره درجة أو درجات . وظهر فى بعض تلك المنامات أثر الصنعة والتكلف فقد رؤى — مثلا — كأنه لابس صوف وفى وسطه كستيج وفى رجله قيد وعليه طيلسان عسلى وهو قائم على مزبلة وفى يده طنبور يضربه وهو مستند إلى الكعبة . وفسر ابن سيرين هذه الرؤيا فجعل الصوف رمزاً للزهد ، والكستيج قوته فى دين الله، والطيلسان حبه للقرآن وتفسيره للناس ، والقيد ثباته فى ورعه ، وقيامه على المزبلة جعله الدنيا تحت قدميه ، وضربه الطنبور نشره الحكمة بين الناس واستناده إلى الكعبة معناه التجاؤه إلى الله تعالى[٣] .

ورؤى أيضاً عارياً لا يستحى من الناس وبيده سيف له بريق يضربه على أحجار وهو يشقها وفسر ابن سيرين تجرده بإخلاصه وقلة ذنوبه ورأى فى السيف رمزاً لقوة لسانه وبيانه وفى الأحجار رمزاً لقلوب الناس أما شقها فمعناه تأثير موعظته فيها[٤] .

---

(١) محاضرات الراغب : ١٠١/٧ . (٢) ابن سعد : ١٠١/٧ .

(٣) مرآة الجنان جـ ١ حوادث سنة ١١٠ هـ ط . الهند .

(٤) المصدر نفسه .

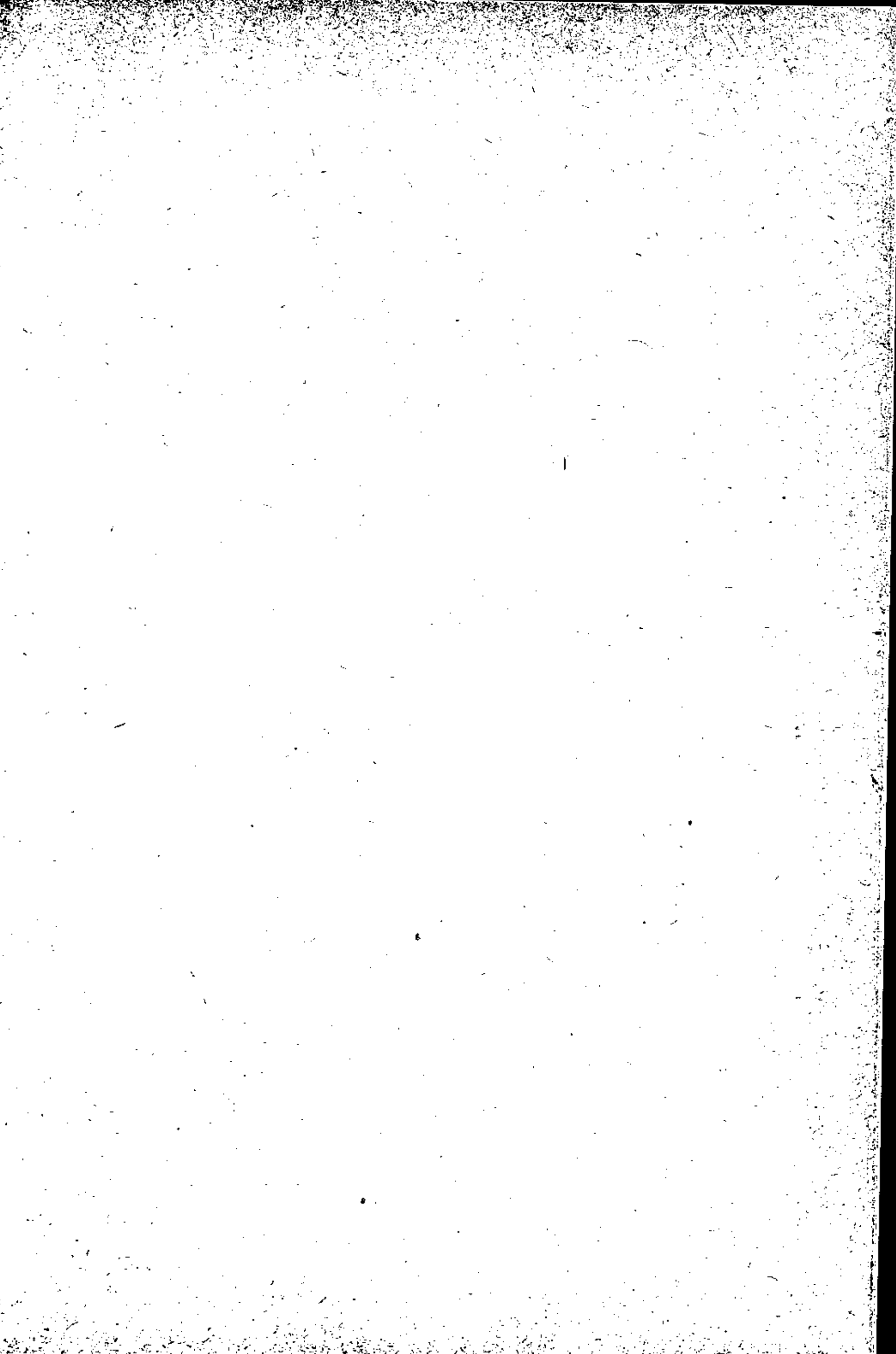
وهذه الصور الرمزية تفسير للجوانب التى أعجبت الناس من شخصية الحسن ، ويكملها قول أبى حيان فى وصفه :

« فلقد كان من درارى النجوم علماً وتقوى وزهداً وورعاً وعفة ورقة وتألها وتنزهاًوفقهاًومعرفة وفصاحة ونصاحة ، مواعظه تصل إلى القلوب ، وألفاظه تلتبس بالعقول ، وماأعرف له ثانياً لاقريباً ولامدانياً ، كان منظره وفق مخبره وعلانيته فى وزن سريرته عاش سبعين سنة لم يقرف بمقالة شنعاء ولم يزن بريبة ولا فحشاء سليم الدين نقى الأديم محروس الحريم[1] » .

وهذا التصوير ليس فيه إغراق أو تهويل ولكنه يرسم حدود شخصية الحسن فى ظاهرها وهى حدود حاولت هذه الدراسة أن تتخطاها قليلا ولكن فى شىء من الحذر .

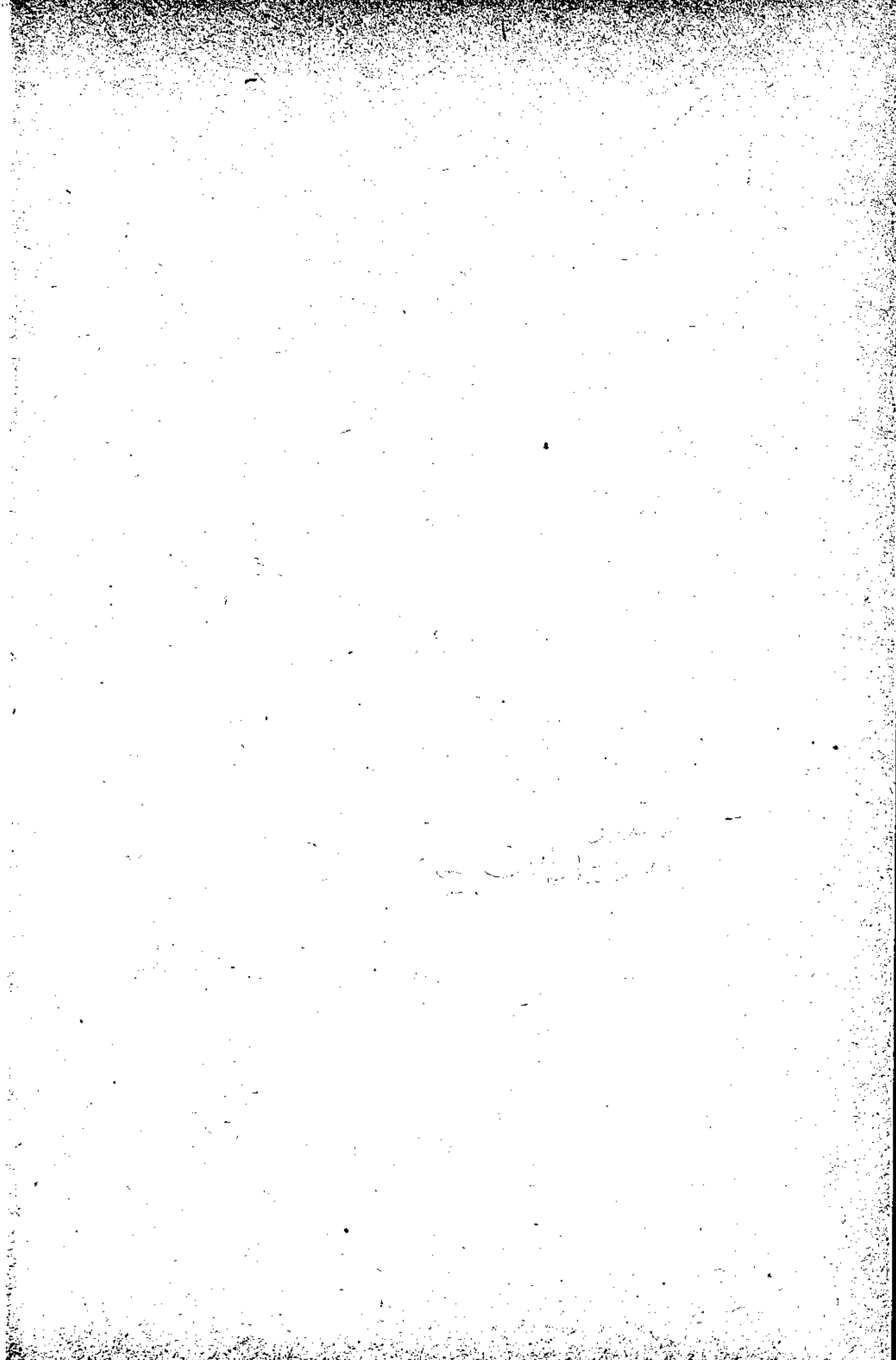
---

(١) معجم الأدباء ١٦/٩٦ .



الكتابُ الثالث

تعاليمه وآراؤه



التربية الزهدية

كان الحسن المعلم يريد أن يقيم للناس مبادىء الزهد التى أخذ بها نفسه ويجعلها قاعدة عامة . ومن السهل أن نلحظ عنده تشدداً عنيفاً حين تكون المبادىء متصلة بالسلوك الخلق اتصالا وثيقاً وخاصة ما يتعلق من ذلك السلوك بالمعاملات المادية ونتائجها . أما فيما عدا ذلك فإن مبادئه لا توغل فى التطرف وراء الحلال بل تتفق مع المشروع الواقع فى دائرة الاستطاعة الإنسانية . وهذا الازدواج يرجع إلى طبيعة المعلم نفسه فقد كان فقيهاً يعرّف الناس حدود الحلال والحرام وكان زاهداً يحاول أحياناً أن يحرم على نفسه سعة يجدها فى حدود الحلال نفسه . فالحسن الفقيه هو الذى كان يتهكم بفرقد وأمثاله حين يحرمون أنفسهم الطعام الطيب زاعمين أنهم لا يؤدون شكره فتراه يقول لفرقد ويحك [فريقد] أتؤدى شكر الماء البارد[1] . والحسن الفقيه هو الذى كان ينكر لبس الثياب الصوفية الخشنة ويقول لفرقد أيضاً « يا ابن أم فرقد أما علمت أن أكثر أصحاب النار أصحاب الأكسية[2] » ويصف أصحاب الصوف بقوله : « والله لأحدهم أشد عجباً بكسائه من صاحب المطرف بمطرفه »[3] والحسن الفقيه هو الذى قال للعلاء بن زياد وكان زاهداً يصوم حتى يخضر ويصلى حتى يسقط « إن الله لم يأمرك بهذا كله »[4] .

---

(١) ابن سعد ١٢٨/٧ .
(٢) ابن سعد ١٢٣/٧ .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) تاريخ الذهبى ٤٢/٤

أما الحسن الزاهد فقد وضع مبادىء لبناء الشخصية الفاضلة . واتجهت المبادىء التى كان ينادى بها فى اتجاهين متشابكين أولها تحديد السلوك الفردى والثانى تنظيم العلاقات الانسانية بين الأفراد .

(أ) تحديد السلوك الفردى :

يقوم هذا الاتجاه على مبادىء كثيرة أهمها الإعراض عن الدنيا وهى دار فناء ، فمن قصر النظر أن يركن الانسان إلى الفانى ويفضله على الباقى الخالد وكل عمل يكون فى الدنيا من أجلها فهو باطل فليجعل الإنسان سعيه فيها لآخرته وفى ذلك يقول : ارفض الدنيا ولتنسخ بها نفسك ودع منها الفضل فإنك إذا فعلت ذلك أصبت أربح الأثمان من نعيم لايزول ونجوت من عذاب شديد ليس لأهله راحة ولافترة [١] . ويصب الحسن كل الذم على الدنيا ينهى فيها عن التكاثر ويوصى ببيعها [٢] . ويتم له الإعراض عنها بفضيلتين :

١ ــ القناعة بالقليل عند الوجد .

٢ ــ الصبر عند الحرمان .

وكلاهما يمكن أن نسميه الصبر لأن عنوان هاتين الفضيلتين هو الصبر عن فضول الدنيا [٣] . فالصبر فى رأيه دواء كل شىء ثم لا تجده يداوى بغيره [٤] ويتعين حينئذ أن يكون الاستغناء عن الفضول قناعة بالقليل ، وهو يقول فى مواعظه « تصبروا وتشددوا فإنما هى أيام قلائل وإنما أنتم ركب وقوف يوشك أن يدعى الرجل منكم فيجيب [٥] » . والقناعة بالقليل تحول بين الانسان وبين أن يتمنى ما فى يد غيره وتنجيه

(١) الحلية ١٤١/٢ . (٢) المصدر نفسه ص ١٤٣ .

(٣) تفسير القرطبى ٣١٣/٩ . (٤) الكواكب الدرية ورقة ٩٦ (٥) الاحياء ٣٩١/٤ .

من الجشع فى طعامه وشرابه ويحث الحسن على ذلك بقوله : « يا ابن آدم كل فى ثلث بطنك واشرب فى ثلث بطنك ودع الثلث للتفكر والتنفس[١] » ويقول فى وصف المؤمن « المؤمن مثل العنيزة يكفيه الكف من الحشف والقبضة من السويق والجرعة من الماء والمنافق مثل السبع الضارى بلعاً بلعاً وسرطاً سرطاً . . . »[٢] . أما الغنى الموسر فصبره معناه احتماله التخلى عن الفضول وهذا داخل فى تنظيم العلاقات بين الأفراد . ونقيض الصبر الطمع — فى الأمور المادية — أما نقيض الصبر على الظلم والمصيبة فهو الجزع[٣] . وما أسعد من كان صبره فى الله لا خوفاً من النار أو كان زهده لله رغبة فى الجنة فمن أخذ بهذا المنهج بلغ سر الاخلاص . والاخلاص ذو مظاهر — والحسن عاجز عن تعريفه — ومن مظاهره حبك أن تكتم حسناتك وتعلن سيئاتك[٤] وصورة المخلص موجودة فى قوله تعالى « والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة » أى يؤتون الاخلاص ويخافون ألا يقبل منهم[٥] . ونقيض الإخلاص الرياء وهو شرك ويعرفه الحسن بقوله : « هو طلب حظ النفس من عملها فى الدنيا أى من طلب بعمله بينه وبين الله تعالى سوى وجه الله تعالى والدار الآخرة فعمله ذاك رياء[٦] .

ومن مبادىء الزهد — بعد الاعراض عن الدنيا — مبدأ الخوف ، وهو نقيض الأمن والأول من صفات المؤمن والثانى من صفات المنافق « إن المؤمن من جمع إحساناً وشفقة وإن المنافق من جمع إساءة وأمناً[٧] »

(١) البخلاء ص٩٧ . (٢) الكواكب الدرية الورقة ٩٧ . (٣) كشف المحجوب ص٨٦ .
(٤) تفسير القرطبى ١٠١/٧١ . (٥) تفسير القرطبى ١٠١/٧١ .
(٦) المصدر نفسه . (٧) تفسير الطبرى ١٨/٢٢ .

والمؤمن رجل قد ألجمه الخوف وقومه ذكر العرض (١) . أما المنافق فإنه يتعلل بقوله: سواد الناس كثير وسيغفر لى ولا بأس على فيسىء العمل ويتمنى على الله تعالى (٢) . ولذلك كانت الأمانى عدوة الإيمان إذ ليس الإيمان بالتحلى والتمنى ولكن ماوقر فى القلب وصدقه العمل (٣) . والمؤمن الخائف حزين دائماً إذا رآه الرائى الجاهل ظنه مريضاً ولكن دخله من الخوف مالم يدخل غيره ومنعه من الدنيا علمه بالآخرة ، أبكاه الخوف من النار وأنه من لا يعتز بعز الله يقطع نفسه على الدنيا حسرات (٤) . أما المنافق فإنه كثير الغفلة ومن إمارات غفلته كثرة الضحك التى تميت القلب .

ومن فوائد الخوف من الله أن صاحبه لا يخاف شيئاً (٥) وبه يكتسب شجاعة لا حد لها . ولكن المؤمن الخائف قد يذنب لأنه غير معصوم فيظل على ذنبه كئيبا (٦) وقد يحسد أخاه كما حسد إخوة يوسف أخاهم ولا ضير عليه من الحسد إذا استطاع أن يخرسه فى صدره (٧) ، وهكذا نجد المؤمن عند الحسن إنساناً قابلا لصنوف من الضعف الإنسانى مرهقاً بأعباء نفسه التى لا يدانيها الفرس الجموح فى شدة طغيانها — « ما الدابة الجموح بأحوج إلى اللجام الشديد من نفسك »(٨) تلك النفس الطلعة التى تحتاج إلى قدع وإلا نزعت بصاحبها إلى شر غاية (٩) ولذلك كان لا بد للمؤمن الخائف — بما لديه من دوافع الخوف — أن يكون شديد المحاسبة لنفسه ما يُرى

---

(١) البيان ٣/١٢٠ .
(٢) الحلية ٢/١٥٣ .
(٣) البيان ٣/١٢٠ .
(٤) تفسير الطبرى ١٩/٢٠ .
(٥) البيان ٣/١٣٢ .
(٦) الحلية ٢/١٥٨ .
(٧) الإحياء ٣/١٦٤ .
(٨) الإحياء ٣/٥٧ .
(٩) البيان ١/٢٨٨ .

إلا يلومها قائلا لها « ما أردت بكلامى؟ ما أردت بأ كلى؟ ما أردت بحديث نفسى »[١] والنفس اللوامة هى نفس المؤمن ومن حاسب نفسه فى الدنيا خف الحساب عنه يوم القيامة ومن لم يحاسبها لقى الهول. وكيفية الحساب أن المؤمن يرى شيئا يعجبه فيقول « والله إنك لتعجبنى وإنك من حاجتى ولكن هيهات حيل بينى وبينك — وهذا حساب قبل العمل فإذا فرط منه الشيء عاد يقول لنفسه، ماذا أردت بهذا والله لا أعذر بهذا والله لا أعود لهذا أبداً إن شاء الله »[٢] فإذا فعل الإنسان ذلك وكانت المحاسبة من همه لم يزل بخير[٣] ذلك لأن هذه المحاسبة تشغل الإنسان بعيوب نفسه فإذا نجح فى ذلك نجح فى شيئين أصلح نفسه وشغل عن عيوب الآخرين « ابن آدم إنك لن تجد حقيقة الايمان ما كنت تعيب الناس بعيب هو فيك حتى تبدأ بذلك العيب من نفسك فتصلحه فلا تصلح عيبا إلا ترى عيباً آخر فيكون شغلك فى خاصة نفسك أحب ما يكون إلى الله إذا كنت كذلك »[٤]. وليس يعنى الحسن من ذلك أن ينصرف الانسان عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ولكن لابد لمن يفعل ذلك أن يكون — كالحسن نفسه — قدوة للآخرين فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مهمة العلماء الذين أخذ عليهم الميثاق فأما الناس العاديون فيكفيهم أن يهتموا بأنفسهم.

ومن فوائد الخوف أيضاً أنه حافز يدفع صاحبه إلى العمل لأن معرفة الفضائل لا تكفى بل لابد من اقتران العلم بالعمل وهو يوضح هذا بقوله: « يا ابن آدم لا يغرنك قول من يقول المرء مع من أحب فانك لن تلحق

(١) تفسير القرطبى ١٩/١٠١.
(٢) الاحياء ٤/٣٤٥ والحلية ٢/١٥٧ (٣) الحلية ٢/١٤٦.
(٤) الاحياء ٣/١٢٤. تهذيب ابن عساكر ٦/٧٢.

الأبرار إلا بأعمالهم فان اليهود والنصارى يحبون أنبياءهم وليسوا معهم [١]
ويقول أيضا «لا تكن ممن يجمع علم العلماء وطرائف الحكماء ويجرى فى العمل مجرى السفهاء [٢]. ومن أقواله : تعلموا ما شئتم أن تعلموا فوالله لا يؤجركم الله حتى تعملوا [٣].

فاذا استطاع الفرد أن يزهد فى الدنيا ويحمل نفسه على الصبر فيصل إلى درجة الاخلاص، وإذا اتخذ الخوف قاعدة لحياته فى علاقته بالله وحاسب نفسه وقدعها عن شهواتها، إذا فعل ذلك كان قد عدل سلوكه الفردى وأصبح لبنة صحيحة فى البناء الاجتماعى وعندئذ يجىء المبدأ الثانى فى هذا المنهج التربوى وهو إكمال الوضع الفردى بما ينظم علاقات سليمة بين الأفراد أنفسهم .

(ب) تنظيم العلاقات الاجتماعية :

يقوم هذا التنظيم على مبدأين كبيرين يتفرع عنهما وعن نقيضيهما جميع الفضائل والرذائل الاجتماعية :

١ ــ المبدأ الأول هو التضحية المادية .

٢ ــ المبدأ الثانى هو التواضع .

١ ــ إذا كان زهد الفقيد هو الصبر ــ وهو زهد فردى ــ فإن زهد الغنى هو عدم إمساك المال ــ وهو زهد فردى جماعى معاً . ويسمى الحسن التضحية المادية باسم «السخاء» ويعده رأس الزهد [٤] فالسخاء هو أن تجود بمالك فى الله عز وجل وهو شىء غير السرف لأن السرف هو الإنفاق لحب الرياسة [٥] والسخى هو الذى لو كانت الدنيا له فأنفقها لرأى عليه بعد

(١) الاحياء ٢/١٤١ والكواكب الدرية الورقة ٩٧ (٢) المصدر السابق ١/٥٢ .
(٣) المصدر السابق ١/٥٧ . (٤) الأحياء .
(٥) المصدر السابق ٢/٢١٤ .

ذلك حقوقا[١] ويناقضه البخيل وهو الذى يرى مايمسكه شرفا[٢] وقد كان الحسن على إدراك تام بأن هذه الخطوة من أشق الأمور على الإنسان وأنه لايشبهها صعوبة إلا مكابدة السهر والتهجد[٣] ولكن المشكلة المادية ملكت عليه أكبر جزء من تفكيره لأنها كانت تبدو له أعقد العقد ، بل إنه لا يفهم أن للدنيا جانباً آخر سوى معناها المادى . ومن ثم أعلن ثورة عامة على أصحاب المادة . فثار على الأغنياء فى زمنه إذ يقول فيهم : «فقد رأيناهم والله اشتروا الأمانة بأموالهم فأصابوا آلافا فما صنعوا فيها ؟ وسعوا بها دورهم وضيقوا قبورهم وأسمنوا براذينهم وأهزلوا دينهم وأتعبوا أنفسهم بالغدو والرواح إلى باب السلطان ، يتعرضون للبلاء وهم من الله فى عافية يقول أحدهم تبيعنى أرض كذا وكذا وأزيدك كذا وكذا ، يتكىء على شماله ويأكل من غير ماله حديثه سخرة وماله حرام حتى إذا أخذته الكظة ونزلت به البطنة قال ياغلام إيتنى بشىء أهضم به طعامى يالكع ، أطعامك تهضم ؟ إنما دينك تهضم أين الفقير أين الأرملة أين المسكين أين اليتيم الذى امرك الله به»[٤] ومقت رجال الدولة لأنهم يتصرفون فى الأموال على حسب الهوى ويتمتعون بمميزات لا ينالها أفراد الرعية «مالهم قاتلهم الله اتخذوا عباد الله خولا وكتاب الله دغلا ومال الله دولا وقتلوا الناس على الدينار والدرهم يأخذون من غضب الله وينفقون فى سخط الله والحساب عند البيدر»[٥] ونقم من القراء تسخيرهم العلم فى سبيل مطامعهم المادية واعلن عن كرهه للأسواق واهلها لأن الواحد من اهل السوق يمنع أخاه الدرهم[٦] ولعل جريرة الحياة التجارية فى نظره أنها تفقد المرء معنى السخاء وتستعبده للمال وتجعل للدينار

---

(١) محاضرات الراغب ٣٠٩/١ . (٢) المصدر نفسه ص ٢٨٥ .
(٣) الاحياء ٣٢٣/١ (٤) الاحياء ٧٦/٣ . (٥) المصدر السابق ٢٨٣/٣ وتهذيب إبن عساكر ٧٦/٤ بالمزج بين النصين (٦) المصدر السابق ١٥٣/٢ .

فى نظره قيمة عظيمة . وساءه أن يرى حذق الناس فى المسائل المادية وجهلهم أمور الدين حتى « بلغ والله من علم احدهم بالدنيا أنه ينقد الدرهم فيخبرك بوزنه ولا يحسن أن يصلى »[١] ووجد فى المجتمع من حوله « علوجا فساقا أكلة رباوغلول » يحتجون بقوله تعالى « قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق » ويفسرون الآية على غير وجهها فحاول إفهامهم أن الزينة ما ركب ظهره (أى الدواب) والطيبات ما جعل فى بطونها غير أن هؤلاء الناس عمدوا إلى نعمة الله فتوسعوا فيها واتخذوها ملاعب لشهواتهم وقد قيد الله هذه الآية بقوله « فكلوا واشربوا ولا تسرفوا »[٢] .

٢ — أما التواضع فهو تتمة لصفة السخاء وهو عامل مشترك بين الغنى والفقير . فتواضع الغنى عدم ذهابه مع فتنة النعمة وتواضع الفقير التكبر على الأغنياء[٣] وتواضعهما معاً أن يخرج الرجل من بيته فلا يرى أحدا إلا قال هذا أفضل منى[٤] . وكما أن الحرص فى الناحية المادية هو أسوأ لعنة تصيب صاحبها فى علاقاته بالآدميين فإن نقيض التواضع — وهو الكبر — رأس الشرور فى الفرد ولذلك كان الحسن سوط عذاب على المتكبرين الذين وصفهم بقوله « ترى أحدهم أبيض بضا يملخ فى الباطل ملخا ينفض مذرويه (ويضرب أصدريه) يقول ها أنذا فاعرفونى (قد عرفناك يا أحمق مقتك الله ومقتك الصالحون)[٥] . وكان يحاول أن يذيب تلك الفقاقيع المنتفخة فى المجتمع . مر به شاب يخطر فى ثيابه فدعاه وقال له إيه ابن آدم

---

(١) تفسير القرطبى ٧/٢٤ .
(٢) الحلية ٢/١٥٣ — ١٥٤ . (٣) محاضرات الراغب ١/١٢٩ .
(٤) الاحياء ٤/١٩٧ .
(٥) أمالى المرتضى ١/١٠٨ والعقد ٢/٣٥٩ .

معجب بشبابه، معجب بجماله، معجب بثيابه، كأن القبر قد وارى بدنك وكأنك قد لاقيت عملك فداو قلبك فإن حاجة الله الى أوليائه صلاح قلوبهم »[١].

ولقى رجال الدولة منه نقداً قاسياً لا لتصرفهم بالأموال فحسب ولكن لمخالفتهم سنة الرسول فى التواضع فقد كان رسول الله « يجلس بالأرض ويوضع طعامه بالأرض ويلبس الغليظ ويركب الحمار ويردف خلفه وكان والله يلعق يده »[٢] أما الأمراء فقد ارتفعوا على أجنحة البذخ والإسراف فاتخذوا الحجاب والعروض والمراكب الفارهة . فالجماعة التى تمثل خروجاً على المبدأين الكبيرين — من حيث هى جماعة — هى الدولة وأما الأفراد فيمثلهم ابن الأهتم التيمى البصرى — هو غنى حريص جماع للتراث وهو متكبر بطر مزهو بشبابه وثيابه .

وابن الأهتم هذا (واسمه صفوان بن عبد الله بن الأهتم)[٣] كان يمثل طبقة كبيرة فى المجتمع البصرى شديدة الكلب والشح ، ومع ما كان يستغله من مال جم (ثلاثين ألف درهم فى الشهر) لم يكن يسمح منها لابنه بأكثر من ثلاثين درهما ويرى أنها أسرع فى هلاك المال من السوس فى الصيف[٤] وقد عرفه الحسن عن كثب وحضر وصيته — كما تقدم — ولذلك كان يهاجمه بشدة . وتطنب المصادر المتأخرة فى تصوير حملته عليه حتى لتخيل لنا أنها تستغل الروح الروائية إلى أبعد حدود الاستغلال . ويختلف مكان الدراما ولكن محصولها الخلقى واحد لا يتغير وهو يتمثل لنا فى قول الحسن « انظروا هذا البائس أنى أتاه الشيطان فحذره روعة زمانه وجفوة

(١) الحلية ٢/١٥٤ والاحياء ٣/٢٩٢ (٢) الحلية ٢/١٥٣ .

(٣) تختلف فيه المصادر فهو حيناً خالد ابن صفوان وحينا صفوان نفسه وحينا آخر عبد الله.

(٤) الدميرى ٢/٤٠

سلطانه عما استودعه الله إياه وعمره فيه خرج والله منها كثيباً حزيناً ذميماً مليماً . إيها عنك أيها الوارث لاتخدع كما خدع صويحبك أمامك . أتاك هذا المال حلالا فإياك إياك أن يكون وبالا عليك أتاك والله ممن كان له جموعاً منوعاً يدأب فيه الليل والنهار ، يقطع فيه المفاوز والقفار من باطل جمعه وحق منعه لم يؤد منه زكاة ولم يصل منه رحماً . الخ »[١] .

وهاجمه الحسن أيضا لخيلائه فقد مرَّ على حلقته وهو يلبس ثياب خز قد نضد بعضها فوق بعض على ساقه وانفرج عنها قباؤه وفى مشيته تبختر فالتفت إليه الحسن وقال : أف أف شامخ بأنفه ثانى عطفه أى أحيمق أنت تنظر فى عطفيك فى نعم غير مشكورة ولا مذكورة »[٢] .

ما هى حقيقة ما كان يتطلبه الحسن من أمثال ابن الأهتم ؟ أكان يريد تخليهم التام عن المادة وتفريق ما جمعوه على الفقراء والمحتاجين ؟ كان الحسن يرى فى الاكتفاء بالقليل معنى الزهد الحقيقى عند القادر وما دام فى الناس فقراء فإن الاستئثار دونهم بما يزيد عن الحاجة وضع للمال فى غير حقه . واجتماع المال الكثير فى يد صاحبه يستر وراءه عدوانا وباطلا يدل على منع الزكاة وقطع الأرحام، ولذلك لم يستطع الحسن أن يتصور كيف يتأتى للرجل أن يجمع خمسين ألف درهم وتكون حلالا كلها[٣] فإن من يؤدى الحقوق الواجبة فى ماله لا يمكن أن يجمع هذا القدر ، فالفضل الذى ينص عليه الحسن ليس هو النسبة الضئيلة الهزيلة فى مال الغنى بل هو نسبة كبيرة ـ هو كل ما يزيد عن سد الحاجات الضرورية ، قال له أحدهم : ما تقول فى رجل آتاه الله مالا فهو يتصدق منه ويصل منه أيحسن له أن يتعيش فيه

---

(١) الحلية ٢/١٤٥ .　　(٢) الاحياء ٣/٢٩٢ .

(٣) انظر ابن سعد ٨/١٢٥ حيث يبلغ الرقم مائة ألف وقول الحسن لا والله فى هذا خير.

(أى يتنعم) فقال لا لو كانت الدنيا كلها له ما كان له منها إلا الكفاف[١].

فإذا اجتمعت الصفات الإيجابية فى أحد الناس وانعدمت أضدادها عُدّ زاهداً أو مؤمناً — فالكلمتان مترادفتان عند الحسن — وشخصية المؤمن أو « عبد الرحمن » ترتسم خطوطها الكبرى فى تلك الآيات من القرآن « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً . . » وللحسن مجموعة من الأقوال تدلنا كيف يتصور المؤمن وهذا بعضها :

١ — المؤمن أحسن الناس عملا وأشد الناس خوفاً لو أنفق جبلا من مال ما أمن دون أن يعاين ، لا يزداد صلاحاً وبرا وعبادة إلا ازداد فرقاً يقول لا أنجو[٢] .

٢ — إن المؤمن أسير فى الدنيا يسعى فى فكاك رقبته لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله عز وجل ، يعلم أنه مأخوذ عليه فى ذلك كله[٣]

٣ - (المؤمنون) علماء حلماء لا يجهلون، إذا خاطبهم الجاهلون بالله بما يكرهون من القول أجابوهم بالمعروف من القول والسداد فى الخطاب ؛ إن المؤمنين قوم ذلل ، ذلت والله الأسماع والأبصار والجوارح حتى يحسبهم الجاهل مرضى وإنهم لأصحاء القلوب ولكن دخلهم من الخوف مالم يدخل غيرهم ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة فقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ووالله ماحزنهم حزن الدنيا ولا تعاظم فى أنفسهم ماطلبوا به الجنة ؛ أبكاهم الخوف من النار وأن من لا يعتز بعز الله يقطع نفسه على الدنيا حسرات[٤] .

٤ — حلماء لا يجهلون وأن جهل عليهم حلموا ولم يسفهوا هذا نهارهم

---

(١) الاحياء ٣/١٨١ (٢) الحلية ٢/١٥٣ .
(٣) الحلية ٢/١٥٧ . (٤) تفسير الطبرى ١٩/٢٠ .

فكيف ليلهم؟ خير ليل صفوا أقدامهم وأجروا دموعهم على خدودهم يطلبون إلى الله جل ثناؤه فى فكاك رقابهم (١) .

٥ — ان المؤمن عمل لله تعالى أياماً يسيرة فوالله ماندم أن يكون أصاب من نعيمها ورخائها ولكن راقت الدنيا له فاستهانها وهضمها لآخرته وتزود منها فلم تكن الدنيا فى نفسه بدار ولم يرغب فى نعيمها ولم يفرح برخائها ولم يتعاظم فى نفسه شىء من البلاء إن نزل به (٢) .

٦ — إن المؤمن وقاف متأن وليس كحاطب ليل .

هذه جوانب من صورة المؤمن عند الحسن . ونقيض المؤمن فى الدائرة الإسلامية هو المنافق . والمنافق والظالم والفاسق ثلاثة اصطلاحات متداخلة أعيا أهل القرن الأول التفرقة بينها . فقد فسر الحسن « فمنهم ظالم لنفسه» بأنه المنافق (٣) وفى رواية أخرى بالفاسق (٤) وكانت لفظة المنافق عنده تطلق على مرتكب الكبيرة (٥) تحاشياً منه أن يقف مع الخوارج الذين يعدون مرتكب الكبيرة كافراً . وأنكر واصل بن عطاء هذا الاعتبار وسمى مرتكب الكبيرة فاسقاً (٦) والحقيقة أن لفظة النفاق — كما يستعملها الحسن تشمل مايناقض صورة الإيمان فهى تشمل الظالم والفاسق أو غير ذلك ممن حرم ميزة أو جزءاً من ميزة يتمتع بها المؤمن ومن أعراض النفاق ركون المرء إلى الأمن وتعلله بالأمانى فهو يقول إنما أوتيته على علم عندى (٧) . ويظلم

---

(١) تفسير الطبرى ١٩/٢١ .
(٢) الحلية ٢/١٤٦ .
(٣) تفسير الطبرى ٢٢/٧٩ .
(٤) تفسير القرطبى ١٤/٣٤٦ .
(٥) أمالى المرتضى ١/١١٤
(٦) المصدر السابق .
(٧) تفسير الطبرى ١٨/٢٢ .

الأمانة التى حملها لما عرضت عليه[١] ويركب كل كبيرة ويسحب عليه ثيابه ويقول ليس على بأس[٢] . والنفاق نوعان نفاق الكذب ونفاق العمل أما الأول فكان على عهد الرسول وأما الثانى فلا ينقطع إلى يوم القيامة[٣] . وإقرار الحسن بعدم انقطاعه دليل على صعوبة التخلص منه ولكن كل إنسان يعمل على حسب ظنه بالله فالمؤمن يحسن الظن فيحسن العمل والمنافق يسيء الظن فيسيء العمل[٤] ومن الكمال أن يسلم الإنسان من النفاق ولكن إذا أحس بشيء منه فى نفسه أى بالمسافة بين القول والعمل لم يكن له أن يمتنع عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقد طلب الحسن إلى مطرف (أو إلى الشعبى) أن يعظ أصحابه: فأجابه أخاف أن أقول مالا أفعل فقال الحسن: يرحمك الله وأينا يفعل مايقول ود الشيطان أنه ظفر بهذا فلم يأمر أحد بمعروف ولم ينه عن منكر[٥] . والحق أن الحسن كان يرى فى كل اختلاف بين القول والعمل نفاقاً ولذلك اعتقد أن أغلب الناس فى عصره منافقون يقول : أما المنافق فهو معنا فى الحجر والطرق والأسواق نعوذ بالله والله ماعرفوا ربهم[٦] .

وللسلامة من النفاق لابد من إصلاح القلب . وقد أكد الحسن هذا المبدأ كثيراً حتى عد واضع علم القلوب الذى وسعه المحاسبى من بعده[٧] وهو بهذا المبدأ أقرب إلى معنى التصوف . وكذلك سوى بين قدع النفس وتنقية القلب . لأن القلب الصالح هو المكان الذى يترعرع فيه الخوف أما

---

(١) تفسير الطبرى ١٢/٣٧ .
(٢) الحلية ١/١٤٨ .
(٣) تفسير القرطبى ١/١٤٨
(٤) الحلية ١/١٤٤ .
(٥) ابن أبى الحديد : شرح منهج البلاغة ١/١١٨ والقرطبى ١/٣٦٧ .
(٦) الحلية ٢/١٥٧
(٧) انظر M. Smith : An Early Mystic of Baghdad p. 68.

القلب الفاسق فتنمو فيه أشواك الأباطيل والأماني ويصبح مرتعاً للنفاق وإذا فقد القلب حياته لم تعد الموعظة تؤثر فيه . قال الحسن لجماعة كانوا حوله في المسجد « لو أن بالقلوب حياة لو أن بالقلوب صلاحاً لأبكيتكم من ليلة صبيحتها يوم القيامة[١] وما كان الصحابة يخافون على أنفسهم شيئاً أشد من فساد القلب حتى كانوا يتخلون عن الحلال ابتغاء نقائه[٢] وليس الإسلام لمن دان به إلا سلامة القلب[٣] وأكبر عقوبة تنزل بالعالم موت القلب أي طلب الدنيا بعمل الآخرة[٤] وذلك هو النفاق .

(٢)
الاتجاهات العلمية

الحديث والفقه — التفسير — التاريخ

سعى الحسن في التربية الزهدية — كما وضحت في الفصل السابق — إلى صلاح النفوس أي إلى تثبيت العمل وتهيئة أداتيه من قلب ونفس تهيئة صالحة أما الجانب الثاني الذي أطلق عليه اسم العلم فقد نال منه عناية المعلم من ناحيتين : الحث عليه والقيام على بثه بين الناس . فمن أقواله في تحبيب الطلاب بالعلم القول المشهور « طلب العلم في الصغر كالنقش في الحجر وطلب العلم في الكبر كالنقش في الماء[٥] . وكانت هيبته في نفوس طلبته تصدهم بعض الشيء عن تمام الفائدة التي يطمحون اليها ولذلك تسمعه يقول بوحي من

(١) الحلية ١٤٣/٢ (٢) المصدر نفسه ص ١٤٦
(٣) المصدر نفسه ص ١٥٢ (٤) الاحياء ٥٣/١
(٥) عيون الأخبار ١٢٣/٢

هذه الحال ، من استتر عن الطلب بالحياء لبس للجهل سرباله فقطعوا سرابيل الحياء فانه من رق وجهه رق علمه »[١] . ويقول: إنى وجدت العلم بين الحياء والستر[٢] . وقيل له قد أكثر الناس تعلم الآداب فما أنفعها عاجلا وأوصلها آجلا قال الفقه فى الدين فإنه يصرف اليه قلوب المتعلمين والزهد فى الدنيا فإنه يقربك من رب العالمين والمعرفة بما لله عليك يحويها كمال الإيمان[٣] .

وفى هذه الناحية نسمع عن احترامه للعقول كما سمعنا فى جانب الزهد عن تقديره للقلوب[٤] .

ولكن ما هى العلوم التى كان يتحدث الحسن فيها إلى الناس؟ فى رواية مسهبة أوردها صاحب الإحياء أن الحسن كان يتكلم بكلام له يتكلم به فى كل يوم ومن غير المعقول أن نستخلص من هذه الرواية أن الحسن كان يعيد كلامه نصاً لكنها تعنى أن طبيعة الكلام الذى جرى عليه فى مجالسه لم تكن تتغير أما الفائدة منها فكانت متجددة بشهادة تلميذ له جالسه سنوات فكان كل يوم يسمع منه شيئا لم يكن سمعه وأما المادة نفسها فكانت متنوعة وحق ما يقوله الغزالى من أن الحسن كان يتكلم فى علم الآخرة والتفكير بالموت والتنبيه على عيوب النفوس ووساوسها والصفات الخفية الغامضة من شهواتها[٥] ولكن هذا يتعلق بالجانب الزهدى من تعاليمه . وحق أيضاً أنه كان ينوع الموضوع فيدرس الحديث والفقه والتفسير والتاريخ وأن الطلبة كانوا يختلفون اليه كل لغايته التى يسعى اليها كما يقول أبو حيان « هذا يأخذ عنه الحديث وهذا يلقن منه التأويل وهذا يسمع الحلال والحرام

---

(١) المصدر السابق (٢) المصدر السابق

(٣) كتاب اللمع ص ١٤٢ ولباب الآداب ص ٢٣٠

(٤) كتاب الإمام أبى نصر ص ١٦ (٥) الاحياء ١/٣١ ، ٦٨

وهذا يتتبع كلامه فى العربية وهذا يجرد له المقالة وهذا يحكى الفتيا وهذا يتعلم الحكم والقضاء »[١] كل هذا صحيح ولكن الحسن كان لا يرى من وراء هذا العلم إلا خدمة غاية واحدة هى تخليص النفوس وإنقاذها بوضع العلوم جميعاً فى خدمة العمل ولذلك سيطرت شخصية الزاهد فيه على كل ناحية من نواحى العلوم التى كان يدرسها وهذا ما يتضح إذا أخذنا كل واحد من تلك العلوم على حدة ودرسنا فيه مميزات الحسن وطابعه الشخصى :

(ا) الحديث والفقه :

مر بنا أن الحسن كانت له كتب أحرقها قبل موته وهذا دليل على أنه لم يكن يرتجل كل شىء ارتجالا بل احتفظ بصحف دُوِّن فيها شىء من الحديث والفقة والتفسير . وبعض الذين رووا عنه الحديث لم يسمعوا منه سماعا وإنما قرأوا عليه فى صحفه أو صحفهم . قال لأحدهم ما أبالى أقرأت علىّ فأخبرتك أو حدثتك به فقال الرجل فأقول حدثنى الحسن ؟ قال نعم قل حدثنى الحسن [٢] واستعار تلميذه حميد كتبه فنسخها ثم ردها إليه[٣] وكذلك فعل تلميذه حفص بن سليمان[٤] . ومن ثم انحدرت الأحاديث التى حدث بها كتابة وحفظا، وقالوا إن علم الحسن كان فى صحيفة مثل هذه وعقد الراوى بالإبهامين والسبابتين[٥] وذهب الذين أنكروا سماع الحسن عن سمرة بن جندب إلى أن الحسن تلقى أحاديث سمرة فى كتاب[٦] ويؤيد هذا قول تلميذه ابن عون : وجدت عند الحسن كتابه

---

(١) معجم الأدباء ١٦/٩٧

(٢) ابن سعد ٧/١٢٦

(٣) ابن سعد ٧/١٢٦ والقسم الثانى ص ١٧

(٤) ابن سعد ٧/٢١ القسم الثانى

(٥) المصدر نفسه ٧/١١٦ القسم الأول

(٦) سنن البيهقى ٨/٣٥

سمرة فقرأته عليه وكان فيه «ويجزى من الاضطرار غبوق وصبوح»[١] (اى الاضطرار إلى الميتة).

وكان العلماء المعاصرون للحسن قسمين فى رواية الحديث قسم يروى الحديث بحروفه وفيهم ابن سيرين ورجاء بن حيوة وقسم يرويه بالمعانى كالشعبي والحسن[٢] ولذلك كان الحسن إذا حدث بالحديث اختلف ظاهره اللفظى فزادت فيه ألفاظ ونقصت منه أخرى[٣] . وقص أحدهم على ابن سيرين أنه رأى فى المنام حمامة تلقم لؤلؤة فتخرج أعظم مما كانت وحمامة تلقم لؤلؤة فتخرج أصغر مما دخلت فكان من تفسيره له : أما التى خرجت أعظم مما دخلت فذاك الحسن يسمع الحديث فيجوده بمنطقه ويصل فيه من مواعظه ، وأما التى خرجت أصغر مما دخلت فهو محمد بن سيرين يسمع الحديث فينقص منه[٤] .

واشتهر عن الحسن التدليس والإرسال[٥] وهذا أمر موهم يجعل من الصعب علينا أن نعرف الرجال الذين لقيهم الحسن على التحقيق فهو يحدث أنه سمع من أبي موسى الأشعرى وأبي هريرة مع أن بعض نقاد السند أنكروا سماعه عنهما . وأنكر على بن المدينى سماعه عن عمرو بن ثعلب والأسود بن سريع وعمران بن الحصين وأبي بكرة[٦] والمعاصرة ترجح أنه سمع من هؤلاء جميعا . وليس ببعيد أن يكون الحسن قد سمع سمرة بن جندب فإن سمرة كان صاحب شرطة زياد مع أن بعضهم يذهب إلى أن

---

(١) تفسير الطبرى ٦/٤٩
(٢) تاريخ الذهبي ٤/٢٤٩ ، ١٩٣ وابن سعد ٧/١١٥
(٣) تاريخ الذهبي ٤/٩٩
(٤) تاريخ الذهبي ٤/١٩٥
(٥) المصدر نفسه ٤/٩٩
(٦) المصدر نفسه

الحسن لم يسمع منه إلا حديث العقيقة (١) . على أن شدة سمرة وسفكه للدماء لاتمنع الحسن أن يروى عنه فإنه صحابى وكان الحسن يجل كل صحابى .

وهذه الطريقة التى اتبعها الحسن فى رواية الحديث لم تكن تعجب المتشددين وربما لم تعجب ابن سيرين وتلامذته وكان بعض من سمع حديثه يقول مستهزئاً « حديث الحسن » ويضحك من ذلك (٢) . أما الحسن نفسه فلم يكن يعنى بنقد الحديث من حيث نسبته وصدق رجاله ولا كان يعنى برفعه إلى الرسول وإنما كان يعنيه معنى الحديث ومافيه من حث على الخير ومايحتويه من حكم شرعى . روى مرة حديثا فقال له رجل يا أبا سعيد عمن ؟ قال وما تصنع بعمن ؟ أما أنت فقد نالتك موعظته وقامت عليك حجته (٣) . واجتهد الذين يحبون الحسن أن يثبتوا أن الأحاديث التى رواها مرسلة وجدت لها أصول ثابتة ماخلا أربعة أحاديث (٤) . وقبل المعتدلون ماأسنده على أنه حسن حجة ورفضوا أن يكون ما أرسله حجة (٥) .

ولا شك ان انصرافه إلى الغاية الكبرى كان له أثره فى عدم تقيده بحرفية الحديث أو بذكر سنده وهذا ناشىء عن سيطرة الناحية الزهدية نفسها على جوانب شخصيته . ونظن أن مقدرته البيانية وشعوره بتلك المقدرة دفعاه إلى التصرف والتفنن فى الرواية أضف إلى ذلك شعبية المجالات التى كان يبث فيها مواعظه وتلك المجالات الشعبية لم تكن بحاجة إلى إسناد أو دقة حرفية فى الرواية . وقد نجمع إلى ذلك ضعف ذاكرته فى الشيخوخة

---

(١) سنن البيهقى ٨/ ٣٥

(٢) ابن سعد ٧/ ١٢٠

(٣) عيون الأخبار ٢/ ١٣٧ والعقد ١/ ٥ ومحاضرات الراغب ١/ ١٥

(٤) تاريخ الذهبى ٤/ ١٠٦ (٥) ابن سعد ٧/ ١١٥

وإلا فقد روى عنه أنه أنكر الزيادة أو النقصان فى الحديث وقال مستهجنا لها : ومن يطيق ذلك [١] ! واعتماده على الكتابة يؤكد أنه لم يكن يستطيع دائما الاعتماد على الذاكرة . ولا ننس أن إرسال الحديث يمثل طريقة شائعة فى عصره . أما التشدد المطلق فلعله لم يغلب إلا بعده بزمن ومن ثم نسمع أحمد بن حنبل وهو يمثل الذروة فى حركة التشدد يقول : ليس فى المرسلات شيء أضعف من مرسلات الحسن وعطاء ، كانا يأخذان عن كل أحد [٢] .

وقد أثرت طريقة الحسن فى ثلاث فئات من تلامذته ، أثرت فى ذوى الميول الأدبية فلم يتعبوا أنفسهم فى التحرى عن رواة الحديث وتركت أثرها فى ذوى النزعة الصوفية أمثال محمد بن واسع وفرقد لأن هذه الفئة كانت تروى الحديث للموعظة دون نظر إلى تجريح أو تعديل . وأثرت كذلك فى من احترف القصص وفى القصص مجال واسع لا لقبول الأحاديث مهما يكن لونها فحسب بل لوضع أحاديث تخدم الغايات القصصية . وعلى وجه الإجمال نجد كثيراً من تلامذة الحسن يضعّفون فيتهم حميد الطويل بالتدليس [٣] ويتهم مطر الوراق وعلى بن زيد بالضعف فى الحديث [٤] .

وليس للأحاديث التى يرويها الحسن طابع مميز ولكن لا شك أن الجانب الذى يتعلق منها بالزهد ورفض الدنيا والعزوف عن الإمارة ، وما يحدد منها السلوك الفاضل — كان أبلغ الجوانب أثراً فى نفسيته . أما الأحاديث عامة فمنها ومن القرآن وأعمال الصحابة الذين عاصرهم أو سمع منهم استمد أحكامه الفقهية وأصبح صاحب مذهب واضح الحدود .

---

(١) ابن سعد ٧/١١٦
(٢) تاريخ الذهبى ٤/٨٠
(٣) ابن سعد ٧/١٧ القسم الثانى
(٤) ابن سعد ٧/١٨ ، ١٩ القسم الثانى

ونستطيع أن نقيم مذهب الحسن البصرى من جديد بجمع ما فى كتب التفسير والحديث من أحكامه وفتاواه ولكن بناء هذا المذهب لن يفيد كثيراً بعد أن دخلت مادته فى مذهب أهل الرأى حيناً وفى مذهب الشافعى ومالك حينا آخر فقوله بانقطاع المؤلفة قلوبهم بعد أن عز الإسلام مشهور من مذهب مالك وأهل الرأى [١] وتفسيره صرف الصدقة فى الرقاب بشراء رقاب من مال الصدقة وإعتاقهم من مذهب مالك [٢] واستنتج الحسن من الآية «ضرب الله مثلا عبداً مملوكا لا يقدر على شىء» بأن الرق ينافى الملك وهو قول أخذ به الشافعى [٣].

وربما امتاز مذهبه ببعض جزئيات مستمدة من البيئة والظروف التى عاش فيها ولكننه تأثر عامة بسعة مجال الكراهة فى الأحكام، والكراهة لا تفيد جزماً فى طرفى الحلال والحرام ولكن الحسن يكثر منها لأن له مقياسا ذاتيا من السلوك فقد يبيح الغناء وهو يكرهه [٤] — مثلا — وعلى هذا الأساس نستطيع أن نفسر ماقد يوحى بالتناقض فى بعض أحكامه [٥] إن لم نفسره باختلاف الرواة عنه أو باختلاف أطوار الإفتاء فى حياته.

ومن الصعب ان نضع لأحكامه قاعدة عامة بحيث نقول مثلا إن التشدد صبغة تغلب عليها أو ان التساهل هو الطابع العام لها فالمسألة مسألة نسبية تقوم أحياناً على مدى الاجتهاد او على الميل الذاتى الذى يتحكم فى الفهم والتأويل او على احكام تقليدية أخذها الحسن عمن سبقوه. وإذا قسناه

(١) تفسير القرطبى ١٨١/٨ — (٢) المصدر السابق ١٤٧/١٠
(٣) المصدر السابق ١٤٧/١٠
(٤) أنظر تفسير القرطبى ٥٢/١٤ والعقد ١٠/٦
(٥) راجع كتاب المصاحف ص ١٤١، ١٤٢، ١٩١، ١٩٢

بفقهاء عصره وضح لنا هذا الجانب عنده . فكان لايفرق بين ولد الزنا وولد الرشدة الا بالتقوى بينما عطاء والشعبي لا يجيزان شهادة ولد الزنا [١] ولا يقبل شهادة القاذف والشعبي يقبلها .[٢] وقد قضى بانه لاشفعة لليهودى والنصرانى بينما قضى تلميذه وصديقه إياس بن معاوية لأحد الذميين بالشفعة[٣] وكنا ننتظر من الحسن أن تكون أحكامه المتصلة باهل الذمة أخف وطأة من أحكام غيره وأن يخضع فيها لدواعى البيئة التى عاش فيها فقد عاصر عمر ابن عبد العزيز الذى حاول ان ينصفهم ماوجد لذلك سبيلا وتتلمذ لعامر ابن عبد القيس الذى نفته الدولة الى الشام من أجل انتصاره لذمى . ولكننا نرى الحسن يجعل دية المجوسى ثمانمائة ودية اليهودى والنصرانى أربعة آلاف كأنه اعتبر المجوسى كالعبد واعتبر اليهودى والنصرانى نصف المسلم مع ان الأكثرية فى معاصريه يرون ان دية المسلم والمعاهد سواء[٤] وهو من ناحية أخرى لم يكن يرى بأسا بذبائح نصارى بنى تغلب وتزويج نسائهم[٥] وإذا قارنته بعلى فى هذه الناحية ظهر متساهلا .

وإذا تذكرنا مبدأه فى توسيع نطاق الكراهة حكمنا بأنه كان يتوخى فى آرائه الأفضل . ومن هذا القبيل أن أحدهم سأله أيتزوج الرجل الحر المرأة من أهل الكتاب فقال ماله ولأهل الكتاب وقد أكثر الله المسلمات فإن كان لا بد فاعلا فليعمد إليها حصاناً غير مسافحه [٦] .

وتلمح فى بعض أحكامه من وجهة عامة مسايرة لبعض مظاهر الحياة الاجتماعية ومتطلباتها المتجددة فلم يكن يرى بأساً بلعب الصبيان بالجوز

---

(١) سنن البيهقى ١٠/٢٤٩
(٢) تفسير الطبرى ١٨/٥٠
(٣) سنن البيهقى ٦/١٠٩
(٤) تفسير الطبرى ٥/١٢٥
(٥) تفسير الطبرى ٦/١٥٧
(٦) تفسير الطبرى ٦/٦٠

والبيض[١] بينما كان عطاء وطاووس يقولان كل قمار فهو من الميسر حتى لعب الصبيان بالكعاب والجوز[٢] . وقال له أحد البقالين إن الصبيان يأتونني ببيضتين مكسورتين يأخذون مني صحيحة واحدة فقال ليس به بأس[٣] ولم ينكر لعب الشطرنج وكره النردشير[٤] . وفي أيامه شاعت الدراهم الحجاجية وكانت دراهم بيضا قد نقش فيها آية من القرآن (قل هو الله أحد) فكان ابن سيرين يكره أخذها وإعطاءها ومسها على غير وضوء أما الحسن فكان لا يرى بها بأساً ولا يكره أخذها وإعطاءها ومسها على غير وضوء[٥]. وكثر معلموا القرآن ونشأت المشكلة أيأخذ الرجل على تعليمه أجراً ومع أن الحسن كان من ناحية مثالية يعتقد أن المعلم المثالي لا يأخذ الأجر على تعليمه فأنه لم يحاول أن يحرم المعلم اكتسابه الرزق عن هذه الطريق[٦] .

وقامت في المجتمع البصري بعض المشكلات المتعلقة بالمرأة فكان الحسن يكره التزوج من الإماء إذا استطاع المرء أن يجد الحرة ويقول إن النبي نهى أن تنكح الأمة على الحرة[٧] ولم يعجبه من المرأة كثرة ترددها على الأسواق فكان يقول أتتركون نساءكم يزاحمن العلوج في الأسواق ؟ قبح الله من لا يغار[٨] وكانت من مشكلات الحياة المختلطة أن نساء الأعاجم كن يكشفن صدورهن ورءوسهن وشكا أخوه سعيد له ذلك فقال له اصرف بصرك[٩] . وعلى الجملة لم يكن رأي الحسن الفقيه في المرأة خارجاً عن رأي الأكثرية في عصره ومن ذلك قوله « والله ما أصبح رجل يطيع امرأته فيما تهوى إلا كبه الله في النار »[١٠] . ونهى عن الوشم حتى إن رجلا سأله

---

(١) الحيوان ٢/٢٩٢
(٢) تفسير الطبري ٢/١٠٨
(٣) الحيوان ٢/٣٦٥
(٤) سنن البيهقي ١٠/٢١١
(٥) كتاب المصاحف ص ١٨٧
(٦) كتاب المصاحف ص ١٧٦
(٧) سنن البيهقي ٧/١٧٥
(٨) الاحياء ٢/٤٣
(٩) تفسير القرطبي ١٢/٢٢٢
(١٠) الدميري ٢/١٧٣

رأيه فى امرأة قشرت وجهها فقال : ما لها قبحها الله غيرت خلق الله[١] وحارب العبث المترف ، فقد سئل عن امرأة مترفة صنعت للعبها عرساً فنحرت جزورا فقال لا يحل أكلها فإنها إنما نحرت لصنم[٢] .

وفى استقصاء الأحكام والآراء التى جهر بها الحسن ما يوضح بطريق غير مباشر — كثيراً من مظاهر الحياة الاجتماعية فى مجتمع البصرة يومئذ إذ كانت الأسئلة والأحكام فى عهده ناشئة عن مشكلات تثور مع الزمن ولم تكن بعد قد أصبحت فروضاً فقهية واحتمالات بعيدة عن الواقع العلمى .

(ب) التفسير :

عدّ ابن النديم فى كتب التفسير كتاباً للحسن بن أبى الحسن البصرى[٣] وكتاباً آخر فى باب الكتب المؤلفة فى عدد آى القرآن سماه كتاب الحسن ابن أبى الحسن فى العدد[٤] . وقد احتفظ الطبرى فى تفسيره بآراء للحسن فى تفسير القرآن رواها تلامذته عنه سماعاً أو قرأوها عليه فى كتابه وليس ما يسنده الطبرى له كثيراً إذا ماقورن بما ينقله عن غيره ولعل من أسباب ذلك فقدان تفسير الحسن لما يفرده عن تفسير أستاذه ابن عباس — من وجهة عامة — وإن لم يكن من الضرورى أن يتفق هو وابن عباس دائماً فى الرأى وربما كان ذلك أيضا لأن تفسير الحسن دخل فى تفسير تلميذه قتادة — فى أغلب الأحيان — وفى مؤلفات عمرو بن عبيد تلميذ الحسن كتاب فى التفسير كما سمعه من الحسن البصرى[٤] ولا ندرى ماذا يفرق هذا الكتاب عن ذلك الذى ذكره ابن النديم . غير أن الطبرى فى إيراده

---

(١) تفسير الطبرى

(٢) تفسير القرطبى ٢/٣٢٤

(٣) الفهرست ص ٣٤

(٤) الفهرست ص ٣٧

لآراء الحسن حريص على أن يؤكد جانب الجبر فيها وهذا الاتجاه لا بد يخالف ما قد ينقله عمرو بن عبيد — وهو قدرى — فى هذه الناحية . ثم إن الطبرى لا يروى عن الحسن كثيراً من طريق عمرو مما قد يؤكد لنا أن ما احتفظ به الطبرى من آراء الحسن إنما يمثل اتجاه الفريق القائل بالجبر من تلامذته .

وفى تفسير الحسن — كما رواه الطبرى — نجد الفقيه المعنى كثيراً بآيات الأحكام والمقرىء المتفرد بمذهب فى القراءة واللغوي الذى يهتم كثيراً بمعانى الألفاظ . ويدلنا هذا التفسير أيضا على أن الحسن كان قد برع فى كل مايتصل لعهده بالقرآن من معرفة للنزول ومناسباته وربط بين الناسخ والمنسوخ والتفرقة بين المكى والمدنى فى الآيات . كما يكشف عن ميل إلى القصص الدينى لأن القصص كان متصلا بحياته الوعظية ولكن نصيبه فى هذه الناحية أقل من أرباب القصص كابن عباس ووهب والسدى وغيرهم . وهو مشغول مثلهم بتقرير المدة التى لبثها ذو النون فى بطن الحوت وبمعرفة لون الثياب التى خرج فيها قارون على قومه[1] مهتم بشخصية سليمان لأنه يمثل فى نظره ما يجمعه الله للعبد من حكمة وملك وسليمان هو الانسان الوحيد الذى أعطاه عطية هنيئة لم يجعل عليه فيها حساب ولا تبعة[2] وذلك الحساب وتلك التبعة هما اللذان كانا يعانيهما الحسن فى رجولة مستقوية كلما فكر فى نعم الله على النـــاس . والقصص التى يرويها عن سليمان كثيرة نسبيا[3] .

---

(١) تفسير الطبرى ٢٠/٦٧

(٢) تفسير النيسابورى على هامش الطبرى ٢٣/١٠٤ .

(٣) انظر مواطن متفرقة فى الجزء الأول من تاريخ الطبرى وراجع تهذيب ابن عساكر ٢/٣٤٤ ، ٣٨٥ ، ٣/١٩٥ ، ٦/٢٥٠ — ٢٦٥ فى قصصه عن آدم وأرميا وأيوب وسليمان .

أما ميزته الكبرى فى التفسير فهى ذلك اللون المبنى على التذوق للآية وماتتركه من أثر فى نفسه ثم التعبير عن هذا الأثر تعبيراً فنياً . فهو لا يفسر الآية نفسها وإنما يترجم عن الإحساسات التى نبض بها قلبه حين قرأها . وإليك أمثلة من ذلك :

١ — تلا قوله تعالى « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين » ثم قال : « هذا حبيب الله ، هذا ولى الله ، هذا صفوة الله ، هذا خيرة الله ، هذا أحب الخلق إلى الله . أجاب الله فى دعوته ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته وعمل صالحا فى إجابته وقال إننى من المسلمين فهذا خليفة الله »[١] وإنك لتلحظ فى هذه القطعة اندفاع الحسن وحماسته ومحاولته أن يعبر عن إعجابه بالشخصية التى تصفها الآية فى أسلوب قوى مندفع .

٢ — وقال بعد أن تلا « فلا تغرنكم الحياة الدنيا » : من قال ذا ؟ قاله من خلقها ومن هو أعلم بها ، إياكم وما شغل من الدنيا فإن الدنيا كثيرة الأشغال لا يفتح رجل على نفسه باب شغل إلا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب[٢] .

٣ — وقرأ « عن اليمين وعن الشمال قعيد » فقال : يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك وأما الذى عن شمالك فيحفظ سيئاتك فاعمل بما شئت أقلل أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت فى عنقك معك فى قبرك حتى تخرج يوم القيامة فعند ذلك يقول « وكل إنسان ألزمناه

---

(١) تفسير الطبرى ٢٤/٧٥ (٢) الاحياء ٣/١٨١

طائره فى عنقه . . الآية إلى حسيبا » عدل والله عليك من جعلك حسيب نفسك[١] .

وإذا شئنا الدقة لم نسم هذا تفسيراً لأن الحسن لا يحاول شرح النص إذ يجد المعنى واضحاً فى نفسه فيكتفى باستخراج الموعظة منه وهذا نوع من التعليق والتعقيب يتصل بمقدرته البيانية وميله إلى الموعظة ولذلك كان الناس يحبون طريقته هذه لأنهم يجدون فيها مادة التأثير الفنى لا المادة التى يستعملها القصاص ، أى أن الحسن كان يتلاعب بالمشاعر أما القصاص الآخرون فكانوا يتلاعبون بالصدق العقلى . على أنا لا نبرىء الحسن تماماً من التهويل القصصى فقد نجد له مثل قوله « تنضج النار كل يوم سبعين ألف جلدة فى غلظ جلد الكافور أربعون ذراعاً[٢] وتأتى بعض تعليقاته شبيهة بالتوقيعات الموجزة ومن ذلك .

١ — قرأ « أنا أنبئكم بتأويله » فقال كيف ينبئهم العلج[٣] !

٢ — وقرأ قول أبناء يعقوب لأبيهم « قالوا إنك لفى ضلالك القديم » فقال هذا عقوق[٤] .

وتلمح فى هذه التعليقات اتجاه الحسن الدينى والأدبى وعلى وجه خاص جانب الحدة والعنف . ومن أمثلة هذه الحدة تعليقه على قول الله حاكيا عن اليهود « وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد » إذ يقول كانوا نتانى أهل كراث وأبصال وأعداس فنزعوا إلى عكرهم عكر السوء واشتاقت طباعهم إلى ما جرت عليه عادتهم فقالوا لن نصبر على طعام واحد » .

---

(١) تفسير الطبرى ٣٦/١٠٠ — (٢) تفسير الطبرى ٥/٨٤

(٣) تفسير القرطبي ٩/٢٠٢ — (٤) تفسير القرطبى ٩/٢٦١

وأحياناً يستغل الحسن مواهبه القصصية فى تحليل الآية حتى ليخيل لسامعه أنه يسرد قصة فيها الحوار والأشخاص فإذا انتهى من التحليل استسلم إلى التعليق الصارم العنيف . وخير مثال على ذلك ما قاله بعد أن تلا آية « إنا عرضنا الأمانة » ونصه : عرضها على السموات السبع الطباق والطرائق التى زينها بالنجوم وحملة العرش العظيم وقال لها سبحانه هل تحملين الأمانة بما فيها قالت وما فيها ؟ قال إن أحسنت جوزيت وإن أسأت عوقبت فقالت لا . ثم عرضها كذلك على الأرض فأبت . ثم عرضها على الجبال الشم الشوامخ الصلاب الصعاب فقال لها هل تحملين الأمانة بما فيها وذكر الجزاء والعقوبة فقالت لا . ثم عرضها على الإنسان فحملها . إنه كان ظلوماً لنفسه جهولا بأمر ربه(١) . وبعد أن انتهى من قصته تذكر حال الإنسان الظلوم الجاهل فحمل عليه حملة عنيفة وصوره بأشنع صورة من الجشع فى الأموال والأبنية وفى التعرض لباب السلطان والتفنن فى الطعام ثم ذكره أمر اليتيم والأرملة والمسكين(٢) وقد استخرجت هذه الطريقة من ملكات الحسن ميله إلى الاسهاب حين يأخذ الشىء بثوب القصة ثم أظهرت مقدرته على التعليق الحاسم الحاد ، وهى مقدرة تظهر فى الحكم على الأشخاص والأحداث .

وإلى جانب روح الموعظة التى تسيطر عليه فى التفسير خضع أيضاً لبعض مظاهر الحياة البصرية فى فهمه للآيات وهذا شىء يتصل بالناحية الفقهية عنده . وفى تفسيره «اثنان ذوا عدل منكم (أى من عشيرته) وآخران من غيركم (من غير عشيرته) (٣) » اعتبار للحياة القبلية فى البصرة . كما أثرت فلسفته فى الأمور المادية فى توجيه تفسيره كثيراً فقد فهم من قوله تعالى

(١) الاحياء ٣/٧٦ . (٢) تفسير القرطبى ٧/٦ (٣) تفسير الطبرى ٧/٦٤

« ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » — فهم منه أن يتمنى المرء مال فلان « وما يدريك لعل هلاكه فى ذلك المال[١] . وتأثر تفسيره بنظرته إلى النواحى السياسية فاملى عليه ضعف شعوره مع الدولة وقلة احترامه لها أن يفسر « أولى الأمر » فى القرآن بأنها تعنى العلماء لأنه يراهم أصحاب السلطان الحقيق[٢] . وهو رأى يروى عن مجاهد ولكنه لا ينفى تمسك الحسن به وقد أكده عدم إيمانه بعدالة الدولة .

وهو يتردد فى تفسيره بين الشخصية المتخيلة وتلك التى تجنح إلى الواقعية فى كثير من الأمور . فإذا أرخى لنفسه العنان فى القصص أو أطلق تصوره حراً فى فهم مظاهر الطبيعة كقوله « نار السموم » نار دونها حجاب والذى تسمعون من انغطاط السحاب صوتها[٣] ، وكتفسيره « يزيد فى الخلق ما يشاء » بأنه أجنحة الملائكة[٤] إذا فعل ذلك كان أقرب إلى الشخصية المتخيلة . وتتجلى واقعيته فى اعتقاده أن المائدة لم تنزل لأن تبعتها كانت ثقيلة[٥] . وأن الذبح الذى فدى به ابن إبراهيم إنما كان تيسا من الأروى هبط عليه من ثبير[٦] وأن الإسراء كان بالروح دون أن ينتقل الجسد من مكانه ولذلك يصرف قوله تعالى « ثم دنا فتدلى » وقوله « فأوحى إلى عبده ما أوحى » يصرفه إلى جبريل[٧] .

ونلمح لديه نزعة من التشدد فى التنزيه تجعلنا نعده طليعة للمعتزلة فى هذه الناحية . فهو لا يرضى أن يأخذ الآية « يخادعون الله وهو خادعهم » على

---

(١) تفسير الطبرى ٥/٢٩

(٢) تفسير الطبرى ٥/٨٧

(٣) تفسير القرطبى ١٠/٢٣

(٤) المصدر السابق ١٤/٣٢٠

(٥) تفسير الطبرى ٧/٨١

(٦) تفسير الطبرى ٢٣/٥٠ ، ٥١

(٧) تفسير القرطبى ١٠/٢٠٨

ظاهر النسبة إلى الله بل يرى فيها حذفا تقديره « يخادعون رسول الله »[١] ويفسر نور الله فى قوله « مثل نوره كمشكاة » بأنه القرآن[٢] ويأبى أن يصدق أن إخوة يوسف سجدوا له كما يسجد الناس لله بل أن سنتهم فى السلام كانت إيماء برءوسهم وهذا ما كانوا يسمونه السجود[٣] .

(حـ) التـاريخ:

ونظر الحسن إلى التاريخ أيضاً من خلال الموعظة فكان يختار الحادثة لغاية معينة ويكسبها من تصوره ومزاجه النفسى مايخرجها مخرج الحقيقة الذاتية ، وكثيراً ماتصبح الأشخاص والأحداث فى يدى الواعظ عبرة ودرسا ولا يكون للتاريخ فى ذاته قيمة إلا بمقدار مايخدم الجماعة بالعبرة والدرس ولا يهم الواعظ بعد ذلك مقدار الإحالة لأنه مشغول بالغاية عن الحادثة وأبرز مثال لهذه الناحية عند الحسن وصفه لجيش العسرة . لاريب أن الظروف التى اجتمع فيها جيش العسرة كانت حرجة ضيقة ولكن الحسن لا يقبل أن يتصور هذه الحادثة على طبيعتها لأن غايته أن يبرز أقصى نوع من التفانى والتضحية فيقول « وكان زادهم التمر (المتسوس) والشعير (المتغير) والإهالة (المنتنة) وكان النفر يخرجون مامعهم إلا التمرات بينهم ، فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها (ثم يعطيها صاحبه) حتى يشرب عليها جرعة من ماء كذلك (حتى تأتى على آخرهم) »[٤] فانظر إليه كيف لم يرض خياله أن يكون التمر تمراً صالحاً للأكل والشعير فى حالة طبيعية والإهالة سليمة غير متعفنة ، وكيف تصور التمرة الواحدة تتناقلها

---

(١) المصدر نفسه ١/١٩٥
(٢) تفسير الطبرى ١٨/٩٥
(٣) تفسير القرطبى ٩/٦٥
(٤) تفسير القرطبى ٨/٢٧٩

الأفواه ، تحكم من هذا كيف غفل الحسن عن مقتضى الطبائع الإنسانية لأن الدرس المستفاد هو غايته من القصة . ومن هذه الطريقة يتضح لنا أثر الحسن فى توجيه التاريخ وكيف زاد فى حدة الالتفات إلى المثل الأعلى الذى يمثله عهد الرسول والصحابة . وسواء أكان الحسن هو صاحب هذه الطريقة أم هو متأثر فيها بمن سبقوه فى اتجاهه إليها مايفسر ميل الواعظ عنده .

أضف إلى ذلك أنه اتخذ طبيعته الزاهدة آلة استقبال فرحبت بما يناسبها من طبائع وخصائص وأحداث ولم تكترث بما عدا ذلك ، وهذه الطبيعة الزاهدة هى التى التقطت أخبار زهد الرسول وصورت عزوفه عن الدنيا [١] وهى التى رأت فى عمر بن الخطاب مثلا أعلى واعتبرته قد فضل الصحابة جميعاً لا لطول الصلاة وكثرة الصيام ولكن لأنه كان أزهدهم فى الدنيا وأشدهم فى أمر الله[٢] .

وليس هذا القسط من الروايات التى جاءتنا عن طريق الحسن قليلا ولكن ليس كل مايرويه مطبوعاً بطابع الوعظ فالتاريخ مدين له — وربما بصورة غير مباشرة — بروايات كثيرة عن عهد الرسول بحكم تفسيره للقرآن وبروايات أخرى عن بيعة أبى بكر ومقتل عمر وقصة الشورى وعن الأحداث فى عهد عثمان وعن يوم الدار[٣] .

فإذا وصل فى تاريخ الأحداث إلى عثمان أنكر المآخذ التى أخذها الناس عليه فذهب إلى أن عثمان لم يخرج أبا ذر إلى الربذة وإنما خرج إليها أبو ذر بنفسه تصديقا لحديث كان قد سمعه من الرسول [٤] . ولم يقل كما قال غيره من الرواة إن الناس رضوا عن عثمان ست سنين بل قال إن عثمان أمضى

(١) تاريخ الذهبى ١/٢٧٤ (٢) العقد ٤/٢٧٠
(٣) العقد ٤/٢٥٦ ، ٢٩٢ (٤) تاريخ الذهبى ٢/١١٥

اثنتى عشرة سنة والناس لاينكرون من إمارته شيئا [١] وكان يشمت بمن يقتل من قتله عثمان أو ممن شاركوا بشىء ضده يوم الدار، ولما قتل محمد بن أبى بكر كان الحسن يروى قصته ويقول أخذ الفاسق ابن ابى بكر (وكان لايسميه باسمه) فجعل فى جوف حمار ثم أحرق عليه [٢]. وهذه العثمانية قويت فى نفسه فى البيئة البصرية كما وضحت عنده الصبغة التميمية بسبب ذلك أيضا فأساتذته من تميم كثيرون وعنهم اقتبس القصص والقراءة. وكان فى بعض النواحى الخلقية يحاول أن يكمل السيرة الفاضلة التى يمثلها قيس بن عاصم التميمى والأحنف بن قيس التميمى فى الحلم. وربما قوى إقبال الفرزدق عليه تصورنا لتلك الصبغة التميميـــة ولكن علينا ألا نسرع إلى الظن بأن هذه الصبغة كانت تعنى تحيزاً قبلياً فمثل هـذا الظن لايدل على فهم صحيح لنفسية الحسن .

وبعد مقتل عثمان أخذت ملكة النقد عند الحسن تنشط من عقالها وكان يصرفها تحت قناع من فلسفته الزهدية. وفى ظل هذا المبدأ انتقد الزبير وعليا وأراد لهما ماأراد لنفسه من عزوف عن الدنيا وبعد عن إمرة الناس. فهو يقول فى الزبير ياعجبا للزبير أخذ بحقوى اعرابى من بنى مجاشع أجرنى أجرنى حتى قتل والله ما كان له بقرن. أما والله لقد كنت فى ذمة منيعة [٣]. ويقول فى على: لو كان على بالمدينة يأكل من حشفها لكان خيراً له مما صنع [٤]

(١) تاريخ الذهبى ٢/١١٥

(٢) ابن سعد ٣/٥٨ القسم الأول، وأنساب الأشراف ٥/١٠٣

(٣) ابن سعد ٣/٧٩ القسم الأول

(٤) البيان ٢/١٠٩ وفى أمالى المرتضى ١/١٢٣ أن عليا هو الذى قال وددت أنى كنت آكل الحشف بالمدينة ولم أشهد مشهدى يوم صفين وأن الحسن كان يروى هذا القول كما يروى قول على فى ابن عباس « يفتينا فى القملة والقميلة وطار بأموالنا فى ليلة . »

وينكر الحكومة ولا يرى رأى أهلها — « وكان إذا جلس فتمكن فى مجلسه ذكر عثمان فترحم عليه ثلاثا ولعن قتلته ثلاثا ويقول لو لم نلعنهم للعنا ثم يذكر عليا فيقول لم يزل على أمير المؤمنين صلوات الله عليه مظفرا مؤيدا بالنعم حتى حكم ثم يقول ولم تحكم والحق معك ؟ ! امض قدما لا أبالك »[١].
وإنكاره الحكومة فى عصره لم يكن بالأمر السهل لأن هذا الرأى كان يقربه من الخوارج . ثم هو ينقل الروايات المتعلقة بعلى عن قيس بن عباد وابن الكواء ، وكلا الرجلين غير محبوب فى المقامات التى تحب عليا ، كأن الروايات المنقولة عنهما ترمى إلى تأكيد شيئين : الأول إقرار على نفسه بأفضلية أبى بكر وعمر والثانى تصوير على فى صورة النادم على خوض الحرب الأهلية ومن ذلك ان الحسن روى عن قيس بن عباد أن عليا قال يوم الجمل لابنه الحسن « ياحسن ليت أباك مات منذ عشرين سنة فقال له ياابت قد كنت أنهاك عن هذا قال يابنى لم أر أن الأمر يبلغ إلى هذا[٢] .

ولهذا اتهم أبو سعيد بكرهه لعلى وبأنه يذم ابن عباس ولكن هذا مبالغة فى حقيقة الأمر ، فالحسن البصرى لم يكره عليًّا ولم يذم ابن عباس ولكن المتعصبين لعلى لم يروا فى الحسن حماسة مثل حماستهم لعلى فاتهموه بذلك ، بل كان يعرف فضائل على ويرى فيه « سهماً من مرامى الله (وربانى هذه الأمة وذا فضلها وسابقتها وذا قرابتها من رسول الله) غير سئوم لأمر الله ولا سروقة لمال الله أعطى القرآن عزائمه فيما عليه وله ، فأحل حلاله

---

(١) الكامل ٣/٩٥٠ والعقد ٢/٢٣٥
(٢) تاريخ الذهبى ٢/١٥١

وحرم حرامه ، حتى أورده رياضاً مونقة وحدائق مغدقة »(١) وكان يقول في ابن عباس « إن ابن عباس كان من الإسلام بمكان ، إن ابن عباس كان من العلم بمكان ، وكان والله له لسان سئول وقلب عقول وكان والله مثجاً يسيل غرباً »(٢) ومع أن الحسن في هذين القولين لم يصرح بحبه لعلى وابن عباس فإن هذا النوع من الشخصية كان يعجبه ولا يبعد أن يحمل له الحب الخالص . ولكننا لا نستطيع أن ننفي عنده فتور الحماسة للعلويين ، وهذا الفتور صرفه عن توجيه بعض الآيات القرآنية نحوهم كما كان يفعل المحبون لهم فهو إذا فسر قوله تعالى قل « لا أسألكم عليه من أجر إلا المودة في القربى » ذهب إلى القول بأن معناه التقرب إلى الله والتودد إليه بالعمل الصالح وفهم الآية بعضهم على أنها تعنى الميل إلى أقرباء الرسول(٣) . ومع أن الحسن تأثر بابن عباس لانجده يسند إليه شيئاً كثيراً مما أخذه عنه .

وقد انقسم أتباع على في نظرهم إلى الحسن فريقين : فريق — ولعله من متشيعة المعتزلة — آثر ألا يتهم الحسن بانحرافه عن على فزعم أنه كان إذا تحدث عنه أيام بنى أمية لم يذكره باسمه بل يقول : قال أبو زينب(٤) وهو زعم متهافت ففي مرويات الحسن ذكر صريح لعلى كما أن التصريح باسمه لم يكن يعرض الحسن لشيء من الخطر . وعلى يد هذا الفريق تبلورت تلك الرواية التي تصور الحسن في مجلس الحجاج والحديث يدور حول على فيذمه الحجاج ويداريه الفقهاء إلا الحسن ، فإنه ينطلق بالثناء عليـــه حتى يغضب الحجاج وينسحب من مجلسه(٥) . وأوردوا على لسانه إقراره بأن كل

---

(١) البيان ٢/١٠٩
(٢) البيان ١/٩٩
(٣) تفسير الطبرى ٢٥/١٦
(٤) أمالي المرتضى ١/١١٢
(٥) الأحياء ٢/٣٠٣

ما حدث به عن الرسول حديثاً غير مرفوع فإنما هو عن عليّ خوفاً من الحجاج وبنى أمية (١) وصوروه ناقماً على بنى أمية رضاهم بقتل الحسين وأنه قال : لو كنت ممن رضى بقتل الحسين وعرضت عليه الجنة ما قبلتها حياء من المصطفى (٢) . أما الفريق الثانى ، فهو من متشيعة الصوفيين الذين نصبوا من العلويين أنصـــاراً لفكرة الرجاء مقاومة لفكرة الحسن القائمة على الخوف . فعلى بن الحسين إذا سمع قول الحسن : ليس العجب ممن هلك كيف هلك وإنما العجب ممن نجا كيف نجا قال يرد على ذلك : ليس العجب ممن نجا كيف نجا إنما العجب ممن هلك كيف هلك مع سعة رحمة الله(٣) وإذا رأى على أن الحسن بمجلسه فى مكة قد منع الناس من الطواف أفهمه أن الطواف خير من قصصه (٤) . بل إن طفلا من آل على استطاع أن يفهم الحسن ملاك الدين وآفته(٥) .

وفى تاريخ الفترة الأموية نجد للحسن آراء صائبة تدل على دقة فهمه للأحداث والأشخاص كقوله فى سياسة زياد والحجاج ، تشبه زياد بعمر فأفرط وتشبه الحجاج بزياد فأهلك الناس(٦) ولما اختلف الناس بعد أن اعتزل معاوية بن يزيد الخلافة ورأى الحسن اختلافهم قال : أفسد الناس اثنان عمرو بن العاص يوم أشار على معاوية برفع المصاحف فحملت وقال أين

(١) تهذيب التهذيب هامش ٢/٢٦٦

(٢) المناوى : الكواكب الدرية ورقة ٩٦ مخطوطة بدار الكتب رقم ٤٥١٥

(٣) أمالى المرتضى ١/١١٣

(٤) المصدر السابق ١/١١٣ وفى تاريخ اليعقوبى ٢/٢٩٢ جرى حديث مشابه لهذا على لسان الحسين به على نفسه فيه تبكيت للحسن ويمكن إضافته إلى الرواية العلوية التى تدور حول الحسن .

(٥) الرسالة القشيرية ص ٥٠٤ وشرح النهج ٣/٦٣ (٦) البيان ٢/٦١

القراء فحكم الخوارج فلا يزال هذا التحكيم إلى يوم القيامة ؛ والمغيرة بن شعبة فإنه كان عامل معاوية على الكوفة فكتب إليه معاوية إذا قرأت كتابى هذا فأقبل معزولا فأبطأ عنه فلما ورد عليه قال ما أبطأ بك؟ قال أمر كنت أوطئه وأهيئه قال وماهو ؟ قال البيعة ليزيد من بعدك . قال أو فعلت؟ قال نعم . قال ارجع إلى عملك فلما خرج قال له أصحابه ما وراءك؟ قال وضعت رجل معاوية فى غرز غى لا يزال فيه إلى يوم القيامة — قال الحسن فمن أجل ذلك بايع هؤلاء لأبنائهم ولولا ذلك لكانت شورى الى يوم القيامة [١] .

ولا تخلو الروايات التاريخية التى تتحدث عن علاقته بالعصر الأموى من نزعة عراقية تعلن سخط الحسن على أهل الشام فقد كان يرى — إن صدقنا ما جاء على لسانه — أن أهل الشام لايتورعون عن أى منكر إذا ألقمهم الحجاج دنياه [٢] . ويصرح بمقته لهم لأنهم استباحوا المدينة « حتى إن الأقباط والأنباط ليدخلون على نساء قريش فينتزعون خمرهن من رءوسهن وخلاخلهن من أرجلهن بسيوفهم على عواتقهم وكتاب الله تحت أرجلهم » [٣] ونحن لا نريد أن ننفى عن الحسن كرهه لأهل الشام أو لبنى أمية من ورائهم ولكن ليس من الضرورى — مع هذا الكره — أن تكون هذه التهم تاريخية أو مما قاله الحسن نفسه وهنا يحق لنا أن نعتقد أن الحسن اتخذ سنداً لتلك الروايات العباسية التى ألفت لتشوه سمعة الأمويين عامة وأهل الشام خاصة .

---

(١) تاريخ الذهبى ٣/٩١—٩٢ (٢) ابن سعد ١٢٠/٧
(٣) ابن خلكان ٢٨١/٣

(٣)
موقفه من مشكلة القَدر

توصل الباحثون فى نشأة القول بالقـدر إلى نتائج غير محدودة بصفة الجزم بعد أن درسوا الآيات التى تشير إلى الجبر وحرية الإرادة ووقفوا عند الأحاديث التى لهـا صلة بالموضوع فقرر جولدتسيهر أن هذه المسألة يستخلص بشأنها من القرآن تعاليم متناقضة [١] واعتمد على بحوث هوبرت جرّمه الذى تعمق فى تحليـل علم الـكلام القرآنى ووجد إيضاحاً منيراً للمسألة حين درس مشكلة القدر دراسة تاريخية وبين أنها ترجع إلى أزمان مختلفة ففى العصر المكى كان الطابع العـام لتعاليم النبى هو حرية الاختيار ولـكنه فى المدينة أخذ يتوغل شيئاً فشيئاً فى الجبر [٢] وبينما يؤيد جولدتسيهر بعض الأحاديث ذات الصبغة الجبرية الظاهرية تأويلا يبطل لها مظهرها ويكشف عن حقيقتها نرى باحثاً آخر [٣] يحاول أن يغلب مسألة الحرية على الآيات القرآنية ويعتقد أن الجبرية موجودة على أشدها فى الأحاديث تتمة للمفهومات الجاهليـة التى كانت تتعلق بمعنى الدهر وتتحدث عن الرزق والأجل ويرى أن تلك الأحاديث ليس من الضرورى أن تكون أحاديث صحيحة لـكنها لما لاءمت الروح العربية اتخذت طابعاً مقدسا [٤] .

---

(١) اجناتس جولدتسيهر: العقيدة والشريعة ص ٧٩ الترجمة العربية

(٢) المصدر السابق ص ٨٣

(٣) هو الأستاذ مونتجمرى وات فى كتابه
Free will and Predestination in Early Islam

(٤) انظر الفصل الثانى من المصدر السابق ص ١٢ — ٣١

على أن الاتفاق يكاد يكون تاما — بين الباحثين — فيما يتعلق بنشأة القول بالقدر فى الجو الشامى وتأثر هذه النشأة بالآراء المسيحية وخاصة آراء يوحنا الدمشقى [١] ويرى كريمر أن علماء المسلمين القدامى تلقوا من علماء الكلام أو اللاهوت المسيحيين ما حملهم على الشك فى القدر الأزلى المطلق [٢] وفى المصادر العربية نفسها مثل هذا الميل إلى ربط صلة القدر بالمسيحيين فى عهد مبكر من الاحتكاك بينهم وبين المسلمين فيروى مثلا أن عمر بن الخطاب قال فى خطبته بالجابية « يهدى من يشاء ويضل من يشاء » وكان الجاثليق حاضراً فتمتم بلغته شيئا فسأل عمر عن أمره فقيل له إنه يقول « إن الله لا يضل » [٣] / وتصل هذه المصادر بين القدر والمسيحية فى العراق وتحدثنا أن أول من قال به رجل يسمى سنهويه (أو سوسن [٤]) ، وأن هذا الرجل أسلم ثم تنصر وهو الذى أثر فى معبد الجهنى [٥] وكان القدر فى بادىء الأمر مقصوراً على هذين حتى إن ابن عون الذى ولد قبل الطاعون الجارف بثلاث سنين (حوالى ٦٦ هـ) أدرك الناس وما يقول أحد بالقدر فى البصرة إلا هذان الرجلان [٦] . ويلتقى هذا الخط العراقى بخط آخر شآمى يقف فيه غيلان الدمشقى وصالح بن سويد أبو عبد السلام اللذان ظهر نشاطهما أيام عمر بن عبد العزيز ويقال إن غيلان تأثر بمعبد وآرائه وبذلك يكون القدر فى هذه المرحلة قد جاء الشام من العراق . ومن

---

(١) انظر Macdonald : Mus. Theology p. 131. وتبين كتابات يوحنا الدمشقى أن الخلاف الرئيسى بين الاسلام والمسيحية هو مسألة الجبر وحرية الارادة .

(٢) جولدتسيهر ص ٨٤ (٣) تهذيب ابن عساكر

(٤) ورد كذلك عند ابن قتيبة فى المعارف وعند الذهبى فى تاريخه ٣/٣٠٥

(٥) ابن سعد ٧/٢٧ القسم الثانى (٦) المصدر نفسه

معبد امتد التأثير فى البيئة البصرية إلى الحسن البصرى فيما يقال ، لأن معبداً ظل يتلطف للحسن حتى استماله إلى رأيه(١) .

أما المادة المتصلة بالحسن فى هـذه المشكلة فيمكن تنسيقها فى تيارات ثلاثة يستند فيها كل تيار إلى مجموعة من الروايات، ومن الخير — قبل أن نحكم بشىء فى المسألة — أن نفضل بين التيارات نفسها :

(ا) هناك روايات تذهب إلى أن الحسن لم يقـل بالقدر أصلا وقد أخطأ من نسب القول به إليه — عفواً أو عمداً — وإن أهل القدر انتحلوه ليزيد من شأنهم إلا أن قوله فى الواقع كان مخالفا لأقوالهم . والناقلون لهذه الروايات من تلامذته هم حميد الطويل وخالد الحذاء وأبو هلال وعمر مولى غفرة وابن عون والأول والأخـير كانا من تلامذته الملازمين له فأولها وهو حميد جلس إليه ونسخ كتبه وثانيهما تعلق بابن سيرين المشهور بعدائه للقدرية وكلا الرجلين — حميد وابن عون — اشتهر فى المجتمع البصرى بالمقت الشديد للقدرية حتى كان ابن عون إذا مرّ بأصحاب القدر لا يسلم عليهم . أضف الى ذلك أن حميدا لم يكن يزيد شيئا على مرتبة الواعظ الذى يستميل العوام ولذلك يصفـه إياس بن معاوية بانه تمر ينتفع به العامة(٢) ويصف طريقته فى القدرة على مراضاة العوام وحل مشاكلهم بالنزول إلى مستواهم(٣) .

وقد تعلق هؤلاء الرواة لدحض القدر عن أستاذهم باقواله وأعماله فروى حميد عنه قوله : الله خلق الشيطان وخلق الخير والشر(٤) . وأوردوا

(١) تاريخ الذهبى ٣/٣٠٥ (٢) المعارف ص ٢١١

(٣) تاريخ بغداد ٦/١٢

(٤) تاريخ الذهبى ٤/١٠٤ وتهذيب ابن عساكر ٢/٣٦٠

له فى التفسير ما يدل على قوله بالجبر ففى تفسير «كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين» قال هو الشر سلكه الله فى قلوبهم(١). وفى تفسير «ما أنتم عليه بفاتنين إلا من هو صال الجحيم» قال ما أنتم عليه بمضلين إلا من كان فى علم الله أنه سيصلى الجحيم(٢). وسأله خالد الحذاء أ آدم خلق للسماء أم للأرض فقال للأرض خلق قال خالد أرأيت لو اعتصم فلم يأكل من الشجرة قال أبو سعيد لم يكن بد من أن يأكل منها(٣). وروى عنه ابن عون أنه قال من كذب بالقدر فقد كفر(٤). ودخل عليه أبو هلال يوم جمعة فقال له أما جمعت؟ قال أردت ذلك ولكن منعنى قضاء الله(٥). وكان من أقواله أيضا: إن الله خلق الخلق والخلائق فمضوا على ما خلقهم عليه فمن كان يظن أنه مزداد بحرصه فى رزقه فليزدد بحرصه فى عمره أو يغير لونه أو يزيد فى أركانه أو بنانه(٦).

وأيدت هذه الفئة رأيها بما سمعته من أقوال الحسن فى ذم أهل الأهواء: وأهل الأهواء اصطلاح ينطبق على المرجئة والحرورية والقائلين بالقدر وفى هذه الأقوال نجد الحسن يعادى القول بالرأى ويراه داعية إلى التفرقة وينهى عن مجالسة أهل الأهواء ومجادلتهم والسماع منهم(٧) ويذم صاحب البدعة(٨) بل نسبوا إليه أنه جادل قدرياً حتى أرجعه عن رأيه.

ومن أجل تبرئته تماماً من هذه التهمة طعنوا فى عدالة الذين خالفوهم فى الرأى فاتهموا معبداً بأنه كان يكذب على الحسن ويحتال لذلك حيلة قد

---

(١) تاريخ الذهبى ٤/١٠٥
(٢) تفسير الطبرى ٣/٦٣٢
(٣) تاريخ الذهبى ٤/١٠٥
(٤) المصدر نفسه
(٥) المصدر نفسه
(٦) ابن سعد ٧/١٢٧
(٧) انظر الاعتصام ١/٥٧ وابن سعد ٧/١٢٥ والأحياء ١/٨٤
(٨) الاعتصام ١/٥٧
(٩) الاحياء ١/٨٥

تخفى على السامع فقد سئل عن مسألة فقال هو من رأى الحسن فقال له سائله إنهم يروون عن الحسن خلاف هذا فقال إنما قلت هو من رأيي الحسن[١] وطعنوا كذلك فى عمرو بن عبيد وشوهوا شخصيته وألصقوا به سب بعض الصحابة والتقليل من أقدار البعض الآخر واتهموه بالكذب على الحسن نفسه حتى قال حميد — بطل هذا الجانب فى الخصومة — لأحدهم لاتأخذ عن هذا (يعنى عمراً) شيئاً فان هذا يكذب على الحسن — كان يأتى الحسن بعدما أسن فيقول يا أبا سعيد أليس تقول كذا وكذا للشىء الذى ليس من قوله فيقول الشيخ برأسه هكذا [٢] . ونسبوا إلى عمرو بن عبيد فى روايته عن الحسن أحاديث لا يقبلها العقل ليزيدوا التشكيك فيه مثل «إذا رأيتم معاوية على المنبر فاقتلوه» [٣] . ورددوا تخوف الحسن من سوء خاتمته وأنه أثنى عليه بأنه سيد شباب أهل البصرة إن لم يحدث[٤] . ونسبوا إليه قوله قبيل وفاته «ألا وإنى خائف عمرا»[٥] .

وأشد من هذا كله أنهم استدرجوا عمراً حتى أقر على نفسه بكذبه على الحسن . فقد كان ذات يوم جالساً على دكان عثمان الطويل فأتاه رجل فقال يا أبا عثمان ماسمعت من الحسن يقول فى قول الله عز وجل : «قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم» قال أتريد أخبرك برأى حسن قال لا أريد إلا ماسمعت من الحسن قال عمرو : سمعت الحسن يقول كتب الله على قوم القتل فلا يموتون إلا قتلا وكتب على قوم الهدم فلا يموتون إلا هدماً وكتب على قوم الغرق فلا يموتون إلا غرقاً وكتب

---

(١) الاعتصام ١٣٢/١ .
(٢) تاريخ بغداد ١٨٠/١٢
(٣) المصدر نفسه ١٨١١/٢
(٤) المصدر نفسه ١٧٠/١٢
(٥) العقد ٣٨٦/٢

على قوم الحريق فلا يموتون إلا حرقاً . فقال له عثمان الطويل يا أبا عثمان ليس هذا قولنا . قال عمرو قد قلت أريد أن أخبرك برأى الحسن فأنا أكذب على الحسن [١] .

(ب) وهناك روايات تنسب إلى الحسن القول بالقدر حيناً ثم الرجوع عنه وبطل هذه الروايات تلميذه أيوب السختيانى الذى تتلمذ للحسن حين كان الحسن شيخاً كبيراً وهذه حقيقة هامة تستطيع أن تقرب لنا تاريخ اعتماد الحسن للقول بالقدر إن صحت روايات أيوب عنه . وأيوب يشبه ابن عون من حيث كرهه للقدرية وملازمته لابن سيرين . أما الروايات التى نقلت عنه فتنص على علاقة قامت بين الحسن ومعبد الجهنى وأن معبداً استطاع أن يجتذبه إلى مبدئه [٢] ، ومعبد الجهنى قتل فى زمن عبد الملك بعد سنة ٨٢ هـ بقليل ثم يحدثنا أيوب أنه نازل الحسن فى القدر غيرة مرة ولم يستطع أن يعدل به عن رأيه فيه إلا حين خوفه السلطان، وعندئذ وعده الحسن بالإقلاع عنه ويستدرك أيوب فيقول إنه عاش حتى رأى الحسن قد أقلع عنه فعلا [٣] .

وكان أيوب يرى أن القول بالقدر هو العيب الوحيد الذى يمكن أن يؤخذ على الحسن وكثيراً ما كان فى حماسته لأستاذه يتمنى هو وأصحابه أنه قسم عليهم غرام وأن الحسن لم يتكلم بالذى تكلم به .

فنسبة القدر إلى الحسن أقوى من نفيه عنه — إطلاقاً — لأن نسبته إليه مويدة بشهادة تلامذة له كانوا يكرهون القدرية والقول بالقدر ولو

---

(١) الاعتصام ١/١٨٥ (٢) تاريخ الذهبى ٣/٣٠٥

(٣) ابن سعد ٧/٢٢

أنهم وجدوا سبيلا إلى نفى التهمة عنه لنفوها ولو عرفوا كيف يتحفظون فى إسنادها له لفعلوا . ومن المهم أن نذكر اقتران رجوع الحسن عن القول بالقدر بالخوف من السلطان بعد إصراره عليه ، لأن أيوب نازله فيه غير مرة . فما الذى كان يفعله السلطان لو أن الحسن بقى مصراً على رأيه ؟ إن الحسن ليقف فى وسط المسافة بين معبد وغيلان . أما غيلان فقد لقى الموت على يد السلطان وأما معبد فقد خرج على الحجاج مع ابن الأشعث، ونهايته غير واضحة فحيناً يقال أن الحجاج قتله وحينا يقال إنه أرسل به إلى عبدالملك فقتله وأيا كان الأمر فإن معبدا لم يقتل لقوله بالقدر . كما أن غيلاناً واجه عمر بن عبد العزيز بمبادئه وعاش يعتنقها حتى عهد هشام، ولاشك أن القول بالقدر لم يكن السبب الوحيد الذى أدى إلى التخلص منه . وهنا يعترضنا رأى جولد تسيهر فى أن أصحاب السلطان الأمويين كانوا يكرهون القائلين بالقدر لا لضيقهم بالمناقشات الكلامية فحسب بل لأنهم لمحوا فى ترك عقيدة الجبر خطراً على سياستهم الخاصة . ليس من شك فى أن الدولة الأموية كانت تفيد من أفكار المجبرين الذين يرون فى الخلافة الأموية والظلم الواقع بسببها قضاء إلهياً لاقبل للانسان برده أو الثورة عليه ولكن الربط بين المبدأ القدرى النظرى وبين الناحية العملية — هذا الربط لم يتصوره الخلفاء الأمويون كما تصوره جولدتسيهر والتضحية بمعبد او بغيلان لم تكن لتخوفهم على سلطتهم ان تنهار ولكن مطاردة منهم لبدعة جديدة باسم الدين الذى نصبوا من أنفسهم حماة له : وقد خرج معبد فى الثائرين على الحجاج مع ابن الأشعث ومعه عشرات من القراء مؤمنون بالجبر ولم يكن خروجهم

جميعا بوحى من معبدا القدر بل لاعتقادهم أن الحجاج « أخر الصلاة عن أوقاتها » . بل إن معبدا أعلن عن ندمه بعد أن أخفقت الثورة لاشتراكه فيها وتمنى أنه كان أطاع الحسن فى دعوته للقعود . ولكن القدرية كانوا يجمعون إلى جانب القول النظرى بالقدر أفكارا ضد الدولة كقول خالد ابن معدان أحد تلامذة معبد حين سيق استاذه إلى القتل « إن البلاء كل البلاء إذا كانت الأئمة منهم (يعنى بنى امية) [1] . وهو يقول هذا لا لأنه قدرى ولكنه يقوله كما كان كثيرون غيره من أهل الجبر يقولونه . وأشد من ذلك وضوحاً أن يقول الحسن بالقدر فى زمن عبد الملك بن مروان نفسه — إن صح ماقاله أيوب — ثم تكون أوقاته مكرسة لتخذيل الناس عن الثورة مع ابن الأشعث . ومن الصعب أن نصدق — كما افترض أحد الباحثين[2] — بأن الحسن فى دعوته هذه إلى الكف كان يجنح للتقية فالتقية تلزم صاحبها بنفسها فى الموقف الحرج ولكنها لاتخرجه إلى العمل الإيجابى حين لايطلب ذلك منه ولاتفرض التقية على الحسن أن يبادر إلى نصح الناس بالقعود وهو قادر على أن يلزم بيته دون أن يصيبه أذى . وفى ثورة ابن المهلب كاد الحسن يهلك من أجل دعوته الناس إلى الكف وكان الحسن أذكى من أن يؤمن بالتقية ثم يذهب ضحية لها .

(ح) وقسم ثالث من الروايات يسند إلى الحسن مطلق القول بالقدر دون تلميح إلى شىء من تردده فيه أو رجوعه عنه . وطبيعى أن ينقل هذه الروايات تلامذته الذين أصبحوا فيما بعد قدرية كقتادة وعمرو بن عبيد أما

---

(١) تاريخ الذهبى ٣/٣٠٤

(٢) انظر البخلاء ص ٢٥١ فى تعليقات الحاجرى

قتادة فكان لا يعلن رأيه فى القدر بتحفظ بل يرفع به صوته رفعاً ليغيظ مخالفيه، وأما عمرو بن عبيد فقد انضم إلى واصل بن عطاء فى تأسيس مذهب جديد وهذا المذهب وإن لم يكن القول بالقدر سبباً فى نشأته اتخذ حرية الإرادة فى صميم بنائه من بعد. وتتلخص الأقوال التى صدرت عن الحسن من وجهة نظر القدرية فى قولة واحدة هى إنكار صدور الشر عن الله فقد قال: الخير بقدر والشر بقدر[1] وروى أبو الجعد أنه سمعه يقول: من زعم أن المعاصى من الله جاء يوم القيامة مسوداً وجهه[2] وسمعه داود ابن أبى هند يقول: كل شىء بقضاء وقدر إلا المعاصى[3].

وهناك رسالة فى القدر يقال إن الحسن كتبها الى عبد الملك بن مروان جواباً عن رسالة بعث بها إلى الحسن يستطلع رأيه فى مسألة القدر. ويتبين من كتاب عبد الملك أنه لم يكن راضياً عن اعتقاد الحسن بالقدر لقوله هنالك «وقد كان أمير المؤمنين يعلم منك صلاحاً فى حالك وفضلاً فى دينك ودراية للفقه وطلباً له وحرصاً عليه ثم أنكر أمير المؤمنين هذا القول من قولك فاكتب الى أمير المؤمنين بمذهبك والذى به تأخذ أعن أحد من أصحاب رسول الله (ص) أم عن رأى رأيته أم عن أمر يعرف تصديقه[4] ومن الغريب أن كتاب عبد الملك يتجاهل معبداً الجهنى وصاحبه سنهويه حين يقول «فإنا لم نسمع فى هذا الكلام مجادلا ولا ناطقاً قبلك». مع أن بعض الروايات تحاول أن تنسب لعبد الملك قتل معبد نفسه لقوله بالقدر.

---

(١) تاريخ الذهبى ١٠٦/٤ (٢) أمالى المرتضى ١٠٦/١

(٣) المصدر السابق

(٤) نسخة كتاب عبدالملك بن مروان إلى الحسن بن أبى الحسن البصرى مصورة رقم ٥١٢١ آداب بمكتبة دار الكتب المصرية. ورسالة عبد الملك ورقة ٢ — ٤.

وقد كان الرد على كتاب عبد الملك استشهاداً بالآيات القرآنية الكثيرة التي تؤيد فكرة القدر من بعيد أو قريب مثل «ما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» فأمرهم الله بعبادته التي لها خلقهم ولم يكن ليخلقهم لأمر ثم يحول بينهم وبينه لأنه ليس بظلام للعبيد. ومثل «كل نفس بما كسبت رهينة». ومن ذلك قوله تعالى «ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم»[1]. ويقول الحسن شارحاً فكرته: «واعلم يا أمير المؤمنين أن الله لم يجعل الأمور حتما على العباد ولكن قال إن فعلتم كذا فعلت بكم كذا وإنما يجازيهم بالأعمال»[2] ومع ان الحسن يخاطب سيداً من السادات فإنه لم يخف عقيدته بأن السادات والكبراء هم الذين يضلون الناس السبيل. كذلك قرن الله الهدى بنفسه فقال «إن علينا للهدى» وقرن الضلالة بفرعون فقال «وأضل فرعون قومه وما هدى» وبالسامري فقال «وأضلهم السامري» وبالشيطان حين قال إن «الشيطان ينزغ بينهم»[3].

اما قوله تعالى «إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون» فالغيّ في هذا الموضع العذاب لقوله في موطن آخر «فسوف يلقون غيًّا» أي عذاباً أليما[4]. وعلى هذه الطريقة يؤول الحسن آيات أخرى يمكن أن يؤخذ منها معنى الجبر.

وفي نهاية الرسالة ما يدل على أن هناك شخصاً ثالثاً إلى جانب الحسن وعبد الملك إذ جاء فيها «في كتاب الحسن بعد كتاب الله الشفاء والبرهان

(١) المصدر السابق ورقة ٥ — ١٠ (٢) المصدر نفسه الورقة ١٠ — ١١
(٣) المصدر نفسه الورقة ١٣ — ١٤
(٤) رسالة الحسن البصري ورقة ١٦

وقد بعثت اليك يا أمير المؤمنين نسخة كتاب الحسن لتنظر فيه وتفهمه لىزيدك الله هدى إلى هداك . . الخ[١] ، وتنتهى الرسالة بثناء على الحسن يفهم منه أن الشخص الثالث معاصر له لقوله ، واعلم أنه لم يبق من أصحاب رسول الله (ص) أحد هو أعلم بالله تعالى وأفقه فى دين الله أو أقرأ لكتاب الله من الحسن مع صلاح حاله وثقته فى دينـــه وأمانته واهتمامه بأمور المسلمين فأكرمه كرامة ترجو بها ثواب الله تعالى فى الآخرة والأولى ،[٢] من هو هذا الشخص الثالث الذى يوصى بالحسن وكيف تجوز فعد الحسن من أصحاب الرسول ؟.

هذا هو ملخص الرسالة ولا نعلم أن أحداً أشار إليها قبل الشهرستانى[٣] وقد عنى بها الأستاذ المستشرق ريتر[٤] وتناولها على أنها للحسن البصرى . وليس فى مستوى تفكيرها ما يمنع أن تكون له وخاصة وأنها تدور حول فكرة واحدة هى نفى الشر عن الله أو أن الخير بقدر والشر ليس بقدر . وهى — فيما أعتقد — النافذة الأولى والوحيدة التى نفذ منها الحسن إلى الفكرة ولم يتعدها . كما أن فيها طريقة الحسن فى توجيه الآيات القرآنية ، وتفسير القرآن بالقرآن . فإذا كانت الرسالة منحولة للحسن فإنها تشير إلى لباقة فيمن نحله إياها ، وإذا استبعدنا الفقرة الأخيرة ، صح أن تكون من عمل أحد تلامذته الأولين كعمرو بن عبيد مثلا وتكون موجهة إلى أبى جعفر المنصور . وهو ظن ليس هنالك ما يثبته . على أن سكوت المصادر المتقدمة فى الزمن عن أية إشارة اليها لا يبعث على كثير من الاطمئنان وإنه

---

(١) رسالة الحسن ورقه ٢٣

(٢) المصدر السابق (٣) الملل والنحل

(٤) أنظر مجلة De l'Islam عدد ٢١ سنة ١٩٣٣

لم يكن كافياً لينفى صدورها عن الحسن . ولا بد لنصدق إمكان المكاتبة بين الحسن وعبد الملك فى مسألة القدر من أن نطرح جانبا كل مايقال عن قتل معبد فى القدر أيام الخليفة المذكور . ثم أين يذهب قول أيوب إنه نازل الحسن فى القدر وخوفه السلطان بيناهو يكتب إلى السلطان برأيه فى صراحة.

أما أن الحسن نفى صدور الشر عن الله فهذا مالا شك فيه ، وأما أنه كتب رسالة إلى عبد الملك يوضح فيها رأيه فأمر لا يمكن القطع به وإن توفرت لدينا رسالة — ساذجة المبنى والجدل — تقول بذلك وفى العقد[1] قطعة تشبه ما جاء فى الرسالة إلى حد كبير ولكنها مخالفة فى الصيغة وهى « إن الله خلق الخلق للابتلاء لم يطيعوه باكراه ولم يعصوه بغلبة لم يهملهم من الملك وهو القادر على ما أقدرهم عليه والمالك لما ملكهم إياه فإن يأتمر العباد بطاعة الله لم يكن الله مثبطاً لهم بل يزيدهم هدى إلى هداهم وتقوى إلى تقواهم وأن يأتمروا بمعصية الله كان الله قادراً على صرفهم إن شاء ، وإن خلى بينهم فمن بعد إعذار وإنذار » ويتضح فى هذه القطعة ميل شديد إلى تغليب جانب الرحمة بالعبد وصرفه عن الذنوب ، وربما تميزت هذه المبالغة عن الرسالة نفسها ولكن كلتا القطعتين تتمتع بنظرة عقلية إلى جانب الرجاء وهى نظرة تستكثر على الحسن العاطفى الذى كاد يؤدى به خوفه إلى اليأس

وقد أراد الأستاذ ريتر باعتماده على هذه الرسالة أن يعد الحسن البصرى مؤسس مذهب القدر محاولا أن يشكك فى مركز معبد الجهنى من هذه الناحية لأن ما وصلنا عنه غامض لا يكفى لإظهاره بمظهر المؤسس لمذهب جديد وليس هناك ما يمنع من أن نعترف لمعبد بالتأثير فى هذه الناحية فإن

(١) العقد ٢/٣٧٧

الغموض فى الواقع يكتنف موقف الحسن أيضاً من المسألة كما أنا لا نعتقد أن الحسن كان على وضوح تام فى معنى نفى الشر عن الله . أما تكذيبه أن أعمال الملوك تجرى على قدر الله فغير واضح كذلك وهو يتعارض مع دعوته العملية الجبرية . وأما دعوته إلى الخير والاستقامة فلم تنشأ لاعتقاده أن الناس قادرون عليهما — كما يرى الأستاذ ريتر — ولكن لأنهما غايتان ضروريتان حتى وإن عجز الناس عن بلوغهما . وقد يكون نفى الشر عن الله فكرة جاءته من طريق معبد أو جاءته من تفكيره نفسه . وأيا كان الأمر فإنها خطوة لازمة لرجـــل متشدد فى التنزيه وأما النتائج المترتبة عليها أو المتفرعة عنها فلم تتضح إلا بعد الحسن بزمن . وقد أصاب ابن الأعرابى فى وصفه للاختلاف فى حقيقة مبدأ الحسن حين قال — مستعملا اصطلاحات لم تكن فى القرن الأول — «كان (الحسن) يتكلم فى الخصوص حتى نسبته القدرية الى الجبر وتكلم فى الاكتساب حتى نسبته السنة الى القدر، كل ذلك لافتنانه وتفاوت الناس عنده وتفاوتهم فى الأخذ عنه فلما توفى تكشفت أصحابه وبانت سرائرهم وما كانوا يتوهمونه من قوله بدلائل يلزمونه بها لا نصاً من قوله» [1]

ثم يجىء بعد ذلك فكرة رجوع الحسن عن قوله وهى مسألة قد تحمل على الظن بأنها من عمل أهل السنة الذين أرادوا أن يبرئوه من تهمة لا يقرونها وقبل أن نتهم أهل السنة بذلك علينا أن نتذكر المناظرات التى أقامها عمر ابن عبد العزيز لغيلان وصاحبه لعله يقنعهما بالتخلى عن تلك الفكرة [2] وقد شهد الحسن عهد عمر دون أن نسمع شيئا عنه فى هذه المسألة . فهل

(١) تاريخ الذهبى ٤/٥ ١٠ نقلا عن كتاب طبقات النساك لابن الأعرابى

(٢) تهذيب ابن عساكر ٦/٣٩٦

يرضى عمر لصـــديقه باعتناق هذه الفكرة ويأباها على غيره ؟ أو أن المناظرات بين عمر وغيلان شيء خيالى ؟ أو أن المصادر هى التى قصرت فى واجبها حين لم تذكر شيئاً يتعلق بالحسن ؟ أو أن الحسن كان قد عدل عن رأيه كما يقول بعض تلامذته ؟.

وتجب الاشارة الى أن المصـادر تخلط بين شيئين يتضحان بجلاء إذا وضعناهما على شكل سؤالين ووجهناهما للحسن . السؤال الأول : هل يصدر الشر عن الله ؟ وجواب الحسن هنا ، كلا ، حتى آخر يوم من حياته ، السؤال الثانى : ألم يكن فى سابق علم الله حين أمر آدم ألا يأكل من الشجرة أنه سيأكل ، وجواب الحسن على ذلك : بلى والأمران مختلفان ولـكن الجدل فى القرن الأول لم يستطع أن يفرق بينهما .

وقد حاولت النزعة العلوية التى ترى حقيقة العلم فى على وأهل بيته أن تحل النزاع فى هذه المشكلة فالجأت الحسن البصرى الى الحسن بن على يسأله رأيه فى القضاء والقدر والاستطاعة ، حين انتشر مذهب القدرية وغلب أصحابه على من عداهم وكتب إليه الحسن بن على يقول : إن من لا يؤمن بقضاء الله كافر ومن نسب المعصية إلى الله فهو جاحد والنـاس أحرار فى اختيار أعمالهم حسب ما أودع الله فيهم من قدرة وديننا وسط بين الجبر والاختيار(١) . والجانب التاريخى من هذه الرواية لا يستطيع أن يقف فى وجه المناقشة لأن الحسن البصرى لم يكن قد ظهر على مسرح الحياة البصرية — والحسن بن على حى — ولم يعش الحسن بن على ليرى هذه الـكثرة المزعومة فى جانب القول بالقدر ولـكن هذه الرواية تتمم الحلقة التى طالما تحدثت عنها فى دوران الاتجاهات العلوية حول الحسن البصرى .

(١) كشف المحجوب ص٥٧

ملحق

فى دار الكتب المصرية رسالة مخطوطة ضمن مجموعة من الكتب رقم ٣٦٠٢ ج عنوانها رسالة الحسن البصرى فى فضائل مكة المشرفة كتبها لرجل من الزهاد اسمه عبد الرحمن بن أنس كان مجاوراً بمكة «وكان له فضل عظيم ودين ، ولم يكن له عمل فى الدنيا إلا عبادة الله تعالى وأنه أراد الخروج من مكة ، فكتب إليه الحسن ينصحه بالبقاء ويذكر له فضل الإقامة بمكة مستشهداً فى ذلك بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ويقول له فيها «وبعد فقد انتهى إلى أبقاك الله أنك عازم على الخروج من مكة من حرم الله عز وجل وجواره والتحويل منه إلى غيره وإنى واحد كرهت ذلك لك وغمنى واستوحشت لك وحشة عظيمة إذ أراد الشيطان أن يكيدك فيا عجبا من عقلك إذ نويت ذلك فى نفسك إذ جعلك الله من أهله ولو أنك تحمد لله على ما أولاك وآواك فى حرمه وأمنه (وأن صيرك الله من أهله) لكان الواجب عليك شكره أبدا ما دمت حيا . . والرسالة فى سبع عشرة صفحة فى كل صفحة تسعة عشر سطرا وقد كتبها أحمد محمد البتنونى ثالث شعبان سنة ١٢١٨ هـ . فهى من حيث التاريخ حديثة العهد ، وهى من حيث الأسلوب ركيكة لا يشبه أسلوبها أسلوب الحسن والقطعة السابقة بينة الركاكة وهلهلة النسج كما أن فيها من المناحى مالا يتطرق اليه الحسن مثل «أما بعد فإنى كتبت إليك وأنا ومن قبلى من الأقارب والإخوان على أفضل حال» . وليس للحسن البصرى فى الرسالة إلا إيمانه بفضائل مكة ولكن لا ندرى لم يكتب الحسن مثل هذه الرسالة ليمنع أحد أصدقائه من مغادرة

تلك المدينة المقدسة وهو نفسه لم يحج إلا مرتين وكان فى مقدوره أن يسكن مكة وينجو من البصرة وحياتها المتقلبة . وأهم من كل ذلك أن الأحاديث التى وردت فى الرسالة ليست جميعاً من مرويات الحسن — فيما استطعت أن أعرفه من مروياته — . أما جانب التأليف فى الرسالة فلا يكشف عن شىء — باستثناء المقـــدمة — لأن الرسالة مجموعة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وهى من ناحية الجمع للآيات والأحاديث تشبه الرسالة التى تقدمت فى القدر . فالطريقة واحدة وإن كانت البراعة أبين فى رسالة القدر منها فى هذه الرسالة .

فهرست الكتاب

صفحة

تصويب

صفحة	سطر	الخطأ	صواب
٧	١	ابى	بى
١٤	١٧	الأولية	الأولياء
٢٩	٥	قصية	قصصية
٢٩	١١	الفنة	الفتنة
٦١	١٧	اليس	ليس
١٠٤	٧	يبه	يأبه
١٢١	٢	لزاولة	لزاولته
١٣٤	١٥	الفقيد	الفقير
١٥١	٧	العلمى	العملى
١٥١	٢	ما	لما
١٥٢	١٦	أعطاه	أعطاه الله
١٦٤	٣	المسلة	المسألة
١٦٤	٤	بشنها	بشأنها
١٦٦	٥	نفصل	نفصل
١٦٧	١٣	والحزوروية	والحرورية
١٦٩	١٧	غرام	عزم
١٧٢	٦	والشر بقدر	والشر ليس بقدر
١٧٢	١٤	خذ	تأخذ
١٧٢	١٥	قسول	رسول